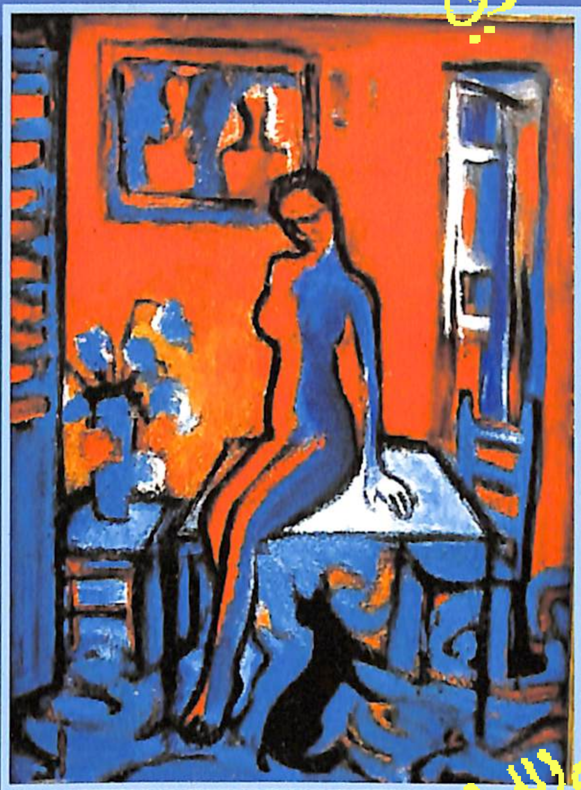
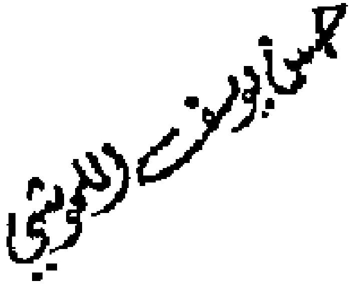
متاهة الجسد

رواية



خليفة حسين مصطفى

مجلس الثقافة العام



متاهة الجسد

متاهة الجسد

خليفة حسين مصطفى

الناشر

مجلس الثقافة العام

اســـم الكـتاب متاهة الجسد
اســـم المؤلـف خليفة حسين مصطفى
سـنـة النـشــر 2006 م
رقـــم الإيـــداع 7010/ 2006 م
الترقـيم الدولـي 8 - 118 - 38 - 9959

تصميم الغـلاف علي العباني
لـوحـة الغـلاف أحلام فكري
التنفـيذ الفـنـي عاطف الأطرش - نجلاء المنقوش

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت
هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161
فـرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار
هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388
ص ب 2764 طرابلس
فـرع بنغـازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني
هاتف 00218612241577 - 00218612241578
بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي
بريد إلكتروني - LCC2_2005 @Yahoo.ca
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

تنفيـذ الطباعـة
القاهرة ت 0020123140315

- 1 -

- قد يكون هناك أمل.

قـــال في نفسه وهو يمد يده لالتقاط معطفه الأسود المعلق بحافة الكرسي الوحيد في حجرته، وبعد أن تدثر به كيفما أتفق غادر المنزل مهـــرولا في غبش الفجر لاستلام وظيفته المرتقبة بحسب الموعد الذي لابد أن يكون مثبتا بشكل ما في لوحة القدر، أو أن هذا ما يرجوه.

لقـــد نهض مع أول خيوط الضوء متجاوزا بذلك الزمن العابث الـــذي كان يراوغه فيما مضى، ثم يزوغ منه هاربا بسرعة الرياح فلا يتمكـــن من اللحاق به، أما اليوم وفي ساعة الصباح هذه ففي استطاعته أن يوقفـــه ممسكا به من ياقة ثوبه الفضفاض، يوقفه ولو للحظات، ومع ذلـــك فهو يشفق على نفسه من الإخفاق وسوء الحظ الذي ظل يلازمه كظلـــه لمـــدة عاميـــن متتاليين، فإذا وفق هذه المرة في تخطي عثراته المـــتعددة فســـوف يضع قدميه في اتجاه آخر، وبذلك يتحرر من حالة التأرجح والبلبلة والتداوى بالصبر، بالرغم من إدراكه لعدم جدواه.

ســـوف يختلط بالموظفين والعمال في الشركة العربية العامة لخدمات البيئة ومكافحة التلوث، منغمسا حتى فروة رأسه في فوضى الحـــياة وتـــياراتها المتقاطعة، مجدفا في أمواجها المتلاطمة حتى إذا كـــان لا يعرف وجهته بالتحديد، لا جدال في أنه مقبل على الطواف بعـــالم آخر، بمنأى عن أطلال المدينة القديمة وخرائبها كما كان دأبه

مـن قـبل إلـى أن يصيبه الإعياء والدوار، إذ ذاك يداهمه النعاس كالغبار الذي يتنفسه في الهواء فيلوذ بفراشه وكوابيسه، كان في يقينه أن مغامـرة الحياة الدنيا هي أشبه بحرب غير معلنة لامناص من أن يتمرس المرء بمناوراتها وضجتها التي تصم الأذن، بل وأن يتمرس أيضا بخدعها ومكائدها الخفية.

كان ملمًا بكل طقوس السراب هذه ولو بشكل غامض مذ كان ملازمـا لمقـاعد الدراسـة، مـنهمكا على الدوام في التهام دروسه الجامعية كالوجبات السريعة، متلذذا باجترارها ـ فلا يكاد يتشبع بها إلا وقـت قصـير، إذ لا شيء يلهيه عنها، حتى وهو يتصفح خلسة وجوه البنات المتوردة والمتفتحة من حوله في هيئة واحة من الزهور البرية، يبدو كما لو أنه يقلب صورهن الملونة في خياله، أو في مجلد ضـخم يضعه تحت عينيه على حافة المدرج العريض، ولكنه ما أن يلتفت وراءه حتى يراها هي وحدها باتساع مساحة عواطفه المكبوتة، مسـتغرقة فـي تسوية خصلات شعرها الفجرى بأصابع من الشمع، مبتسـمة بسـعادة تـبللها كالـندى في فجر أحلامها السرية، كانت مشـروعه للتخرج وقد بذل فيه أقصى جهده إلى حد أنه تخطى كل الـتوقعات بتفوقه المذهل، مؤطرا إياه بدرجاته التي لم يحظ بها أحد غـيره مـنذ افتتاح كلية العلوم بطرابلس في احتفالية باذخة، وبذلك تخـرج الأول علـى دفعته من الجنسين، يومئذ وفيما هو يتقد بحمى المفاجأة السارة لم يتخلف أحد من الأساتذة والطلاب لكي يشهد على كفاءته وجدارته بالامتياز، بالإضافة إلى ذلك فقد أعلنوا بدون مواربة بـأن هذا المخلوق الرث قد وُهب عقلاً ذهبيًا يتوجب الحرص عليه

وحمايته من عوامل الصدأ والتلف التي قد تدمره عند تعرضه لضغوط الحياة وتقلباتها المزاجية وأوهامها، أو عند خروجه إلى الشارع المغمور بالطيش والإحباطات.

كانت مكتئبة عندما أقبلت نحوه متهادية في ذيل رف من زميلاتها الحالمات لتهنئته بالنجاح، قالت له بطرف لسانها: "مبروك يا عمر" وكأنها تعزيه، ثم سحبت يدها التي في رطوبة إسفنجة من كفه المتعرقة وانصرفت مسرعة باتجاه الباب الخارجي واثقة من أنها لن تراه بعد اليوم إلا صدفة، وكان هذا إحساسه أيضا فأخذ يرقبها بلوعة حين أدارت له ظهرها مبتعدة بضفيرتها الطويلة في الممر الشاحب الضوء، باختفائها عن عينيه انطفأت فرحة الامتياز في أعماقه، فلم يتبق منها شيء سوى أصداء خافتة مترافقة مع ضربات صندلها على البلاط.

بعد مضي ما يقرب من ستة أشهر على هذه اللحظة الفاصلة وفيما هو لا يزال تائها في بحثه عن عمل يعيش منه حتى إذا كان لا علاقة له بتخصصه العلمي فكر في أن يطرق بابها، ولكنه ما لبث أن أدرك عبث ومهانة مثل هذه الخطوة البائسة التي لا جدوى منها في كل الأحوال، ومما زاد في شعوره باليأس العملية الحسابية التي أجراها بمساعدة زميله في السكن الملقب بالصومالي لمعرفة نسبة حظه في الفوز بفتاة جميلة ومدللة تنحدر من صلب رجل يقف على رأس صف طويل من نبلاء النفط وتجار السلع الفاسدة والمهربين، لقد تأكد يومئذ من أنه يحتاج إلى نصف قرن على الأقل لكي يشحذ قواه وينهض على قدميه فيكون جديرا بها، وهكذا ضم فتاته المدعوة فرح إلى سراب ذكرياته الحميمة في زمن الكفاح المرهق لنيل شهادة التخرج في الكيمياء الحيوية.

حـــدق بريبة وبشيء من الرهبة في المبني المكون من خمسة طوابــق وـــله مسحة أثرية، نوافذه تبدو صغيرة وعالية كما لو أنها نوافــذ سجن من القرون الوسطي، فيما بابه الضخم الذي من خشب الزان مفتوح على مصراعيه، وهو يخطو ببطء في اتجاه المبنى رفع عينـــيه إلى اللافتة التي خط عليها اسم الشركة بحروف كبيرة مشكلة بطـــريقة أقرب إلى رسوم الأطفال، هناك احتمال بأن يصبح بتوفيق من الله عضوا عاملا ونشطا في خدمات البيئة ومكافحة التلوث بكل نماذجـــه ورواســـبه النتنة، أعجبته الفكرة، فهذه الوظيفة على الأقل تـــتكافأ إلى حد ما مع تخصصه العلمي، وبذلك فقد شحذ أنفاسه لكي يـــرتقى الدرجات القليلة التي تفضي إلى زمنه المفقود، وما لبث أن دلـــف إلـــى ردهـــة خافتة الضوء مغمورة بصمت مرهف في رقة الهـــواء، لـــم يـــدر أول الأمر إلى أين يتجه، وفيما هو يدير رأسه متفحصـــا الأشـــياء من حوله ظهر في محيط حيرته رجل لـــه هيئة غـــريق، وجهه بلون ثيابه المجعدة، كان يدعك عينه بيد، وقد صلب يده الأخرى في الهواء، ومتمتما بصوت غائم:

ـ أعوذ بالله، يا صبح يا فتاح؟!

ثـــم تفـــرس في المخلوق الغريب الذي ظهر في الردهة فجأة ليعيده إلى عالم الواقع، وصاح به:

ـ تفضل يا أخ؟

إنـــه موظف الاستعلامات، وقد غلبه النوم فيما يبدو وهو جالس علـــى كرسيه في حجرته المعدنية الملاصقة للباب، قد تكون عصافير أحلامه مازالت ترفرف من حوله، وربما كان يهم باقتناص إحداها حين

أفاق من غفوته اللذيذة على معطف أسود لا يدرى صاحبه أن الوقت لم يحـن بعد لاستقبال المواطنين من ذوى الحاجات، كما أنه لا يعرف أن موظفـي الشـركة لم يتناولوا قهوتهم الصباحية بعد، وهناك من ناحية أخـرى حديث الشؤون العامة الذي لا مفر من أن يخوضوا في بركته الأسنة جيئة وذهابا لمدة ساعة على الأقل، ثم تداول آخر ما استجد من إشـاعات وأخبار دبقة، يتبادلونها فيما بينهم بشكل احتفالى، إضافة إلى ذلـك فلا بد من المرور بمنصب المدير العام الذي يدعونه بالطاووس لدأبه على تغيير ريشة الملون من يوم لآخر، يمسكون به من ذيله الذي يشبه المروحة، أو من عرفه الرطب في حالات أخرى، ثم يجرونه في كـل اتجاه بصخب عارم، يفتشون في جيوبه، وقد يتمادون في طيشهم فـيرفعونه فـي الهـواء وينفضونه عدة مرات، وفي النهاية يشرعون سـواطيرهم اللامعـة لتقطـيعه إربا إربا، ما أن يفرغوا منه بعون الله وتوفيقه حتى يندفعوا في فوضى رهيبة باتجاه بوابة النميمة التي تفضى إلـى خلية موظفات الشركة من الآنسات والسيدات فيقصقصن ريشهن حـتى لا تـبقى ريشة واحدة في أجسادهن، أما أمينة سر المدير العام بأنوثـتها الصارخة التي تخلخل العظام مذكرة بنعم الحوريات في جنة السـماء فهـي تظل على الدوام أقرب إلى المادة الخام التي تحتاج إلى مهارة فائقة وصبر لا ينفد لتصنيفها ضمن شبكة من الحكايات والأسرار التـي ينسجونها على مهل بخيوط من الفضة ذات عقد صغيرة، وأحيانا بخـيوط مـن الحنيـن، فيجب أولا انتزاع ملابسها قطعة قطعة، وهم يتأملون منبهرين ومتعرقين كل عضو في جسدها على حدة، النهد وهو يرقص على أنغام موسيقى حالمة، الساق بانسيابها السحري الذي يفجر

الدمع في عيونهم المتورمة، أما عمودها الفقري فهم يعدون كل فقرة فيه على أنها حلقة مذهبة في جسر الآهات والتنهدات المكبوتة.

وكل ذلك مؤشر على أن هؤلاء الموظفين المحترمين قلما يشرعون في عملهم الرسمي إلا في حدود الساعة العاشرة، أي قبل حضور الطاووس بدقائق قليلة، فلا ينفضون عادة إلا على إيقاع خطواته التي يترجع صداها في الممر كدقات جرس إنذار، وفي كل الأحوال فلا يجب إطالة الحبل لصاحب المعطف الأسود، إذا أنه لا مناص من إعادته إلى الشارع.

وهكذا فما أن انتهى موظف الاستعلامات من استعراض طقوس العمل في الشركة العربية العامة لخدمات البيئة ومكافحة التلوث حتى مسح بيده على وجهه وقال:

- في هذا الوقت لن تجد من ينظر إليك حتى بنصف عين، الأفضل أن تعود بعد ساعتين على الأقل.

لقد أرفق موظف الاستعلامات ملاحظته هذه بابتسامة مريض في الرمق الأخير، أما عمر عبد الحميد فقد استغرق من جانبه في تأمل هذا الكائن البشرى الذي لا يقل عنه بؤسا، كأول عقبة في طريقه، مدققا في هيئته من نفس النافذة التي تطل منها عينان خامدتان ورأس في حجم بيضة وهيكل عظمى مغلف بقماش يكاد يكون بلا لون، هما الاثنان بلا شك يعانيان من محنة واحدة، محنة الإحساس بالعدمية والتفاهة عندما يكون الإنسان مخلوقًا غير مرئي وهو لايزال على قيد الحياة، مخلوقًا بلا صوت ولا ظل، يتنفس فائض الأوهام والسقم.

تنـبه إلى أنه لم يعرفه بنفسه، ولكن الوقت لم يفت بعد، حدق في وجه موظف الاستعلامات، ثم قال:

- أنا عمر عبد الحميد، موظف جديد بالشركة.

وأضاف مستدركا:

- هذا إذا قبلوني بالطبع؟

ولدهشته فقد مد موظف الاستعلامات يده، وصافحه بحرارة كأنه ضيف عزيز كان ينتظره بنفاد صبر على قارعة الطريق.

- أهلا وسهلا، تشرفنا يا أستاذ عمر.

- فـي الحقـيقة أنـا جئت بناء على موعد مع المدير العام لإجراء المقابلة الشخصية.

ولم يزد الرجل الكهل على أن قال بشرود:"أهلا وسهلا".

ثم مسح على وجهه مرة أخرى، متلفتا فيما حوله بشيء من الريبة وكأنـه يرى الطاووس يدلف من الباب العريض بأناقته وجبروته كأبرز صفتين عرف بهما منذ توليه لمهام منصبه الرفيع على رأس الشركة.

- مـع الأسف المدير العام لم يحضر بعد، أما إذا كان لديك أذنيـن تسـمع بهما النصيحة، فأنا أنصحك بالبحث عن عمل في أي مكان آخر، الدنيا واسعة والرزق على الله.

وبعد أن أشعل لفافة من التبغ الرخيص تابع مؤكدا:

- هذه الشركة مشئومة وكل الناس يعرفون ذلك؟

وبقدر ما أجهد ذهنه في التركيز وهو يدخن لفافته بشراهة فقد روى لعمـــر عبد الحميد وقائع محددة ودامغة عن نائب المدير العام المدعـــو عبد الدائم الذي فقد عقله فظل هائمًا في متاهة الجنون دون أن يتمكن من الخروج منها إلى أن قادته ذات يوم يد خفية في اتجاه بوابـــة الآخـــرة رحمه الله، وما هو أسوأ من ذلك وربما أكثر إثارة للبكاء بلا دموع إقدام إحدى موظفات الشركة وهي شابة في الخامسة والعشرين من عمرها على الانتحار بإلقاء نفسها في وضح النهار من نافذة مكتبها في الطابق الخامس إلى الشارع، وهناك حارس الشركة الليلـــي الذي هرب بجلده مدعيا أن الشركة مسكونة بعائلة من الجن، يشـــتبك أفـــرادها فـــي شجار عنيف مع هبوط الظلام، وأحيانا في منتصف الليل، وفي حالات أخرى قرب الفجر.

كان من المحتمل أن يتحفه بمزيد من المصائب والمآسي عندما قاطعـــه رنين الهاتف الذي يشبه صوت عصفور يغرد برغم العاصفة فأســـرع إليه، رفع السماعة وقال: آلو - آلو - وظل منصتا للحظات لكـــن أحـــدا لم يجبه بشيء فيما بدا، فأغلق الهاتف بضربة عنيفة، ثم استدار في اتجاه عمر عبد الحميد وفي عينية غيم كوارث بما لا يخطر على بال أحد، ولكن هذا الأخير قطع عليه الطريق بسؤال محدد.

- ولكن في تقديرك متى يمكن أن أجده؟

أطفأ الرجل عقب لفافته وأجاب متفكرا:

- مواعـــيد المديـــر العـــام هي غالبا بين العاشرة والعاشرة والنصف إلا إذا كان عنده اجتماع مهم.

هــز رأسه بغموض، وهو لا يدري لماذا أراحته هذه الإجابة بالـــرغم من أنها غير مشجعة، فقد يكون ذلك لأنه كسب وقتا إضافيا لـــتهدئة هواجسه وإعادة ترتيب أفكاره المشوشة التي طالما أرقته في الأســـبوع الأخير على موعد المقابلة المصيرية، أو لأنه ليس متأكدا مـــن شيء، فثمة احتمال في أن تذهب آماله في هذه الوظيفة أدراج خيـــبة الأمـــل، وقد تخطئه ضربة الحظ من جديد، بالنظر إلى أن هذه ليســـت هي المرة الأولى في تاريخ إحباطاته التي يتقدم فيها إلى إحدى الجهات الرسمية طالبا وراجيا التوظف، مع إدراكه بأنه إنما يضع طلبه فـــي مهب الصدف، فأينما ذهب كان يصطدم بإعلان معلق في الواجهة بعدم الإزعاج لأنه لا توجد وظائف شاغرة في الوقت الحاضر.

لقد أتاح لـــه رد موظف الاستعلامات فرصة إضافية للتأمل فيما ســـوف يؤول إليه وضعه في حالة إخفاق مساعيه المضنية في محاولته هذه، ولذا فقد استدار على الفور في اتجاه الباب حتى لا يستغل موظف الاستعلامات بلاهته فيحمله بأكثر مما يحتمل من الهموم والأحزان التي لديه منها ما يكفي، فمضى مجرجرا قدميه في الشوارع المغبرة من دون وجهـــة معيـــنة إلى أن اهتدى إلى مقهى صغير يقع في رأس منعطف ضيق دلف إليه بلا تردد، ثم جلس إلى منضدة شاغرة بحذاء الباب، أمر بفـــنجان مـــن القهوة وقطعة من المرطبات، ما أن أحضرها إليه النادل حـــتى شـــرع في تناولها بالشوكة والسكين دون أن يتوقف عن مراقبة المـــارة القلائـــل من خلف واجهة المقهى الزجاجية، متفحصا وجوههم وهيـــئاتهم كما لو أنه يود التعرف عليهم واحدا واحدا، وهي العادة التي اكتســـبها في فترة البطالة من ضمن أشياء كثيرة لا جدوى منها، ولكنه

يعدها من التسالي البريئة التي يمارسها بالمجان لقضاء الوقت فحسب، وليقيـــنه في أن مظهر كل إنسان هو بوصلة تؤشر إلى وضعه المادي والروحـــي، لـــدى انـــتهائه من الأكل أخذ في احتساء قهوته بجرعات صـــغيرة وبطيئة، متمهلا ما استطاع لكي يراوغ الزمن الذي يتقل على صدره إلى أن يحين موعده.

كـــان الـــزقاق شبه مقفر في هذا الوقت من الصباح، ولذا فقد زحف بكرسيه إلى الأمام قليلا حتى يوسع من دائرة الرؤية والإحاطة بما يجري في الشارع الرئيسي الذي يشق المدينة إلى نصفين، ولكن ذلـــك لـــم يمـــنعه من التفكير بحاجته الملحة إلى جريدة من جرائد الصـــباح يهـــادن بها قلقه وضيقه بأفكاره المحبطة وتوقعاته المريبة التي يتماوج بها رأسه في تيارات صاخبة مذ فتح عينيه على ضباب الفجر الذي يغطي سماء المدينة القديمة، وبذلك فلن يمل الجلوس في المقهـــى، كما أنه يتخلص ولو إلى حين من حرب طواحين الهواء، فمـــن خـــلال أوراق الجريدة يمكنه الرحيل في جولة استكشاف عبر أزقة وحواري العالم فيما وراء البحر والصحراء بمنأى عن همومه الشخصـــية، يشـــارك دون أن يغادر كرسيه في المقهى في مظاهرة ضـــخمة تضـــج هتافاتها المدوية ولافتاتها بسقوط الشركات المتعددة الجنسية وبسقوط العولمة التي هي آفة العصر، وبسقوط آخر جنرال من مصاصي الدماء وكذلك تجار الحروب والدعارة، يطالع آخر ما اســـتجد مـــن أخبار أطفال فلسطين وهم يطلقون طيورا من الحجارة تـــنقر عـــيون جـــنود العدو فتفقأها، يرى نفسه كما لو كان في حفلة تنكرية وهو يرقب بذهول أحد أباطرة الصناعة والتجارة في أمريكا

يصـــعد متسلقًا قمة هرم من الأوراق المالية قابضًا بإحدى يديه على ذراع امـــرأة فاتنة، وباليد الأخرى طوق كلبه المدلل، يقفز من فوق صـــفحات الأزيـــاء النسائية ليخوض في وحل السياسة العالمية، أما الألعاب الرياضية ومباريات كرة القدم وأساطيرها فلن يتوقف عندها لأنهـــا لا تهمه في شئ، فهناك دائما ما هو أجدى من أن يشغل نفسه بمعـــرفة كم يساوى هذا اللاعب أو ذاك عند عرضه للبيع في مزاد علنـــي كما في أسواق خيول السباق، إلا أنه برغم إغراءات الضيافة لكـــي يكـــون أول الحاضرين في مهرجان الولائم والنفاق السياسي والـــرقص تحت سحب من البخور وبهارات قصص الحب والجريمة فقـــد تـــراجع عن فكرته هذه عندما رأى السماء تدمع، ثم إن الرياح الـــباردة التـــي تهـــب من قلب البحر لن ترحمه، كما أنه قد يصاب بالدوار ريثما يعثر على محل مفتوح لبيع الصحف والمجلات في هذه المديـــنة التـــي يستغرقها النوم حتى الضحى، إذا فليس هناك ما هو أفضـــل من التحديق في عباد الله، أو الانصراف إلى تقليب تعاساته المتراكمة من حولـــه، لم يطل به الوقت حين ظهر عند باب المقهى رجـــل بهيئة محترمة، ومع ذلك فهو لا يشك في أنه ينتمي إلى طبقة الشحاذين الذين تجاوزتهم عدالة الأرض ولم يتمكنوا من العبور إلى جـــنة الذهـــب الأسود أو حتى تسلق جدرانها الشاهقة، تقوده من يده بنـــت صـــغيرة فـــي حجـــم جرادة، ضئيلة وشاحبة الوجه بما يكفي للإعلان عن أن دوامة البؤس ما زالت أسرع من كل الدوامات التي تجـــرف بعـــض الناس في طريقها كالحصى، وقد يكون لهذا الأمر علاقة بقدميها الحافيتين، ما إن اختفى الشحاذ عن عينيه هو وجرادته

الجائعة حتى طفت عند رأس الزقاق امرأة من جيل الجدات، متدثرة بــثوب أبــيض يلفها بما يشبه الشرنقة، تمشى متعثرة في أذياله التي تكــنس الأرض مــن حولهــا، قــد تكون تائهة، فما أن قطعت عدة خطوات داخل الزقاق حتى توقفت ملتفتة حولها بدهشة وحيرة إلى أن لحقــت بها شابة في حوالي العشرين من العمر متوردة ومثقلة بعبير الأنوثــة المخــدرة، جســدها الفتى محشو بصعوبة في بنطال ضيق وقمــيص حريــري عقدت أطرافه من حول خصرها النحيل، تبدو فــرحة بنفســها وغير عابئة بمصائد الحنين المنصوبة في طريقها، كانت مسلحة بروح العصر حتى حلمتى نهديها المتأرجحين في تحد صارخ لإرث الكبت والدونية وتقاليد الزمن الغابر، لا يدري ما الذي قالــته المرأة المحجبة وهي تهز يدها في وجهها مهددة إياها بعنف، أما الصبية فقد ابتسمت غير مبالية بأزمة الصراع بين الأجيال.

لقــد مرّ الوقت بأسرع مما قدر لـــه فيما هو منهمك في لعبته العابــثة بإزاء تقلبات الحياة وتحولاتها المسرحية، بنظرة خاطفة إلى ســاعة يــده فوجئ بأن موعد المقابلة قد تقلص إلى أقل من نصف ساعة، فنهض واقفا، وبعد أن دفع ثمن إفطاره أسرع في اتجاه مبنى الشــركة العامــة لخدمــات البيــئة ومكافحة التلوث، قطع الطريق بخطــوات واسعة، تلاحقه الرياح الباردة مصفرة في أذنيه، لا يدرى كــيف أنه كان محظوظا في هذه المرة، فحين دلف إلى الردهة لاهثا ومــبللا بــرذاذ المطر حياه موظف الاستعلامات بمودة من دون أن يعــترض طــريقه بشــبكة منسوجة من الهذيان والشؤم، فقد اكتفى بإرشــاده إلى مكتب أمينة سر المدير العام التي تدعى أحلام مؤكدًا

لـــه علـــى أنهـــا هي الآمر الناهي في شؤون الإدارة، أشار لـــه بالصـــعود عـــبر السلم الرخامي معتذرا لـــه بأن المصعد العمومي عـــاطل عن العمل، وأما المصعد الثاني فهو مخصص للمدير العام وضـــيوفه وزواره من صفوة القوم فلا يجوز فتحه لأحد غيرهم، يقع مكتب المدير العام للشركة في الطابق الخامس، وبالرغم من أن عمر عبد الحميد تعود على الصعود والهبوط والهرولة والقفز كالأرنب في بحثه اليائس عن عمل فقد تقطعت أنفاسه، كان يلهث عندما أطل على ممـــر عـــريض تحف به من الجانبين أبواب مغلقة وأخري مواربة تســـودها ضجة صماد، وبحسب توجيهات موظف الاستعلامات فقد انعطف إلى الجهة اليمنى، ومشى متخبطا في قلقه كما لو أنه يتنشقه في الهواء إلى أن توقف عند سهم أسود يشير برأسه إلى لافتة كبيرة بـــنفس اللون كتب عليها: "مكتب المدير العام" طرق الباب الموارب بـــرؤوس أصـــابعه، ثـــم دفعه برفق وتقدم خطوتين ليجد نفسه في مواجهـــة فتاة جميلة ذكرته بفرح التي أنجز في ضوء عينيها الزيتين مشـــروعه للـــتخرج بتفوق، كانت أحلام جالسة إلى مكتبها العريض على كرسي دوار مبتسمة لنفسها في مرآة صغيرة مرفوعة في يدها قـــبالة ضوء الشمس المتسرب من النافذة في حزم رقيقة، لدى رؤيته يطـــل علـــيها من وراء إطار الباب بمعطفه الأسود مترددا ومرتبكا أعادت المرآة إلى حقيبة يدها، ثم خاطبته برقة أثارت دهشته:

- تفضل يا أخ، أي خدمة؟

تقدم خطوة ثم قال:

- إذا سمحت عندي موعد مقابلة شخصية مع المدير العام.

أشارت لـــه بالجلوس على كرسي جلدي بحذاء مكتبها، ثم سحبت مفكرة بجلد أخضر من درج مكتبها، تفحصتها بنظرة خاطفة، ثم قالت:

- أنت بالتأكيد عمر عبد الحميد؟!

حيـــن هز رأسه بالإيجاب نهضت واقفة وهي تسوى أطراف فســتانها كما لو أنها كانت تترقب حضوره بين لحظة وأخرى، لدى انتصـــابها على قدميها رأى جسدها النائم وقد دبت فيه الروح فشرع فـــي الـــتماوج محمولا بحرص وأبهة على فردتي حذاء بكعب عال، انقـــاد إلى ذهوله وهو يتنشق عبير الأنوثة الفواح كما لو أنه يهز في خـــياله غصـــن شجرة ياسمين في قريته النائية، وعلى أثر ذلك هدأ تنفســـه وانقشـــعت الغيوم من رأسه، أما هي فقد خطت برشاقة نحو مكتـــب المديـــر العام، لم تغب لأكثر من دقيقة واحدة، وعند عودتها أشارت إلى الباب الذي تركته نصف مفتوح.

- المدير العام في انتظارك؟

شكرها بصوت لا يكاد يسمع ومضى إلى قدره، لدى عبوره إلى المكتب الفسيح شده ما رأى، كانت حجرة واسعة أكثر إبهارا وبذخا بما لا يمكـــن تخـــيله، مفروشة بسجادة عجمية تترقرق في ضوء الشمس بألوان الطيف، أحس بنعومتها من تحت قدميه وكأنه يخوض في طبقة كثيفة من الريش، الجدران مرايا بيضاء والستائر المخملية المنسدلة على النوافذ تبدو أشبه بظلال أرجوانية تتماوج ببطء، أما الأثاث فهو طراز وحـــده، وقـــد أستدل بحاسة الشم على أن أخشابه مقطوعة من أشجار

عطرية الرائحة، موزع على امتداد الجدران بذوق رفيع، هناك في الواجهة خزانة بنية تمتد بعرض الحائط، بها عدة مجلدات بأغلفة متناسقة، بالإضافة إلى مجموعة من الملفات والتحف النادرة، مرت عيناه بطاولة الاجتماعات الضخمة محاطة من الجانبين بصفين من الكراسي ذات مساند عالية، تتوسطها مزهرية فاخرة مؤطرة بباقة من الزهور اليانعة، عد خمسة هواتف بألوان مختلفة، أما جهاز التلفزيون فقد ظهرت في سمائه البلورية راقصة أسبانية يتثنى جسدها البديع بحيوية ورشاقة على إيقاعات موسيقى غجرية، فتبدو على وشك أن تحلق في الهواء بإزارها الحريري حالما تفرد ذراعيها في هيئة فراشة، كان المدير العام يوزع اهتمامه بالتساوي بين مراجعة بريده الصباحي والتدقيق في الراقصة التي نشرت أشرعتها بأتساع الأفق.

- صباح الخير يا أستاذ.

قال محييًا إياه، ولكنه لا يدري بماذا أجابه مدير خدمات البيئة ومكافحة التلوث، وقد يكون تجاهله بينما هو لم ينته بعد من تفكيك جسد المرأة الطائرة، أو لعله بصدد إعادة تركيبه بمزاج رائق، تقدم بضع خطوات، ثم حط على كرسي بحذاء المكتب صامتا في انتظار نهاية موفقة لاحتفالية الرقص والتوقيعات لكي يحظى بقليل من الاهتمام، وهذا ما كان، فلم ينتبه المدير العام لوجوده إلا بعد أن طوت الراقصة أشرعتها الحريرية وانحنت محيية جمهورها الذي هو بطول العالم وعرضه، عندئذ استرد أنفاسه متفاجئا إلى حد الذهول بوجود شبح يقبع بهدوء في مواجهته بمعطف أسود وعينين غائرتين، لا يدرى كيف ومتى تسلل إلى مكتبه، كان يجب أن يوبخه لأنه لم

يطــرق الــباب، إلا أنـــه مـــا لبث أن تذكر حديث أمينة سره بشأنه وإلحاحهــا عليه بأن يمنحه عدة دقائق من وقته الثمين، قلب الورقة الأخيرة في الملف، ثم رفع رأسه وقال:

ـ آســف يا أستاذ فهذه كل بضاعتنا، أوراق للتوقيع وأخرى تذهب إلى سلة المهملات والحصيلة صفر.

وبعد أن رمقه بنظرة متفحصة قال يسأله:

ـ أظن أن اسمك؟

ـ أنا عمر عبد الحميد

عندئذ هز المدير العام رأسه بشرود.

ـ أهلا وسهلا، تشرفنا يا أستاذ عمر.

ـ في مكتب شؤون العاملين قالوا لي...

ولكــن المدير العام الذي يبدو أن هذه الأمور لا تهمه في شئ قاطعه بقوله:

ـ دعنا الآن من شؤون العاملين وغير العاملين، المهم ما هو تخصصك العلمي؟

فأجابــه وهو ينظر إلى رأس جمل يطل من لوحة فنية معلقة على الحائط:

ـ كيمياء، كيمياء حيوية، وقد تحصلت بفضل الله وعونه على مرتبة الامتياز في كلية العلوم.

كـــان يتوقع أن يكون رد الفعل بقدر هالة الإعجاب والإكبار ممزوجة بضباب الحسد والغيرة الذي يغمره ويتكاثف من حوله فيكاد يخـــنقه مـــتراكما في طريقه ومتوافقا مع ما يحققه من نجاحات في دراسته، كما أنه ما كان ليغفل عن تلك الظلال ومشاعر الرياء التي يـــراها منطـــبعة على الوجوه من حوله، ولكنه على العكس من ذلك فوجـــئ بنظرة استخفاف تطفو في العينين الزجاجيتين، أردفها المدير العام بمزيد من الاستهانة قائلا بنبرة معدنية:

- كيمـــيا وإلا أنيميا ما الفرق؟ أما الحيوية فهي لا تنقصنا في هذه البلاد المباركة والحمد لله.

ثم تابع كلامه بجدية بالغة:

- اسمع يا أخ عمر، لدى وظيفة مريحة سوف تعجبك بلا شك، فهي بلا توصيفات محددة ولا تحتاج إلى خبرة ولا يحزنون.

لم يدرك لأول وهلة ما الذي يعنيه الرجل بحديثه عن الوظيفة المـــريحة التي لا تحتاج إلى خبرة إدارية وقد خصه بها، إذ أنه على حـــد علمـــه فـــإن كل الوظائف متشابهة إلى حد كبير، تبدأ طقوسها الخـــالدة علـــى مر الزمن بالتوقيع في سجل الحضور والانصراف وتنتهي بالجلوس في رعاية الله إلى منضدة خشبية أو معدنية، مع قلم وأوراق وفـــنجان من القهوة وإستعداد فطري للتمرس بفنون الثرثرة والنمـــيمة والطعـــن في كفاءة الآخرين والدس لهم، فليس هناك في قـــانون الخدمة المدنية وظيفة للنوم وأخرى للتعرق وثالثة مرهقة أو مســـببة لآلام الظهـــر، لكن المدير العام لم يتركه يغوص إلى ما هو

أبعد من ذلك في تخميناته، فقد أراحه من هذا العناء بأن طرق بقلمه المذهب على سطح المكتب وقال له:

ـ كـــل المطلـــوب منك هو أن تكتب بخط واضح وبحروف كبـــيرة جملة واحدة على غلاف الملف الذي يحول إليك وهي: "انتقل إلى رحمة الله بتاريخ كذا" ـ ثم تغلق الملف وتختمه بالشمع الأحمر، وبذلـــك ينتهـــي كـــل شئ، أما بقية الإجراءات فهي معروفة أو قل روتينية لا تحتاج إلى شرح، فهمت؟

هز عمر عبد الحميد رأسه بما يعنى أنه فهم كل شئ وبأكثر مما يظـــن المديـــر العـــام نفسه، ففي صباح الغد يبدأ رحلته الشاقة بقاربه المـــتهالك في محيط من التفاهات والعبث في انتظار موت أحد موظفي الشركة لكي يختم على أنفاسه الأخيرة بالشمع الأحمر.

- 2 -

بالرغم من أنه بكر بالحضور إلى مبنى الشركة العامة لخدمات البيـــئة ومكافحـــة الـــتلوث طافحا بالحيوية والبهجة في يومه الوظيفي الأول وكأنـــه علـــى موعد غرامي، فهو ما زال غير مصدق من أنه سوف يشغل بالفعل وظيفة جنائزية بحكم طبيعتها، وما كان يفكر أصلا بـــأن وظيفة كهذه يمكن أن توجد على أرض الواقع، وأن يتولاها هو بالذات وكأنه حفار قبور، لا علاقة لها البتة بتخصصه العلمي وأعوامه الأربعة التي قضاها على مقاعد الدراسة النظامية، لا يكاد يجد فرصة حتى لالتقاط أنفاسه حالما يلج متاهة الأرقام التي لها أجنحة سحرية فلا يعـــرف كيف يمسك بها، أو عندما ينهمك في حل معادلاته الكيميائية وإجـــراء الـــتجارب المعملـــية التي تجلب الصداع إلى رأسه فيعالجه بأقـــراص مســـكنة يحـــتفظ بها في جيبه على الدوام، فعلا هي وظيفة مـــريحة كمـــا قال لـــه المدير العام بعد أن حدجه بنظرة غامضة من فوق مكتبه كما ليختبر ردة فعله فيما إذا كان سيقبل بها أم لا، ومع ما يســـودها مـــن الهـــدوء والرتابة فإنها في آخر المطاف وظيفة كئيبة ومجلـــبة للشؤم. إذ يكفى أنه يباشر عمله من حيث ينفض الناس أيديهم من العمل وهموم الدنيا، بل ومن الحياة برمتها، وبذلك فهو إنما يجدد موعـــده مـــع مـــلاك الموت صباح كل يوم في انتظار أن يطوى أحد موظفي الشركة أشرعته المهترئة ويرحل إلى الدار الآخرة.

كان يفكر بهذه المهزلة وتناقضاتها الغريبة حين تطوع مسعود

الـــنقاز قهوجي الشركة الذي التقى به تائها في ممر الطابق الأرضي بإرشاده إلى مكتبه تحت الأرض كما يليق بوضعه ووظيفته البائسة، وكأن المدير العام قد أصدر بحقه حكما بالأشغال الشاقة مع أنه غير مذنب في شئ، لكنه لم يدرك جور هذا الحكم وقسوته كسوط عذاب وحقــيقة ملموسة إلا في اللحظة التي دفع فيها بيده باب الحجرة التي لـــم تكن في الأصل سوى مخزن للملفات المهترئة والأوراق البالية المتـــناثرة على الأرض وفوق الأرفف الخشبية في فوضى عارمة، جدرانهـــا كالحـــة، تغطـــيها طـــبقة كثيفة من الغبار وقشور الكلس المتســـاقطة على الأرض، ما أن خطا إلى الداخل من وراء القهوجي حـــتى هاجمـــته رائحة الرطوبة وأنفاس العدم وكأنه يدلف إلى كهف معتم، لقد تقرر مصيره بهذه الصورة المحزنة، وعلى هذا النحو الذي يدعو إلى الرثاء، بل وإلى البكاء أيضا، فلولا خجله من القهوجي لما استطاع أن يمسك دموعه، فلا معنى لهذه المغامرة المقيتة إلا في أنه ســـوف يقضي حكما بالسجن الانفرادي في هذه الزنزانة الكئيبة في عـــزلة عـــن أنفاس الحياة وصخبها وتياراتها المتقاطعة إلى أن يبلى جلـــده ويتساقط في نتف صغيرة، أو يموت وهو لا يدري بأنه يموت كمـــا لـــو أنه مصاب بمرض الجذام، حتى الهواء الذي يتنفسه مشبع بـــرائحة الفناء، أما القهوجي الخدوم الذي بدا واضحا بأنه لم يتفاجأ بشـــيء فقد أجابه على السؤال الذي يرف على لسانه دون أن ينطق به، فقال وهو يطرف بعينيه الصغيرتين كعيني فأر.

ـ هذه الحجرة يا أستاذ لم تفتح منذ حوالي ثمانية أشهر.

وبعد أن سحب من جيبه خرقة جافة أضاف بنبرة حزينة:

- أي منذ انتقال المرحوم عبد الدائم إلى جوار ربه، كان رجلا طيبا لا يكاد يسمع صوته أحد ويده دائما على قلبه المريض، تخيل يا أستاذ أنه مات على مكتبه هذا من دون أن يكون بقربه أحد سوى الملائكة.

وفيما هو يمسح الغبار عن سطح المكتب المعدني أخذ يلف خيوط المأساة حول إصبعه السبابة، ثم يفكه في لعبة غير مرئية.

- ولكنى لا أعرف حتى اليوم لماذا ترك بيته وأسرته ليعيش في قبو عيشة الكلاب.

هو الآخر سوف يلقى نفس مصير سلفه الراحل، إن لم يكن اليوم فغدا، أو في أي يوم آخر لا تشرق فيه الشمس، وربما بشكل أسوأ، فمن المحتمل أن يقضى عمره في دوامة من العبث، ملتصقا بكرسيه القديم إلى أن يصبح جزءا منه بجسده المتخشب، تداهمه الكوابيس والأشباح حتى في وضح النهار وهو مستيقظ، روحه معلقة بخيوط العنكبوت وعيناه ترمشان برعشة مخاوفه المبهمة، فهؤلاء الموتى الذين ينامون على الأرفف بسلام متدثرين بالأوراق والغبار سوف يلاحقونه بعناد وإلحاح في كل مكان يضع فيه قدمه، ليكونوا قربه بأنفاسهم التي لها رائحة زهور ذابلة حتى عندما يضع رأسه على الوسادة لينام، وقد يرافقونه في نزهته المسائية على رصيف الشاطئ حين يضيق بنفسه وبكل شئ فيخرج لرؤية قرص الشمس بلونه البرتقالي الغامق وهو ينطفى فيما وراء خط الأفق، يخاطبونه بصوت واحد وإن كان بلا صدى، ويسممون حتى لقمة الطعام التي

يتـــناولـها بلا شهية، يشيرون إليه بأصابعهم التي كأصابع من الشمع هازئيــن بـــه وبجديته وتفانيه وانهماكه في تصفح ملفاتهم البالية، ثم يهمســـون فـــي أذنـــه بلغة العدم من أنه لا جدوى من بناء القصور الفخمـــة ومطـــاردة حوريات الشوارع الخلفية والأكل الدسم والأثاث الفاخـــر المجلـــوب من آخر الدنيا، ولا حتى اصطياد امرأة متبرجة تتجول وحيدة في عتمة آخر النهار، فهم أيضا كانوا مثله في شبابهم الغابر، بل أكثر طيشا وعنادا، جاءوا إلى الدنيا في ضجة صماء من الـــزغاريد والتهليل، وكبروا في ظل هرم من الدعوات الحارة التي تـــرفعها أمهاتهم الحانيات إلى السماء بقلوب خافقة بأن يكون الله في عونهم لكي يجنبهم عثرات الطريق ووسوسة الشيطان وشرور الحياة وآفاتها التي لا مفر من أن تصادفهم في كل منعطف يمرون به.

لقد جربوا كل شئ بما لا يخطر على بال أحد، فطافوا بأجساد النســـاء التي من بلور وبروق، وعبروا إلى جنانها الوارفة من أبوابها الشـــرعية وغير الشرعية، واشتبكوا في مشادات ونزاعات تافهة من أجـــل الفوز بأشياء عديمة القيمة، كما أنهم أتقنوا فنون الضحك والبكاء بحسب الموقف الذي يحتم ذلك، وأجادوا فن الرقص على الحبال التي كحـــبال الغسيل، حتى الكذب بلونيه الأسود والأبيض جربوه وخاضوا فـــي بركتة بالطول والعرض، وتعرفوا على طعم الحقد والضغينة مع أنـــه أكثر مرارة من طعم الحنظل، كان كل همهم أن يضمنوا لأنفسهم أكبر قدر من سعادة الدنيا وملذاتها التي من كل نوع من دون أن يكون هناك ما يدعوهم حينها إلى التفكير بذلك الإخطبوط غير المرئي الذي اسمه الموت، فالوقت لم يحن بعد للوقوف عنده، فدائما هناك فسحة من

الزمـــن لامتصـــاص رحـــيق الحياة حتى الثمالة، لكنهم كانوا واهمين ومخدوعين، فلم يدركوا إلا بعد أن باتوا محكومين بالفناء والعزلة تحت الـــتراب أن ملاك الموت لم يغفل عنهم للحظة واحدة، بل وكان دؤوبا فـــي اقـــتفاء أثرهم خطوة بخطوة، فكان أشبه بالظل الذي يجرجرونه وراءهم حتى عندما يأوون إلى أسرتهم في آخر الليل.

كـــان يمكـــن لهذه الأفكار السديمية والمحبطة، وقد هاجمته من حيـــث لا يدري في يومه الوظيفي الأول كرياح القبور أن تثبط عزيمته وتعطلـــه عن عمله لولا إحساسه بأنه مدعو وملزم أيضا بالانغماس في مستنقع الحياة كيفما كان، والخوض في مياهه الراكدة وطينه اللزج إلى النهاية، وممارسة طقوس الحياة اليومية بنزاهة حتى إذا كانت لا تروق لـــه، خاصة وأنه يرى في هذه الوظيفة برغم تفاهتها حبل النجاة الذي لا يجب أن يفلته من يده في كل الأحوال ومهما كلف الأمر، على الأقل حـــتى يتعود الاعتماد على نفسه في كسب رزقه، فلا يعيش عالة على أحـــد، ولكي يكون إضافة إلى ذلك وفيا لنصائح أمه، تلك المرأة البدوية التي ضحت بزهرة شبابها رافضة بحزم عروض الزواج التي أمطرت بهـــا بعد وفاة أبيه، لكي تتفرغ لتنشئته وإعداده كما يجب لرحلة الزمن الصـــعب، فـــتراه رجـــلا ناجحـــا في حياته وصلبًا كالحجر، لا تهزه الصـــدمات العابرة ولا الرياح المعاكسة، أو تعوقه عن القيام بدوره في الدنيا كرجل يحترم نفسه وقادر على فرض احترامه على الآخرين، لذا فقد اعتزم منذ وعى وجوده في الحياة وتعرف على معادلة الخير والشر المضي في الطريق الذي رسمته لـــه بنبرات صوتها الصارم وحنانها الذي ما يلبث أن يؤول إلى أنشوطة كلما لاحظت ضعفه وتراخيه حتى

فــي عــراكه وشــجاره مع أطفال القرية، فلا بد من أن يخرج ليؤدب المعتديــن الذيــن بدأوه بالحرب، حتى لا يستغلوا تراخيه وجبنه فيعتلوا ظهره أو يمتطونه كالدابة، فكان أن تربى على حرب الأشباح التي تجيد أمــه تخــيلها وإطلاقها في هيئة علل وأمراض وبائية وشرور ومكائد ومصائب بعدد حبات الرمل لا يجوز لــه في كل الأحوال أن يهرب أو يــتراجع إزاءهــا، فإذا جاء ترتيبه الثاني أو الثالث في فصله الدراسي أصرت على أن يكون الأول فيما هي تجلده بلسانها كما بضربات سوط غــير مرئي، مؤكدة لــه في كل حين أن الدنيا ليست حساء ولا دجاجة بياضــة ولا هي رغيف من خبز الشعير يسد به رمقه، ثم تضرب لــه مــزيدا مــن الأمثلة الغريبة بضرورة أن يسابق الرياح إذا لزم الأمر، وحتى هذا السباق الجنوني خاضه ليس على أرض الواقع فحسب، وإنما فــي أحلامه أيضا، فقضى سنوات دراسته الجامعية مهرولا ولاهثا من المــدرج إلــى المعمل الكيميائي حتى لا تفوته كلمة أو إشارة من أحد الأســاتذة، مثــيرا للإعجــاب وغبار الحسد الكامن في النفوس بتفوقه المذهــل، فلم يحدث إطلاقا أن غص بدرس واحد من دروسه التي دأب على التهامها متعجلا كعجينة التمر مع الحليب التي تقدم لــه في وجبة الإفطار، فما كان سوى آلة ذات تروس صلبة وأسنان حادة قادرة على تقطيع المعادلات والمسائل الكيميائية لكي يسهل عليه هضمها وابتلاعها كما لو أنها مدهونة بعسل النحل.

لقــد جــاء فــوزه بالامتياز مع مرتبة الشرف في آخر الشوط المــرهق فــي هيــئة حصاد ناضج لما زرعه وتعهده بالعناية طوال ســنوات الدراسة دون كلل أو راحة، حتى أنه بات أقرب إلى المومياء

نـــاحلا ومهـــزولا بدرجة تجلب لـــه الرثاء والنصائح المشفقة من كل اتجاه بضرورة أن يعتني بصحته لأنها هي رأس ماله في كل الأحوال، فلـــم يـــبق مـــنه عند تسلمه لشهادة التخرج سوى هيكل عظمي مغلف بقمـــيص باهت اللون وسترة فضفاضة متأرجحة من حوله كما لو أنه يعلقهـــا فـــي كتفيه، بالإضافة إلى بنطال مجعد يضم ساقيه فيما يشبه ذراعـــي سلم خشبي، فما كان ليتخيل وجود عالم آخر من وراء أبخرة المعمل الكيميائي وأنابيب التقطير والأقماع والأحماض والأرقام الدبقة التـــي يقبض عليها بأسنانه حتى لا تزوغ منه، فما كان يرى إلا وهو يـــذرع ممرات الكلية وردهاتها جيئة وذهابا كالمكوك متأبطا مراجعه العلمـــية بشـــرود، أو وهو يجلس وحيدا على مقعد منعزل في حديقة الكلـــية تائهـــا عن روائح عطور الطالبات المغردات من تحت سماء أحلامهـــن المراهقة، وما كان ليعبأ بالحكايات والنوادر التي تحاك من حوـــله أو تروى عنه لغرابة أطواره وهيئته البائسة، فما هي في رأيه ســـوى مركـــب مـــن السفاهات والغيظ لا يليق به أن يلتفت إليها، أو يـــتوقف عندها لدقيقة واحدة. ومع ذلك فلا أمل يا أمي، فقد أصبحت موظفا محترما ولكن لكي أتعايش مع الموتى وكأني واحد منهم.

قـــال فـــي نفسه بينما هو يرقب مسعود النقاز بدأبه ونشاطه الـــذي لا يتناسب مع سنوات عمره الخمسة والستين ضائعا في غبار الملفـــات المتـــناثرة في كل اتجاه، كان لا بد من تهوية الحجرة لمدة أربـــع وعشرين ساعة على الأقل حتى لا يبقى هناك أي أثر للرائحة التي تشبه رائحة السوس، ثم نفض الغبار عن الجدران وإعادة ترتيب الملفـــات المـــتراكمة مـــنذ إنشـــاء الشركة وإعادة تصنيفها بحسب

تواريخهـــا وأقدميـــتها وإعـــادة كتابة الأسماء التي امحت بيد الزمن والرطوبة وتجديد ما تلف منها أو قرضته الفئران الجائعة.

لقد وجد في القهوجي خير عون لـــه في هذه المهمة الشاقة، مع أنـــه بالكـــاد يمكنه فك الخط، أو تهجئة كلمة بطة مثلا دون أن ينتف ريشـــها أو يكســـر رجليها بلا رحمة بعد أن يلوك حروفها من تحت لســـانها بصـــعوبة كمـــا لو أنها مخلوطة بالحصى أو نشارة الخشب، وزيـــادة على ذلك فقد عرفه بنفسه منذ البداية، فذكر لـــه اسمه الثلاثي مذيلا بلقبه الرنان، وذكر لـــه عدد أفراد أسرته ومكافأته الشهرية التي يتقاضاها من خزينة الشركة، إضافة إلى موارده من المقهى، ثم سمي لـــه موقع بلدته النائية التي هجرها أبوه تحت جنح الظلام للنجاة بجلده مـــن وباء غامض أشاع الذعر بين الأهالي، كما حدثه عن المرأة التي زوجت لـــه وهو مازال طفلا في عمر الرضاعة، فهي ابنة عمه وقد حجـــزت باســـمه إلـــى أن يصل سِن البلوغ ويمكنه بالتالي من وضع أطـــراف قميصه بين أسنانه والإعلان عن رجولته بلا مواربة كالديك فـــي أول صيحة له، لقد كبر دون أن يدري على حد قوله، ولكنه بدلا مـــن أن يســـلك طريقه إلى المدرسة الابتدائية في عامه السادس ألحقه أبـــوه بورشة كهربية لكي يتعلم مهنة تؤهله لمواجهة أعباء الحياة من أقصـــر الطـــرق، وعـــندما أتقن حرفته هذه شرع في ممارسة عمله لحســـابه الخاص، مستغرقا فيه بحيوية لما اكتشف فيه من إثارة، ليس فقـــط لأصـــابعه وذهنه وأنما لرجولته أيضا، ذلك أن لمعة الضوء في المصـــابيح الزجاجـــية عند إصلاح العطب الكهربائي عادة ما تذكره بـــنظرة ذات مغزى في عيني زوجته الخجولة التي لا يبدو عليها أي

مظهــر للأنوثــة فــي ردائها الفضفاض، لكنهما تشعان أحيانا ببريق خــاطف، ما أن يرى بصيصه في انطباق جفنيها حتى يمسك بها من ذراعها ليقودها إلى حجرة النوم من دون حاجة إلى المناورة والتحايل، فقد أصبح بمرور الزمن خبيرا بتلك الإشارات الخفية.

كــان يمكن أن يتواصل مع مهنته هذه إلى ما لا نهاية بشوق دائــم إلى بريق الضوء في كلا الاتجاهين، ولكنه ما لبث أن هجرها خائفــا ومرتعــبا من أن يمنى بمصير مساعده المتدرب الذي صعق ذات يــوم بشحنة كهربائية ذات ضغط عال إلى حد أن جسمه تفحم وهــو معلــق بعمود إنارة في أحد الشوارع، بعد أن أودعه التراب هرب من فوره لاجئا إلى مبنى الشركة العربية العامة لخدمات البيئة ومكافحة التلوث.

- ولكن يا عم مسعود ربما يكون موته حدث بخطأ أرتكبه سهوا.

قــال عمر عبد الحميد ذلك كملاحظة عابرة، ولكن القهوجي التفت إليه وقال:

- وهذه هي المشكلة؟!

كــان مــنهمكا فــي تنظيف السقف وإزالة شبكات العنكبوت بضربات مكنسة من السعف.

- أفهم أن كل إنسان معرض للخطأ والسهو، ولكن في مهنتنا لا يجــوز لأنه قاتل، وعلى أي حال فأنا لم أخسر شيئا، ثم إن العمل في مقهى الشركة لــه مزاياه ونعمه.

لـــم يهـــتم عمـــر عبد الحميد بتقصي تلك المزايا والنعم، ومع تصـــاعد إحساســـه بشـــؤم وظيفته فقد استغرقه العمل بهمة في تهيئة الحجرة كيما تكون لائقة به وبضيوفه من الموتى الذين يحتاجونه لكي يـــناموا بهـــدوء فـــي ملفـــاتهم السميكة دون أن يتعرضوا على الأقل لهجمات الفئران، وبذلك فما أن انتهي القهوجي من رواية مسيرة حياته ومـــن حرب العنكبوت، ثم انصرف متعللا بمشاغله في المقهى حتى حـــل هـــو محلـــه، فشرع في كنس الحجرة التي كان سلفه عبد الدائم يســـتخدمها كحجرة معيشة، بالإضافة إلى عمله الوظيفي، كوم أدوات الطبخ في صندوق من الورق المقوي، وطوى الفراش والأغطية لكي يـــتخلص مـــنها، لكنه ما لبث أن غير رأيه، فقرر الاحتفاظ بكل هذه الـــتركة كمـــا بضربة إلهام من أنه قد يستفيد منها ذات يوم، فوضعها وراء إطـــار الـــباب بعضها فوق بعض، أما مسألة إعادة التأثيث فلم تواجهـــه أية صعوبات تذكر، والفضل في ذلك يدين به للقهوجي الذي جـــاءه في صباح اليوم التالي بسجادة قديمة فرشها على الأرض، كما جلب لـــه كرسيين من مخزن الشركة الذي يكوم فيه الأثاث المستهلك، ولـــم يـــنس أن يأتيه برزمة من الملفات الجديدة أوصاه أن يحتفظ بها للوفيات الجدد، كل ذلك زيادة على دفاية كهربائية اتضح عند تجربتها عـــدم صـــلاحيتها للاســـتعمال، كما زوده بمنفضة للسجائر مع أنه لا يدخـــن، وهكـــذا اطمـــأن إلى وضعه الوظيفي، فلم يعد هناك ما يقلقه ويشـــوش ذهـــنه عـــدا أنه يبدأ عمله من بوابة الآخرة التي تفتح على العـــدم، بعكـــس الموظفيـــن الآخريـــن الذين يشتغلون بشؤون الدنيا ويـــتعاملون مع الناس الأحياء، وما يثيره هؤلاء من قضايا ومشاكل،

ومـــا تضـــطرب به نفوسهم من هموم ومصالح، ينتظر بنفاد صبر أن يسقط أحدهم من الإعياء أو المرض أو كلاهما، أو بضربة مباغتة من مخلب الشيخوخة، عندئذ يتولاه هو بعنايته حالما يحال إليه ملفه المتخم بـــالأوراق التـــي هـــي بعدد سنوات عمر الراحل أو يزيد، لكي يقوم بالإجراءات اللازمة في مثل هذه الحالة، بدءا بإعلان موته رسميا في نطـــاق الشركة وإخطار الإدارات المختصة بذلك، ثم يختم الملف بختم الرحمة على الغلاف، وتحرير رسالة من عدة أسطر تؤكد بأن المغفور لـــه بإذن الله لم يعد من أهل الدنيا يرفقها بالملف، وبذلك يشطب اسمه إلى الأبد من سجل الحضور والانصراف وكشف المرتبات.

عقـــب ثلاثـــة أيـــام من الجهود المرهقة التي بذلها بمساعدة القهوجي الدءوب خيل إليه أن مكتبه أصبح جاهزا وصالحا لممارسة عملـــه دون منغصـــات أو تأخـــير وبـــتفان كما كان دأبه في حياته الدراسية، مع فارق دقيق وهو أنه الآن يدلف إلى عالم الموتى وبيده ملفـــات ســـاكنيه لكي ينشغل بحل معادلة الموت التي أرقت الأنبياء والفلاسفة على مر العصور، إن كل ما يحتاجه الآن بلهفة هو فنجان من القهوة السوداء يأتيه به مسعود النقار، فلا يتأخر عندئذ عن إقامة دعـــائم جسر يعبر من فوقه إلى شجون وهموم حياته الوظيفية التي يبدأها من نقطة الصفر، أو من لا شئ وهو الأصح، ولكن بحسب ما يأمله ويرجوه فلن يمضي وقت طويل حتى يندمج في أجوائها كيفما كانـــت، ســـوف يعمد إذا لزم الأمر إلى تدريب خياله وشحذ ذاكرته لابتكار عالم آخر، يخترعه لنفسه ويبنيه بتدرجات بطيئة، هذه شجرة برتقال يزرعها في مقابل خط الاستواء، ثم يرسم فراشه ترفرف من

حولها، يقف على الكرسي ويلقى خطبة وداع في جمهوره من ضحايا الشركة، يأتي بحزمة من النجوم، ثم يشحنها بعصارة من روحه لكي تضيئ، وهكذا إلى ما لا نهاية، وعلى هذا النحو يستطيع مكافحة الملل والقلـــق ورواســـب الأوهام والأحلام المستحيلة والتأمل في الحكمة الإلهـــية التـــي قادتـــه إلى قبو الفئران، وإذا ما ضاقت به كل الحيل الممكـــنة فســـوف لـــن يتأخر عن استحضار الرجل الآخر المتخيل، يعيره صوته وملامحه، وعند الحاجة يستدعيه بإشارة من يده، وبعد أن يستضـــيفه علـــى فنجان من القهوة يطرح عليه ما يعن بباله من أسئلة عن الوجود والعدم، عن الأحلام التي تشبه حساء بلا طعم، عن المرأة فيما إذا كانت زهرة أم مصيدة، عن مفهوم العدالة ولماذا هي غائبة دائما، وبهذا الشكل يمكنه أن يتسلى بأفكاره بعرضها في ضوء الشـــمس ثم تقليبها على مهل وتفحصها وفرزها بعناية كما كانت أمه تســـتغرق فـــي تنقية الأرز من الشوائب في صحن من الفخار وهي متربعة على الأرض دون أن يدركها الملل حتى إذا تطلب عملها هذا عـــدة ساعات أو اليوم بطوله، فلا بد من التجلد ومقاومة الخواء ولو بأعصـــاب من القش، ففي حالته هذه لا فرق هناك، فإذا كان مرغما علـــى أن يـــبدأ خطواته العملية في الحياة من زنزانة تحت الأرض فلـــيس معنى ذلك أنه سوف يستمر على هذا الوضع إلى الأبد، فثمة أولا العـــنايةُ الإلهـــية التـــي قد تدركه في أية لحظة، ثم إن العدالة الإنسانية لم تُمحَ بالكامل بعد، فقد يكون هناك بصيص منها حتى إذا كـــان يشـــبه جمـــرة منطفئة تحت الرماد، فقد تحدث المعجزة، فيمد أحدهم يده لانتشاله من قاع اليأس والخواء.

وهكـــذا قعد على كرسيه بهدوء لكي يبدأ عمله الذي لا يعرف مـــا هو ولا كيف يشرع فيه وما هي أولوياته، فقد انتهى من تنظيف الحجـــرة وترتيـــب الملفات، ولكنها ظلت مع ذلك محتفظة بطابعها الكئيـــب وجوهـــا المقـــبض، كما لم يعرف كيف يتخلص من رائحة الـــرطوبة التـــي تـــثقل على أنفاسه مترسبة في الجو بهوائه الساكن وخلـــوه من أي أثر للحياة فيما عدا صفير الفئران، يجب أن يبدأ بأي شـــئ فلـــيس أمامـــه مـــن حـــل آخر، ولكنه ما لبث أن أرجأ عمله واستحضر في خياله أمينة سر المدير العام التي لم يرها إلا لمرة أو مرتيـــن، ومـــع ذلك فقد أرق بها وهي تعبر مراياه خارجه للتو من حمامها المسائي متزينة بقطرات من الماء تلتمع على جلدها الفضي كحـــبات اللؤلـــؤة، ثم وهي تطل على الشارع من شرفة الفجر فتنمو الـــزهور والورود في جنباته، أو وهي تستلقي على الفراش في ليل أحلامهـــا المخملية، فكر بها في كل الأوضاع التي يمكن أن تخطر ببال مخلوق مثله يتقلب على جمر الحرمان والكبت إلى حد أنه خجل من تخيلاته الفاضحة، قد لا يكون هو وحده الذي فتن بها، فلا بد أن كل موظفي الشركة قد عبروا بسور جنانها ذاهلين وقد جاءوا الواحد بعـــد الآخـــر ليـــتذوقوا طعـــم الفرح والبهجة من يدها الرحيمة، أو ليستمدوا من روحها شيئاً من القوة والإرادة في مواجهة نكبات الحياة علهـــم يتجاوزونها بسلام، وليس من الغريب أن يصاب أحدهم بسهم طـــائش ينطلق من عينيها دون قصد فيخرج من عندها دائخا، بقلب محـــترق وقدمين من الطين يجرهما بصعوبة وهو يدور حول نفسه كالدرويش في ضجة الدفوف وسحب البخور، ظل يحدث نفسه ساهما

بسحر أنوثتها الملتهبة إلى أن تاهت عن بصره في عاصفة من الغبار هبـت علـى وجهه على إثر انهيار تل من الملفات لم يقم القهوجي بترتيبها فوق الأرفف كما ينبغي.

لـم يـتأخر عنه مسعود النقاز الذي بدا في لحظته هذه وكأن روحـه معلقة به، أو أن القهوة هي الدواء الشافي الذي يحتاجه لكي يسـتطيع التنفس مخادعا للسأم والزمن الذي في ثقل الرصاص، فقد ظهـر القهوجـي فجأة عند إطار الباب بالصينية النحاسية المرفوعة على كفه، ثم خطا إلى الداخل فوضع فنجان القهوة الذي يتصاعد منه بخـار برائحة ماء الزهر مع كأس من الماء على المكتب، وبعد أن ألقى نظرة مدققة على زوايا الحجرة تمتم بصوت أقرب إلى الهمس، ثم التفت إلى عمر عبد الحميد وقال:

- لـو أنـك يـا أستاذ عمر وافقت على رأيي بدهن الحجرة بالجير لما بقيت هكذا مظلمة كالقبر، كان يمكن أن تكون جدرانها في بياض وجه أحلام.

ثم ضحك لما قاله، ولكن عمر عبد الحميد قطع عليه ضحكته هذه التي بلا معنى بسؤال فضولي:

- ومن تكون أحلام هذه يا مسعود؟

تهـيأ القهوجـي للإجابة على السؤال غير المتوقع بأن استند بـيديه الاثنتين على حافة المكتب متعجبا في قرارة نفسه من أن فأر القبو الهزيل هذا يجهل من هي أحلام، فبدا عندئذ على وشك البكاء، فلو كان بمفرده لبكى بدموع اليتامى، وهو كل ما يحتاجه لكي يغتسل

مــن أوهامه وأفكاره العابثة، قليل من الدموع بطعم الملح يذرفها في مــأتم خيــبة الأمل، وبعدها لا يهم إذا كان مقدرا لــه أن يستمر في النحيــب إلى أن يفقد صوته أو تنطبق السماء على الأرض، ومع أنه صلب قامته وسوى من وضع طاقيته فوق رأسه فلم يستطع السيطرة على هياج مشاعره فقال بصوت متهدج:

- إذا كنت لا تعرفها يا عمر فهذه مصيبة المصائب.

فوجــئ عمر عبد الحميد بهذا الرد الغريب الذي لا يمكن أن يصــدر إلا عن رجل يعذبه جنون القلب، ولكن هذا القهوجي الكهل وهــو فــي هذا العمر لا يمكن أن تكون لــه في كل الأحوال علاقة بهــذه الدوامة، ولكن إشارته لهذا الموضوع قد تكون بداية لأن يجره مــن يده كالطفل إلى مجاهل نائية، وربما يدفع به إلى سوق للعجول فيبــيعه بثمن بخس كعجل رضيع لم تنبت قرونه بعد، ومن المحتمل أن يدعــوه إلى مرافقته في رحلة مرهقة لاكتشاف عوالمه المجهولة التــي تــتماوج بالخرافات والحكايات الساذجة فيغرقه في مستنقعاتها التي بلا ضفاف، أما ما لم يخطر بذهنه فهو أن القهوجي كان يتأهب بــالفعل لاصــطحابه إلــى الــنزهة تحت وابل من ثرثرته المتدفقة كالينــبوع، وهــو الذي عرف في أوساط الموظفين بأنه الرجل الذي يملك ذاكرة حديدية، زيادة على شغفه بالقيل والقال وتقصي الأخبار والإشاعات وفضوله الجارف ودأبه على ملاحقة أسرار الآخرين في كــل مكــان إلى حد أن المدير العام كثيرا ما يدعوه إلى مكتبه على عجــل لكي يستفسر منه عن بعض الوقائع والأحداث الغامضة التي تقــع في الشركة فلا ينتبه إليها أحد فيما عداه، تلك الأشياء التي تظل

بمنأى عن السجلات والأوراق الرسمية بالرغم من حساسيتها أحيانا، أو لأنها تتعرض عند تمريرها من شخص إلى آخر إلى الخلط وتعدد الآراء التي تمحو أصولها فلا يبقى منها سوى ظلال باهتة.

كـــان مســـعود النقاز في مثل هذه الحالة الطارئة لا يحتاج إلى قدح زناد ذهنه أو إجهاد ذاكرته، فلا يجد ما يضطره إلى أن يفتش عن الإجابـــة تحت طبقة من الركام، أو يزحزح أحجار الزمن من مكانها للبحـــث عن الأسرار المطمورة من تحتها، فكل ما هنالك أنه يمد يده ليمســـك بطـــرف الخيط الذي يتوه عنه الآخرون، ثم يسحبه باتجاهه، وكما بلمعة البرق يطلق لسانه بدفق من المعلومات الخفية عن الواقعة موضوع السؤال كما لو أنه يروى تفاصيلها الدقيقة من ورقة في يده، فيشـــير إلى كل ملابستها ومنعطفاتها بمهارة فائقة، ولذا فقد أعترض عمر عبد الحميد طريقه قائلا من باب تمضية الوقت وكسر جموده:

ـ ولكن فيما أعلم فإن كل النساء متشابهات إلى حد كبير على الأقل في حماقاتهن وسوء طباعهن.

إنـــه يتفق مع موظف القبو في هذا الرأي، فلديه الدليل الحي على ذلك، دليل برأس وقدمين، إنها زوجته المصونة التي تصر على أن تخـــترع في كل يوم مشكلة أو قضية تطرزها بدموعها، ثم تجره برغم أنفه إلى الاشتباك معها في معركة كلامية لا تنتهي إلا إذا رفع هـــو الراية البيضاء عاليا، ولكن فيما يختص بأمينة سر المدير العام فالأمـــر مخـــتلف تماما، لوح بيده وقال: ـ إلا أحلام يا أستاذ، هذه البنت ملاك بوجه من الفضة، وكل موظفي وعمال الشركة يشهدون على ذلك بما فيهم المدير العام ذاته.

وصمت لبرهة متفكرا قبل أن يضيف:

- ولكـنك رأيتها يا أستاذ، فقد لمحتك تدخل إلى مكتبها بهذا المعطف الأسود.

لم تغب عنه إشارة القهوجي فتمتم بشرود:

- آه، تعنى السكرتيرة؟!

عندئذ هز القهوجي رأسه بنعم، وظل يهزه ساهما حتى بعد أن ألتقط صينية القهوة من فوق المكتب، ثم وهو يتجه نحو الباب هاربا فـيما رأسه يتأرجح على كتفيه كما لو أنه يرهب افتضاح سره الذي يحـرص على كتمانه ومحاولة نسيانه، فلو علم به أحد فسوف يكون أضـحوكة الشـركة، وقـد يتغـير لقبه من النقاز إلى المجنون أو الدرويـش، دهـش عمـر عبد الحميد لسلوكه الذي يشي بمراهقته المـتأخرة وعدم توازنه العاطفي، وقد ظن في البداية أن الرجل لن يـتركه قـبل أن يبوح لـه بكل ما يعرفه عن تلك الفتاة الجذابة، فلا يكـتفى بوصفها بأنها ملاك أو زهرة يانعة، ما أن انطفأت خطواته المـتعجلة علـى بـلاط القبو حتى التقط ملفا كيفما اتفق، وبينما هو يحتسى قهوته أخذ في تصحفه لمجرد قتل الوقت، ولكنه فوجئ حين قلـب أول صـفحة فيه بحركة غريبة خدشت الصمت المرهف من حوله، ظنها لأول وهلة خربشة فأر تسلل إلى الحجرة في غفلة منه، وقـد يكون مستوطنا فيها أفلت من عصا مسعود النقاز الذي قتل في يوم واحد ما يقرب من عشرين فأرا، إلا أنه وهو يقلب ورقة أخرى فـي الملـف بأطراف أصابعه هبت على وجهه أنفاس بشرية مفعمة

برائحة التراب، كما لو أن ثمة مخلوق غير مرئي دلف إلى الحجرة علـــى رؤوس أصـــابعه، ثم استدار في اتجاهه لاهثا من الإعياء أو المرض فلم يبق إلا أن يمد يده ليرتشف جرعة من فنجان القهوة، أو يقعـــد بقربه ليقاسمه وجبته الدسمة من السأم والقلق، تجمد مصعوقا فـــي كرســـيه إلى درجة أنه لم يعد يسمع سوى صوت تردد أنفاس متقطعة بما يدل أن صاحبها يعاني من ضيق في التنفس، لا شك في أن، هذه الحجرة مسكونة، فكر في أنه قد يواجه محنة من نوع آخر حيـــن تذكر ما كانت ترويه لـــه أمه في ليالي الشتاء العاصفة وهي تـــتدفأ على موقد الفحم عن مغامرات الجن أو العفاريت الذين خلقهم الله ليعـــبدوه ويصلوا لـــه أسوة بعباده المؤمنين كما يقول فقيه القرية في خطبه الدينية، حكايات ذات طابع خرافي تموج كخلية النحل بتلك الكائنات الخفية التي في إمكانها أن تطير محلقة في الجو بأجنحة غير مرئـــية كأنهـــا منسوجة من خيوط الضوء، تجرى على الأرض في هيـــئة حشرات دقيقة، وقد تتجسد في صورة قط أو سحلية، كما أنها تـــتجول على هواها في زوايا العالم الأربعة دون أن يعترضها أحد، تقـــيم فـــي القصور والخرائب، وأحيانا تهيم على وجهها في سراب الصـــحراء من دون حاجة إلى الاستعانة بمرشد أو دليل، إضافة إلى ذلك فإن بإمكانها عبور المحيط بسرعة البرق، كان في كل ليلة يدلف من وراء ظهر أمه إلى مملكة الخرافات والسحر هذه في قميص على اللحـــم محموما ومرتعشا دون أن يدرى ما يجرى حوله في الظلمة، لكنه لم يكترث بمغزى تلك الحكايات المذهلة إلا عند تقدمه في السن، إذا راجت في القرية ذات يوم على نطاق واسع إشاعة مبهمة عن أن

مخلـــوق مـــن طائفة الجن كما علم إذ ذاك جن عشقا بإحدى فتيات القـــرية الجمـــيلات، وبالـــتحديد بابنة شيخها المبجل الذي يكن لـــه الأهالـــي الاحـــترام والطاعـــة الواجبة لرجل في مثل وضعه القبلي وأصـــوله العشـــائرية التي تمتد إلى سلسلة طويلة من الشيوخ الذين توارثـــوا أبـــا عن جد هذا الموقع بكل ما يحيطه من سمو ووجاهة، فكان الوحيد الذي يتوافد الناس على بيته لتقبيل يده في الأعياد، كانت وحيدته وقد نشأت على غير العادة مدللة وكثيرة المطالب، وقد سمح لهـــا وهي ما تزال طفلة بالالتحاق بالمدرسة الابتدائية، ولكن ذلك لم يســـتمر طويلا، فما أن أزهر صدرها حتى لم يحتمل الشيخ الموقر رؤية نهديها وهما يرفان من تحت الفستان، حدق فيها ذات يوم بعيني رجل غريب وقدر في حينه كم من العيون التي لا تتورع عن تسلق قامـــتها وهي تمشي في الشارع هائمة في زوايا جسدها ومنعطفاته، وكـــم من السفلة الذين لن يخجلوا عن مغازلتها بكلام يخدش الحياء ويســـئ إلـــى عفافهـــا، وبذلك فلم يعد هناك بد من أن تودع دفاترها وأقلامهـــا وربمـــا أحلامهـــا أيضـــا فتمكث في البيت إلى أن يأتيها النصيب، آمنة من التحرشات ومصائد الغواية، كان على ثقة من أنه اتخذ القرار الصائب، وما عاد يفكر سوى بتزويجها في أقرب فرصة ممكـــنة، ولكنه لم يدرك إلا متأخرا سوء تربيته لها وشطط طباعها، وربمـــا قـــراره غير الحكيم بعزلها عن الدنيا إلا عندما لاحظت الأم بفـــزع انـــتفاخ بطـــن أبنتها، ثم تبين فيما بعد أنها حامل في شهرها الثالـــث، ومـــع أن هذه الجريمة الأخلاقية ألصقت بجن متهور، وقد يكون في عمر المراهقة دأب على التسلل إلى فراش الفتاة ومعاشرتها

معاشرة الأزواج وهي مسلوبة الإرادة، فإن ذلك لم يعفها من العقوبة المقررة سلفا في مثل هذه الحالة، إذ أنه لا مناص من طمر الفضيحة مـــع صـــاحبتها بأســـرع ما يمكن، وهذا ما حدث، فقد اجتمع الشيخ المطعـــون في شرفه بعدد من أقاربه وأعلن في حضورهم من دون مواربـــة عـــن اعتزامه إهدار دم تلك الملعونة، مع رفضه لأي حل وســط، وبذلك قطع الطريق بضربة سكين على أولئك الشباب الذين أبدوا استعدادهم للزواج منها حتى وهي مدانة وملوثة.

وأمـــا حكايـــة المنزل المسكون في المدينة القديمة فقد شهد وقائعهـــا وتطوراتها الغرائبية بنفسه عندما أضطر سكانه إلى إخلائه لعدم استطاعتهم التعايش مع مخلوق من طائفة الجن قلب حياتهم إلى جحـــيم، حـــتى أن الفقهـــاء والمشعوذين الذائعى الصيت في كفاحهم المرير ضد هذه الكائنات الخفية أخفقوا جميعا في إقناعه بالرحيل أو إجـــباره علـــيه بالـــرغم من ضجة دفوفهم ودخان بخورهم الكثيف وتمـــتماتهم وكـــل حيلهم التي تتفتق عنها أذهانهم لمزيد من التمويه والدجـــل، هـــددوه بقطع أصابعه والدعوة عليه بإقامة دائمة في قاع جهـــنم، لقد تضامنوا لأول مرة في هذه المعركة اليائسة التي أعيتهم، ثـــم قالوا وهم ينسحبون من الحرب مخذولين أنه جن كافر، وأضاف آخـــرون بأنه من المحتمل أن يكون لقيطا تربى على يدي أم زانية، وبذلك فقد ظل يعربد على هواه ويعبث بأثاث المنزل وأواني الطبخ، كمـــا أنـــه لا يتورع أحيانا عن وضع ملعقة كبيرة من الملح في قدر الطعام الذي يغلى على النار، أما ربة المنزل فقد اشتكت أول الأمر مـــن أنها فقدت أساورها الذهبية التي قلما تخلعها من معصميها حتى

عــندما تــأوي إلى فراشها ليلا، ومع حرصها على خاتم الزواج فقد اخــتفى مــن إصبعها من دون أن تنتبه إلى ذلك في حينه، وقد أبلغ زوجهــا مركز الشرطة عن ضياع رزمة ضخمة من العملة الورقية كان يحتفظ بها في خزانة الملابس.

فكر وهو يدير رأسه فيما حوله بأن هناك وقائع وأحداث كثيرة تفــتقر إلى تفسير منطقي، يلفها الغموض والشك، ينسبها الناس عادة عندما يعجزون عن فهمها وتحديد أبعادها إلى القضاء والقدر، أو إلى طائفــة الجــن، ولا أحد يدري مدى صحة ذلك، وفيما إذا كان اتهام الجــن بارتكابها أو التسبب فيها بقصد إخفاء ما يجب إخفاءه، أو أنه هروب من مواجهة تبعات الحياة وأحكامها القاسية وحقائقها المخيفة، وأكثر من ذلك مفاجأتها التي لا تحتمل، أم أنه توجد بالفعل مخلوقات غــير ظاهــرة للعــيان، تتطفل على حياة بنى آدم وتعبث بأشيائهم وتعتدي على بناتهم ونسائهم، وبالرغم من عدم اقتناعه بمغامرات الجن الطائشــة هــذه فقد رأى أنه من الضروري في هذا الظرف العصيب الاسترشــاد بآراء الآخرين وأولهم مسعود النقاز، وهكذا استدعاه إلى مكتــبه على أن يجلب معه في طريقه فنجانا آخر من القهوة يعزز به دفاعاتــه ضــد الضجر وخمود الهمة، ولكنه ما أن انتصب واقفا على قدمــيه حيــن سمع ضربة يد على سطح مكتبه، مرفقة بنبرات صوت آدمــي، عــندئذ أحــس برعدة خوف تتمشى في أوصاله وتشل قواه وتجمده في مكانه، أما الرجل الخفي فقد قال ليطمئنه:

ـ لا تخــف يا أستاذ، أنا عبد الدائم، لقد كنت ذات يوم أجلس كالمومياء على هذا الكرسي الذي ورثه عني.

ثم تنهد وأضاف:

- إيــه، هــذه هــي الدنيا يوم لك ويوم عليك، تحتضننا بين ذراعــيها لسنوات محدودة، ثم تطردنا إلى العراء مثل كلاب السوق، أمـــا إذا كنــت لا تصدقني فما عليك إلا أن تنظر إلى غلاف الملف لتتحقق مما أقوله.

فعلاً، فالاسم مطابق لما ذكره الرجل الخفي، ومع ذلك فهو لا يســتطيع الإقرار بجدية الموقف أو عقلانيته، وخمن من أنه قد يكون في الأمر خدعة أو توهم ناشئ عن الوحدة والخواء الذي يحيطه في قبو كئيب تحت الأرض، فيما ملفات الموتى تحاصره من كل جانب، ممـــا أدى إلـــى تشوش حواسه وتخيله لأشياء لا وجود لها، فما عاد يفــرق بيــن مـــا هو واقعي وملموس، وما هو من أثر عدم اليقين والهواجــس المــبهمة والشطحات الروحية التي هي من اختصاص المتصــوفة والدراويــش وهــو ليس واحدا منهم، كان يهم بمغادرة الحجرة إلا أن الصوت ذاته بنبراته الواهية وصفيره اللاهث اعترض طريقه راجيا إياه أن يتمهل قليلا وأن يهدأ، فليس هناك كما قال لـــه مـــا يدعو إلى الريبة والذعر، بإزاء حيرته واضطرابه ظل واقفا في مكانـــه للحظـــات لا يدرى ماذا يفعل، الصوت الذي يخاطبه حقيقي كضـــوء الـــنهار بـــرغم شحوبه، طعم القهوة التي ارتشفها منذ قليل مازال على لسانه، وهناك أمينة سر المدير العام التي شحنته بإكسير الحـــياة عـــندما التقته في الممر فبادرته بتحية الصباح بصوتها الذي كهديـــل حمامة، ومعنى ذلك أنه ليس هناك أي أثر لاحتمال أن تكون

كوابيس النوم التي تجثم على صدره في آخر الليل تعاوده في مخزن ملفات الموتى وهو مستيقظ.

للمــرة الثالثة ألح عليه الرجل الخفي بالجلوس فلم يستطع إلا الاســتجابة لإلحاحه، فانهار على الكرسي وقد قرر الاندماج في هذه اللعبة ليرى ما الذي سوف تسفر عنه في نهاية المطاف، وبعد أن قرأ الاسم المكتوب على الغلاف الأصفر بصوت مسموع قال:

- الاسم هو نفسه عبد الدائم، ولكن لا أفهم هل أنت من الأنس أم الجن، الحقيقة أن الإنسان في هذا الزمن لا يمكنه إدراك ما يجرى حوله، وأحيانا يشك حتى في نفسه.

أطلق عبد الدائم ضحكة كئيبة وقال بسخرية:

- إنــس وإلا جن؟ ما هذا التخريف يا أستاذ؟ قلت لك أنا عبد الدائم، وما عليك إلا أن تحفظ أسمى أولا.

- لقد حفظته، وماذا بعد؟

كــان صوته وهو يتحدث إلى لا أحد غريبا في أذنيه، أقرب إلــى رجــع الصدى الذي ينشأ عن ضجة صاخبة في مكان مغلق، متضخما كصوت الطبل، حتى أنه يكاد يجزم بأنه لم يسمعه من قبل، الصــوت يتماوج في الفراغ، ثم يرتد إليه في شكل إيقاعات صماء، لقــد عمد إلى أن يكون صوته خافتا حتى لا يسمعه أحد قد يهبط إلى القــبو فجأة فيشك في سلامة قواه العقلية، عندئذ لا مفر من أن تتلقفه ألســنة الموظفيــن فــي الأدوار الخمســة كالسكاكين جاهزة لسلخه

وتقطـــيعه لأنه لم يحتمل وضعه في عزلته تحت الأرض لأيام قليلة تعـــد على أصابع اليد الواحدة فأصيب بالجنون، حتى القهوجي الذي يــراكم الخرافات والأساطير كالجواهر ويرويها على أنها من حقائق الحـــياة الإنســـانية سوف يهز رأسه مشفقا، ثم ينصحه بمراجعة أحد المشعوذين لتلقى العلاج قبل فوات الأوان.

ولكـــن الصـــوت المـــبحوح الذي تتخلله رعشة برد أو حمى صـــمت فجـــأة على وقع خطوات ترامى صداها في القبو ظهر على إثـــرها مســـعود النقاز بصينية القهوة المحمولة على كفه، مع أنه لم يطلـــب مـــنه ذلـــك، إذ لم يمض أكثر من نصف ساعة على تناوله لفنجانه الأول، لكنه لا يدرى أن القهوجي اعتزم منذ البداية إخضاعه لسياســـته التجارية المتبعة مع بقية الموظفين، وهي تعويده تدريجيا علـــى احتساء عدة فناجين من القهوة يوميا، أو ما يعادلها من أقداح الشـــاي، هـــذا مـــع ضرورة تشويقه أو حثه على تناول رغيف أو رغيفيـــن مـــن الخبز المحشو بالبيض المقلي في الزبدة، أو مفروش بلحـــم ســـمك التونة ومدهون بطبقة رقيقة من الفلفل الأحمر السائل، إضـــافة إلى شرائح صغيرة من الطماطم الأخضر، فليس مما يدعو إلـــى الدهشـــة رؤيته طوال فترة الدوام الرسمي وهو يذرع ممرات وأروقة الشركة جيئة وذهابا مثقلا بالأرغفة الطازجة وفناجين القهوة وأقداح الشاي العابق برائحة النعناع أو القرفة، إلى حد أن الموظفين أصـــبحوا يقضون معظم وقت العمل في الأكل والشرب، ولكنهم في آخـــر الشهر يضجون بالشكوى والاحتجاج متذمرين من أن المدعو مســـعود الـــنقاز الذي لا يخاف الله كثيرا ما تخونه ذاكرته المترهلة

وهو يطرح ويجمع على هواه، فيبدو كما لو أنه في حالة تعبد متعقبا الأرقـــام الدقـــيقة التي يسجلها على أوراقه المقطوعة من علب التبغ الفارغة، مبتهجا بروبتها تتضخم وتتكاثر إلى ما لا نهاية.

– السلام عليكم.

ألقى بالتحية نفسها كالعادة، التحية وفنجان القهوة الفارغ الذي يلـــتقطه مـــن فوق المكتب، ثم يستبدله بآخر ما زال البخار يتصاعد مـــنه، اجتاز العتبة، وبعد أن حدق بنظرة عابرة إلى الملف الأصفر قال متسائلا بفضوله التقليدي:

– ملف من هذا يا أستاذ؟

– ملف عبد الدائم، أظنك تعرفه يا مسعود؟

هز القهوجي رأسه وأجاب بصوت حزين:

– كيف لا، لقد سقيته من القهوة والشاي بقدر ما في البحر من مياه مالحة، هل نسيت؟ ألم أقل لك أنه كان صاحب هذا المكتب إلى يوم وفاته رحمه الله.

– وماذا تعرف عنه؟

تنهد القهوجي، ثم قال؟

–كـــان رحمـــه الله مـــثل صـــندوق مغلـــق بعشـــرة أقفال، أو بالأصح كان يحتفظ بكلامه لنفسه، ولم يكن هناك من يستطيع فك عقدة لسانه سوى أحلام.

وبعد أن تنشق ما يكفيه من هواء القبو الرطب عاد إلى حديث عبد الدائم ولكن من زاوية أخرى.

- كـــان في آخر أيامه يعانى من أمراض كثيرة، ولكنى أظن أن كل مشاكله نسائية، وأنت تعرف أن النساء حبالهن طويلة.

كـــان من الواضح أن مسعود النقاز قد هاجت في نفسه نزعته التـــي لا تكاد تخمد إلى الثرثرة بكل ما يعن بباله، وهو الذي يبحث عن أية فرصة سانحة لكي يصدر أحكامه على الناس من فوق منصة القاضـــي الـــذي لا طاقة لـــه على الصبر والتريث، فيخلط القضايا بعضـــها بـــبعض، ويـــنطق بأحكامه غير المتزنة التي تعكس ضيقه وتـــبرمه بهؤلاء الناس الغارقين في البلاهة والشطط، يهرولون كل صـــباح إلى قاعة المحكمة بكل ما ينجر عن حماقاتهم من خصومات ومشـــاكل، يأتون من كل مكان لإثارة أعصابه وتعكير صفو مزاجه، فلا يكاد يهنأ بشرب فنجان قهوته وهم ينعقون من حوله، ولذا فلا بد من معاملتهم بالمثل مذنبين وأبرياء.

كـــان هـــذا دأبه وهو يسرع الخطى ويقطع الممرات صعودا وهبوطا من طابق إلى آخر وقد شحذ لسانه الذي هو كل رأس ماله، فلا يعرف طعم الراحة حتى الدقيقة الأخيرة من موعد الانصراف، لا يكـــف للحظـــة واحـــد عـــن التنقيب في أسرار الآخرين ونزواتهم وفضائحهم بالرغم من أنهم يغلقون عليها صدورهم بإحكام، فلا يفلت منه أحد بما في ذلك المدير العام متحايلا في التصنت على مكالماته الهاتفية، فما أن يرفع هذا الأخير السماعة ويقول: ألو - نعم - حتى يعمـــد هـــو إذا مـــا تصادف وجوده في المكتب إلى التظاهر بإعادة ترتيـــب بعض الأشياء مع أنها مرتبة كما يجب مرهفا أذنيه لالتقاط ذبذبـــات الصـــوت ورد الفعل حتى إذا كان همسة خافتة أو صيحة

مكتومة أو شهقة تعجب، يقوم بنقل كرسي من مكانه ليعيده إلى حيث كـــان، أو يســـوى مـــن وضـــع الســـترة المعلقة في الشماعة، يفتح مصـــراعي النافذة المطلة على الشارع، ثم يعود فيغلقها بإشارة من المدير العام حتى لا تشوش عليه ضجة الشارع حديثه، كان لا بد من أن يشـــغل نفســـه بـــأى شئ يسوغ بقاءه في المكتب إلى أن تنتهي المكالمـــة، حـــتى أنـــه أحيانا لا يتردد في تسوية الأوراق والملفات الموضـــوعة على المكتب فيخلط هذه بتلك مما يعرضه للتقريع الذي يستحقه عن جدارة.

ـ ولكـــن ما رأيك يا عم مسعود، هل سمعت في حياتك بميت يتكلم وكأنه استرد روحه أو نهض من موته؟

بوغـــت القهوجي بهذا السؤال العجيب، فحملق في وجه موظف القبو مشدوها، وبقى لبرهة صامتا لا يعرف كيف يجيب على سؤال لا يمكـــن أن يرد إلا على ألسنة الأطفال والمجانين، ولكنه كان في حقيقة الأمـــر يبحث عن أثر أو علامة من علامات الخبل في الوجه الشاحب لـــيكون على ثقة من صحة أقواله عند نشر الخبر في الطوابق الخمسة وهو مازال طازجا، فاحتمال جنون عمر عبد الحميد هذا قد تكون مسألة وقت، فلا أحد يمكنه أن يعاشر الموتى والفئران في قبو تحت الأرض لا تدخلـــه الشـــمس، ثـــم لا يتعرض لإصابة في عقله أو يفقد رشده، أخذ يطـــرق بأصـــابعه علـــى سطح المكتب كما لكي يصوغ على إيقاعها الإجابة التي ينبغي أن تكون من نوع السؤال الذي يفتقر إلى المنطق.

ـ هذا لا يحدث يا أستاذ إلا في حالة النوم، الإنسان يرى في

نومــــه أشـــياء غريـــبة، ويحلم بأمور لا تخطر على البال، أنا نفسي حلمت ذات يوم بأنهم عينوني مديرا لهذه الشركة، ولكن لعشرة دقائق فقط، فما أن جلست على كرسي الإدارة حتى جاءت زوجتي سامحها الله لتوقظني، تخيل يا أستاذ؟!

كان يمكن أن يستمر القهوجي إلى ما لانهاية في سرد تفاصيل هـــذا الحلم، أو أن يحاول تذكر أحلام أخرى نسيها منذ زمن طويل، ولكن عمر عبد الحميد نهض لاعتراض طريقه وقال بغضب مكتوم:

ـ دعـــنا من أحلامك ومن زوجتك يا مسعود، أنا أعرف ما يجرى أثناء النوم، ولكن ما يهمني هو ما يجرى في هذه الحجرة المشئومة.

ثم تقدم قليلا إلى أن توقف قبالة القهوجي الذاهل وأضاف:

ـ تصـــور نفسك يا مسعود في مكاني جالسا في أمان الله، ثم يخـــرج علـــيك أحـــد الموتى من ملفه ليتحدث معك كما لو أنه حي يرزق، قل لي كيف تتصرف في هذه الحالة وماذا تفعل؟

بدا مسعود النقاز وهو ينصت إلى كلام عمر عبد الحميد وكأنه فقـــد وعيه وفقد صوته أيضا وبدا غير قادر على التنفس، فقد تصلب فـــي مكانــــه ساكنا كالتمثال وإن ظلت عيناه تطرفان، بدا كما لو أنه استرد وعيه حين قال متسائلا:

ـ ماذا تقول يا أستاذ؟ ميت يتكلم، لم أسمع بهذا من قبل، وقد يكون هذا دليل على قرب يوم الساعة، ولكنى أظن أنك تمزح، ميت يتكلم قال؟!

ـ بماذا أقسم لك يا مسعود بأن هذا ما حدث منذ قليل.

التفت مسعود النقاز حوله ثم قال:

ـ ولكن أين هو هذا الميت، هل رأيته بعينك أم؟!

ثم وكما لو أنه تذكر ما هو أهم من تخاريف الموت والأحلام والجنون فالتقط صينية القهوة من فوق المكتب وصاح كالغريق:

ـ قهوة المدير العام، الله يسامحك يا أستاذ.

وفي لمح البصر اختفى من الحجرة فيما تردد صدى خطواته وهـــو يهرول في الممر المقفر، كان المدير العام قد دلف إلى مكتبه للـــتو كما باتفاق ضمني مع القهوجي الذي يحفظ مواعيده عن ظهر قلـــب، حـــتى إذا كـــان مدعـــواً إلـــى اجتماع خارج الشركة التي كاجـــتماعات الحـــواة والقراصنة، أو أن زوجته المتسلطة أمرته في الهـــاتف أن يوافـــيها في المنزل دونما تأخير فلا يملك إلا الخضوع لإرادتها، وهذا تقريبا هو السر الوحيد الذي خفي عن القهوجي، فظل يـــدور ويلف من حوله دون أن يتوصل إلى فك طلاسمه أو الكشف عـــن خفاياه وظلاله، فكان يلتقط كلمة من هنا وإشارة من هناك لكي يضـــمها بحرص إلى عقد أسرار المدير العام المتراكمة في حوزته، وكلمـــا اصطدم بحافة اليأس أو أعيته الحيلة يتوقف لدقائق في مكتب أحـــلام التـــي ترحـــب بـــه بمـــودة وابتسامة صافية، كان كل همه اســـتدراجها إلـــى الثرثرة عن موضوعه المثير للريبة والبلبلة، فقد تســـعفه بشيء جديد ينير طريقه، ولكن هذه الأخيرة غالبا ما تكتفي بهز رأسها ـ متعجبة في قرارة نفسها من مزاج وجبروت تلك المرأة

وإصرارها على التعامل مع رجلها الشرعي وكأنه ليس كذلك، كأنه رجل من الشارع أو خادم بأجر، وقد لا يزيد موقعه إلى جوارها عن جرو صغير تجره في اتجاهها بحبل متين عقدته حول رقبته بإحكام، بحيث لا يستطيع أبدا الإفلات من قبضتها الحازمة.

لقد قالت لـــه أحلام ذات يوم:

ـ أنـــا نفســـي لا أعرف يا عم مسعود، ولا يمكنني حتى إن أتخـــيل كيف أن رجلا في مثل وضعه يمكن أن يخضع لامرأة كائنة مـــن تكـــون، إنه يرتعش لمجرد أن يسمع صوتها في الهاتف، فيبدو أضعف من نملة.

يومئذ تذكر القهوجي زوجته فهز رأسه وقال:

ـ عندك حق يا ابنتى، أضعف من نملة.

عندما أدركه القنوط وتسرب اليأس إلى نفسه كالهواء الملوث بعفونـــة القمامة والدخان الذي يغمر شوارع المدينة، وقد استنفذ كل حـــيله وأســـاليبه الماكرة للوصول إلى هدفه رأى أنه قد حان الوقت للعـــودة إلـــى عقده الطويل لكي يفرز حباته على مهل وبروية بأمل العـــثور على مفتاح السر الذي دوخه، وما أن فرغ من إعادة ترتيب وتصـــنيف ما تراكم لديه من معلومات وأخبار وأقوال متناثرة حتى اكتشـــف مذهـــولا ومبتهجا في نفس الوقت أن الطاووس متزوج من امـــرأة لعـــوب، استطاعت بسلاح الفتنة الطاغية وعروض الأنوثة المـــبهرة مـــن إخضاع رجال كثيرين من ذوى الجاه والنفوذ لسلطة جسدها التي لا تقاوم، أما المدير العام فإنها هي التي عجنته وخبزته

بيدها وبما يتفق مع مزاجها المتقلب وهوايتها في اصطياد ضحاياها بإشارة من يدها، واثقة من أنه لا يملك إلا أن يهز ذيله في حضورها وفـي غـيابها أيضا، فهو لم يكن ليزيد عن صراف خامل في أحد المصارف التجارية، كثيرا ما يخطئ في عد النقود الموسومة بأرقام فلكـية، لأنـه وهـو يفرها بأصابعه المتعرقة لا يجد بدا من التفكير بخواء جيوبه وعقدة الحاجة التي يعاني منها في ظل مرتبة الهزيل، كانـت يبحث عن نافذة يقفز منها إلى عالم الثراء والرفاهية إلى أن وجدها ذات يوم مشرعة أمامه في هيئة امرأة متبرجة مدت يدها من فـتحة الشباك الزجاجي بصك دمعت عيناه لأرقامه الكبيرة، فما كان مـنه إلا أن تعلـق كالغـريق بـتلك اليد العاجية بأصابعها الخمسة المرصـعة بعدة خواتم ذهبية، وظل متشبثا بها بكل ما طبع عليه من مسـكنة وطمـع، إلـى أن قررت لا يدري كيف وضعه في مجال نـزواتها وتحـت رحمـتها، فرفعته وهو شبه منوم من فوق كرسي تعاسـته فـي المصـرف، ثم دفعت به إلى المقعد الملاصق لها في سـيارتها الفخمـة، وفي النهاية استجابت لتملقاته وغزلياته المرتجلة فجـرته مـن ربطة عنقه إلى حجرة نومها في قصرها المطل على الشـاطئ، عازمة على عدم استضافته في فراشها إلا بعقد شرعي، كـان آخـر يوم في شهر العسل الطافح بمتع الجسد وأفراحه عندما فاجأتـه بهديـتها الثميـنة، فجاءته بقرار تنصيبه على رأس الشركة العربـية العامة لخدمات البيئة ومكافحة التلوث وقالت لـه بصوتها الناعم وهي تنهض من السرير:

ـ هذا لأنك نجحت في الامتحان.

لقـــد منحته بالإضافة إلى ذلك الصوت الأمر بنبراته الزاعقة ورنيـــنه الطاغي الذي يزلزل الشركة من الطابق الأول إلى الطابق الخـــامس عـــند الإعـــلان عـــن غضبه، مشيعا الذعر في صفوف الموظفيـــن .الذين يهربون من وجهه مهرولين في كل اتجاه كالفئران المذعـــورة خوفـــا مـــن أن يصـــيبهم شرر بركانه الهائج، لقد دأب الصـــراف السابق على مهادنة ربة نعمته بكلمة "حاضر" التي يهمس بهـــا فـــي سماعة الهاتف مكررا إياها بآلية وكأنها الكلمة الأولى في النشـــيد الوطني، ولكن ما لم يفهمه مسعود النقاز هو أن المدير العام قـــد أصـــبح لديه فيما ظهر من حصيلة الفرز طموحه إلى مزيد من السـلطة بعـــد أن تعـــرف على مذاقها المخدر وامتيازاتها الخيالية وبريقها الذي يعمي الأبصار، وقد يكون ضاق ذرعا بقيوده الحريرية والتى لم تعد كذلك، ولذا فقد شرع في محاولاته للتحرر تدريجيا من قبضـــة المـــرأة الداعـــرة، التي تحصى عليه أنفاسه، وراح يترقب الفرصة المواتية لإعلان استقلاله.

- 3 -

اخـــتفى عبد الدائم من حجرة الفئران دون أن يترك أي أثر يدل علـــيه عدا ملفه الأصفر المحشو بأوراق عمره الوظيفي مفتوحا على المنضدة المعدنية، فلم يظهر في اليوم التالي ولا الذي بعده، مما أوحي لعمر عبد الحميد بأن ذلك الصوت المجهد بنبراته وصفيره المتقطع ما هو إلا أضغاث أحلام، وقد يكون صدي مضخما لحالة الإحباط وخيبة الأمـــل المريـــرة التـــي باتـــت تلازمه كظله منذ تسلمه لمهام وظيفته المشـــئومة فـــي القبو الموحش والمقفر حتى من نعمة الضوء والهواء النقي، فليس لذلك الصوت من وجود إلا في خياله المحموم، فهو حتى الآن لـــم يوفـــق بعـــد في التكيف مع جو القبو بما يتخلله من صمت وخـــواء، وبما يشيعه في نفسه من إحساس بالعبث والمرارة، القبو هو ملاذه الأخير وملجأه الذي لا يتوه عنه، ولكنه يضيق من حوله ويخنقه كحـــبل غليظ، يضغط على أعصابه ويسحقه بلا رحمة، لقد ظن لأول وهلـــة أن ذلك المخلوق السرابى الذي هو من أهل الآخرة وقد نهض مـــن موته بأعجوبة سوف يؤانسه في وحدته ويخفف من وطأة عزلته الكئيـــبة تحت الأرض، فحديث الأموات المندثرين بالرغم مما يشوبه مـــن تعاسة وأوهام، وليس لـــه من جدوى أفضل من لا شيء في كل الأحوال، ولكنه مع ذلك فقد تاه منه حتى سلفه في المحنة.

انكب على الملف الأصفر، وشرع في تصفحه وتقليب أوراقه المهـــترئة بفضـــول جامح فيما هو يحتسى قهوته السوداء بجرعات صغيرة دون إحساس بمذاقها، ولكنه لم يجد في الملف الذي قرضته الفئران ما يثير الاهتمام.

إلا بقـــدر ما يتوفر ذلك في أوراق الأشجار الذابلة عند تساقطها مع أول أنفاس الخريف، فكل ما هنالك أن المعلومات الواردة في الملف تشير إلى أن عبد الدائم هذا كان أحد أقدم موظفي الشركة العربية العامة لخدمات البيئة ومكافحة التلوث، انتقل إليها مطرودا من شركة الأعلاف، ومـــا أن حط على أرضيه الطابق الخامس حتى أخذ في صعود سلمها الحلزوني بدأب ومثابرة درجة درجة إلى أن أفضى به السلم إلى منصب نائـــب المدير العام فلم يبق ما يفصله عن كرسي حجرة الإدارة العامة بكـــل مـــباهجها ومكاسبها المادية والمعنوية سوى مسافة قصيرة يمكنه قطعهـــا بخطـــوة واحدة، كان فيما يبدو يتأهب كما هو الوضع الطبيعي لهـــذه الخطوة الحاسمة في حياته الوظيفية الطويلة وقد أوقف عليها كل آمالـــه فـــي حياته الوظيفية حين باغتته من وراء ظهر ضربة خفية لم تسدد إليه بإحكام، ومع ذلك فقد دفعت به في اتجاه معاكس، يومها ترنح قلـــيلا وهو في حالة ذهول، ولكنه سرعان ما استرد توازنه كما لو أنه تعـــثر فـــي حجر تمكن من تجاوزه دون أية متاعب تذكر، إلا أنه في غضـــون أســـابيع قليلة بوغت بضربة أخرى قاصمة بحيث قلبته على وجهـــه في القبو ليقضي فيه أيامه الأخيرة مذويا في النسيان والمرارة، وحيداً إلا من ضجة الفئران والنزيف البطيء للطعنة الغادرة التي ظلت تعذبه في أعماق روحه كالجرح الذي لا يندمل.

وكما يتضح من الورقة الأخيرة في الملف التي تنعيه إلى رحمة الله مع رجاء المغفرة لآثامه المجهولة والإشادة بخصاله الحميدة وتفانيه في عمله، فقد قضي عبد الدائم ما يقرب من تسعة أشهر منطويا على نفســـه في قبضة العزلة والإهمال. كان يقبع بلا عمل في مكتبه تحت

الأرض طــوال اليوم إلى أن صدأت عظامه وتهرأ جلده، كان إذا تنهد لا يسمع سوى صوته المتعب يترجع مرتعشا في فضاء القبو، وإذا فتح عينــيه الكليلتين لا يرى سوى وجهه المعذب منطبعا كوجه من الطين فــي لجــة من الدموع، أما وهو يتحدث إلى نفسه بصوت مسموع فلا أحد ينصت إليه سوى الأشباح التي تحيطه من كل جانب.

ولكــن عمر عبد الحميد وهو يفكر بمأساة المرحوم عبد الدائم فكر أنه أحرى به أن يشفق على نفسه ويفكر في مصيره المعتم، فعبد الدائــم يــنعم الآن براحة الموت بين يدي الملائكة بعد أن تحرر من أوحـــال الدنيا وترهاتها وكل شرورها التي لا بد أنه كان يتنشقها في الهــواء مختلطة بالغبار والعفونة وأنفاس الناس التي لا تقل حموضة عن رائحة الخل، أما هو فقد جاء مهرولا من زنقة الريفي في المدينة القديمـــة لكـــي يرث تركته الهزيلة من الملفات البالية وأقلامه الجافة وختمه القديم وشبكات عنكبوته وفئرانه الرمادية التي تتسابق بسرعة الــبرق في عدة اتجاهات، وقد بات لزاما عليه أن يشحذ قواه وهمته كـــيما يستمر في عمله أو بطالته المقنعة فلا ينهار كجدار متداع أو يفقــد عقله، كان يود لو أن عبد الدائم يفيق من سباته الأبدي مجددا لكي يستفهم منه عن سر حمله للسلم بالعرض، وكيف انتهى به الأمر إلى أن يتردى في قاع المهانة بلا عزاء، كيف أنه تدحرج إلى السفح عوضـــاً عن القفز إلى كرسي الإدارة وهو الذي كان يقف في ظله، كان أقرب موظفي الشركة إليه وأحقهم به، أو على الأقل يستميت في الدفاع عن منصبه الرفيع مهما كلف الأمر، وأن يخوض معركته إلى النهاية بدلا من الهرب إلى قبو رطب.

كـــان ينـــتظر بنفاد صبر عودة عبد الدائم من سجنه السماوي لكي يجيب على أسئلته التي هي خليط من الحيرة والفضول، غير أنه بـــدلا من ذلك هلت عليه أنوار أمينة سر المدير العام التي أرق بها لعدة ليال، ثم قرر نسيانها لإدراكه بأنه لا جدوى من الانشغال بغير نكبته الوظيفية، لم يدقق فيها النظر يوم أن دلف بخطى عصفور إلى مكتـــبها الأنـــيق الملاصق لحجرة الإدارة، ومع ذلك فقد هزته رعدة انبهار بجمالها الذي أحس به يومئذ كنسمة رقيقة تهب عليه من نافذة الأحـــلام، نسمة دافئة ومعطرة، ثم ما لبث أن غمره رذاذ من حمى الشـــبق حين رآها من تحت جفنيه المرتعشين وهي ترفع جسدها من فـــوق الكرســـي بنكهته الناضجة وبهاراته الحارة، ثم تخطو برشاقة غـــزالة باتجاه باب حجرة الإدارة، أما بقية التفاصيل فقد غابت عنه تماما، الجسد وحده كان نصب عينيه الزائغتين، وهو الشيء الذي لم يعـــبأ مـــن قبل بالتعرف على أسراره الحميمة التي مازالت موضع دهشة وتأمل في كل حين وكأن المرأة تولد من رحم اللحظة والمكان الذي هي فيه، حتى وهو يتنزه في حديقة الجامعة في زحام العشرات من تلك المخلوقات اللطيفة المغردة بألحان الربيع ما كان ليفكر بغير تجاربـــه ومســـائـــله الكيميائية المعقـــدة التي كانت إذ ذاك مؤشره الوحـــيد إلى النجاح والصعود الذي يرجوه لنفسه، لقد كسب معركة الـــتفوق الساحق وهو لا يدري من أنه سوف يعبر من فوق جسرها العريض إلى دوار خيبة الأمل، ثم إلى متاهة البطالة، إلى أن أنزلق في النهاية دون أن يدري إلى مخزن ملفات الموتى، والغريب في كل ذلك أنه جاء برجليه لكي يخضع للتحنيط هو وطموحاته، كان يتنفس

بصـــعوبة مرتجفا ببرودة الصمت عندما طرق أدنيه صدى ضربات كعب نسائي على درج القبو مدويا بذلك الإيقاع الراقص الذي يحس المرء يترجع دبدباته في قلبه أو تحت جلده في الحالات العادية، أما فـــي حالته هو بالتحديد فقد كان بمثابة طوق النجاة، فما كان يخطر بـــباله برغم معاناته من الدوار واليأس أن تهبط إحداهن إلى القبو أيا كانـــت بنـــية تفقده أو التفتيش عنه فيما هو يغرق في هوة بلا قرار، فليس هناك من تفسير لما يكابده من البلبلة والتخبط سوى أنه يقترب مـــن حافة الجنون، وقد يكون جن بالفعل، فلا وجود لشيء مما يفكر به أو يسمعه من أحداث كما هي معجزة عبد الدائم الذي خيل إليه أنه تحرر من أغلال الموت، ثم تسلل إلى القبو بخفة ظل، لا شك في أنه يعاني من عدم قدرته على التفكير السليم ومن تشوش حواسه إلى حد اخـــتلاط الأمور من حوله في فوضى عجيبة، ومع ذلك فقد أنصت بتركـــيز وانتباه واثقا من أن هذه الإيقاعات الموزونة ليست لمسعود الـــنقاز الـــذي يمشى بخطوات قط مدرب على صيد الفئران، وإنما لا مرأة تمشى مرحة وقد نزلت إلى القبو من أجله، بالكاد تململ في كرســـيه وهـــو يهم بالنهوض حين أطلت عليه من فوق برج أنوثتها اللاهـــبة وعلـــي شـــفتيها ابتسامة بلون ضوء الفجر، عندئذ اجتاحته مشـــاعر الغريق الذي ينجو من غرق محتم في أخر لحظة، مأخوذا بـــروعة المشـــهد كمن يتلقى دعوة لركوب بساط الريح في أحلامه، أحس للوهلة الأولي بأن حضورها الساطع بغض النظر عن دوافعه، لـــه طعـــم أخر غير الشهد ولكنه ألذ، وقد آن لـــه أن يتذوقه ولو بطرف لسانه فيما لو تكررت مثل هذه المفاجأة السارة، وبذلك يتحول

مخزن ملفات الموتى هذا إلى جنة موعودة بستائر من البهجة وشمس بقبعة من الشفق تشرق عند حافة مرج من شقائق النعمان والفراشات الملونـــة، أطلـــت عليه من الباب بتباشير يوم ليس ككل الأيام يفيض عذوبة، ثم بادرته بالتحية موردة الوجه وكأنها تعرفه منذ زمن طويل

- صباح الخير يا أستاذ عمر.

كـــان الوقـــت قرب الظهر ولكن ذلك لا يهم، فقد أجاب على تحيـــتها التـــي هي بطعم قطرة ماء في يوم قائظ مرحبا بها بصوت احتفالي موسوم بحرارة اللحظة الخارجة عن كل حساباته بما في ذلك حســـابات التمنـــي والتخيل، ثم انتصب واقفا على قدمين من الريش داعـــيا إياها إلى الدخول بإشارة من يده، خجلا فقط لعدم لياقة مكتبه ومثـــبطا لأنه مضطر لاستقبالها فيه، ولكنها تباطأت عند الباب كأنها أخطـــأت طـــريقها، أو أنهـــا ترهب المغامرة بوضع قدميها في هذه الحجرة الكئيبة المغمورة بملفات الراحلين من موظفي الشركة الذين قـــد تكون عاصرت بعضهم عندما كانوا على قيد الحياة، غير أنه لا يدري كيف أنها في الخطوة التالية جازفت بتخطي قدرها متقدمة في اتجـــاه الكرســـي الـــذي بلا مسند لتحط عليه دون أن تعبأ بأطراف فستانها التي انحسرت عن ركبتيها، وبعد أن جالت بعينيها البراقتين فـــي محـــيط الملفات المغبرة والعناكب الدقيقة التي عادت إلى نسج شباكها في زوايا السقف، تنهدت وقالت بنبرة حزينة:

- كـــان المرحوم عبد الدائم يقيم في هذه الحجرة إقامة دائمة إلى أن أنتقل إلى رحمة الله.

وبحـــركة عفويـــة أراحـــت ذراعيها عند المرفق على حافة المكتب، ثم التفتت في اتجاهه مصوبة إليه سهام سحرها المنوم، وبعد أن أطبقت علية في مصيدة رموشها الطويلة قالت مبتسمة:

– أضنك سمعت به يا أستاذ عمر؟

أجابها بهزة من رأسه أردفها بقوله:

– القهوجي حدثني عنه منذ أول يوم جئت فيه إلى الشركة.

أوســـعت مـــن ابتسامتها لذكر القهوجي، ثم رفعت يدها كما لوأنها تشير بها إلى شخص ما ظهر بحذاء الباب.

– عـــم مســـعود الـــنقاز، أيوه لا بد أنه اخترع كعادته حكاية طويلة عريضة نصفها بالطبع من خياله.

– ربمـــا، ولكني في الواقع لا أعرف مدي صحة ما قاله لي، ولكنه على أية حال رجل طيب وعلي نياته.

لقـــد وجد نفسه منساقا من دون إرادته إلى هذا الحديث الذي فرض عليه، المكرر والزائد عن حاجته، فكم يود لو أنه يتخذ منحي آخر يكون مدعاة لإنبات بذور علاقة حميمة ودائمة مع ربة الأحلام الجميلة هذه، غير محكومة بتواريخ الموتى وأحزانهم، أو على الأقل لا يكون مناسبة لا لإثارة غبار ذكريات قديمة وبائسة انقضى أوانها، لقـــد نفـــض عـــبد الدائـــم يديه من الدنيا ومشى مديراً ظهره للحياة ومتاعبها، ولعله غير نادم على شيء، وبرغم ذلك فلا مناص من أن يتـــبع أميـــنة سر الوجود هذه التي يمكن أن توقظ الحجر من سباته

بلمسة واحدة من إصبعها إلى حيث تقوده ويداه معقودتان خلف ظهره، دمدم وكأنه يواسي نفسه:

ـ كان بإمكانه الانتقال إلى وظيفة أخري أو طلب الإحالة على التقاعد، وبذلك يكسب راحته بدلا من أن يعرض نفسه للمهانة، ثم يموت وحيدا في قبو تحت الأرض.

مسحت بيدها على شعرها الناعم وهي تنظر باتجاه الباب، ثم قالت بصوت قطة مقرورة:

ـ قلت له ذلك في حينه، ولكنه أجابني بما لا يمكن توقعه، قال لي بأنه لا يحتاج إلى شيء وليس لديه ما يشكو منه، هذا أولا وثانيا فهو هنا تحت سقف القبو يعيش كما يود، بعيدا عن كل ما يمكن أن يعكر صفو حياته، بعيداً عن الناس وأطماعهم التافهة ونفاقهم وأكاذيبهم وطنينهم الذي يفلق الصخر، وفوق ذلك فهو لا يتلقى أوامر من أحد.

وأضافت بشرود بعد برهة من الصمت:

ـ ذات يوم كلفني المدير العام بإبلاغه بقرار إحالته إلى التقاعد مؤكداً بأن الإجراء هو في صالحه، فهو قد يكون تعب أكثر من اللازم، وقد حان الوقت لأن يرتاح فيما تبقى له من عمر.

ـ ولكنه فيما يبدو فضل الراحة الأبدية.

وافقته أحلام على ملاحظته هذه بإجابة خفيفة من رأسها، مصرة على المضي في تأبين الفقيد ولو كان ذلك بعد فوات الأوان.

- جئــته بنص القرار هنا في المكتب، ولكنني وجدته ميتا في فراشه، ظننته في البداية غافيا كعادته ولكنه أبى أن يرفع رأسه عن الوســادة ليقول: أهلا يا أحلام. وعندما ما هززته من كتفيه اكتشفت أنه فارق الحياة رحمه الله.

وبصــوت فيه من أنفاس الياسمين أكثر مما يغمره من مشاعر الأســى حدثته عن الأيام الأخيرة في حياة الرجل المتوفى الذي هجر الدنيا بكل رحابتها وجاء ليدفن نفسه في القبو بإرادته، لقد أحضر معه كل ما يلزمه في عزلته الصارمة، جاء بفراش محشو بالقطن ووسادة وشــرا شــف نظيفة وأغطية صوفية وأدوات وأواني للطبخ، وشماعة خشــبية علق فيها ملابسه القليلة، ولكنه لم يأت بكل هذه الأشياء دفعة واحــدة وإنمــا على مراحل، وكان آخر ما أحضره من منزله معطف شــتائي لم يرتده أبدا، كانت هي الوحيدة التي تزوره وتتردد عليه في القبو من يوم لآخر أثناء ساعات الدوام الرسمي بدافع الشفقة ومشاعر الرحمة تجاه هذا المخلوق العنيد الذي لا تدرى ماذا أصابه. فهجر بيته وأســرته وقطــع علاقته بعالم الناس الأحياء، فقد كان يرفض مغادرة القبو حتى لجلب الأدوية التي يحتاجها لمداواة علله المتعددة، فهو تارة يشكو من نزلة برد حادة، وتارة أخرى من نوبات سعال عنيفة تخلخل عظامــه الهشــة، ثم من صداع لا يرحم، إلى درجة أنه كما قال لها يشــعر أحــياناً أن رأسه قد تحول إلى ما يشبه محطة قطارات قديمة تدمــدم عجلاتهــا من حوله جيئة وذهابا فلا يغمض لــه جفن طوال الليل، وقد يفاجئه مغص في أمعائه يعتصره بلا رحمة بمخالبه الحادة، إلى غير ذلك من الأمراض التي لا يمكن لأحد أن يتنبأ بها في هجوم

الشـــيخوخة المبكرة التي أوهنته حتى العظم، فتولت هي مهمة رعايته والعـــناية بــه وتــزويده بالأدويـــة وجلبها لـــه من الصيدلية بحسب تطورات مرضه، أما هو فما كان يرجو شيئا بأكثر من يتعافى ويسترد صـــحته فيكون لديه ما يكفى من الجرأة والثقة بالنفس لكي يتقدم بطلب يد هذه الحورية التي هي أحن عليه من أمه فيما لو كانت حية ترزق، لكـــنه لـــم يتعاف، وبرغم ذلك فقد عرض عليها نياته الحسنة هذه في ساعة تجل، فقال لها وهو يلهث ولا يكاد يجد صوته.

- ما رأيك في أن تتزوج يا أحلام على بركة الله؟!

طلـــب يدهـــا مـــراوحًا مـــا بين الجد والهزل بيد أنها فاجأته بضـــحكة رنانة هزتها من أعماق روحها فضحك معها للمرة الأولى والأخـــيرة مـــنذ لجوئه إلى القبو ليموت فيه بسلام، لقد تنبهت يومئذ بالرغم من سخرية الموقف وتداعياته العاطفية المحزنة إلى أنها تدنو مـــن ربـــيعها الثامن والعشرين ومازالت على باب الله، بينما عبير زهورهـــا يتبدد في الهواء معرضة لآفة العنوسة التي تهدد برياحها الجلـــيدية وسمومها ما يقرب من ثلاثة أرباع عدد الفتيات اللاتي هن فـــي سن النضج، متأهبات للقفز إلى فراش الزوجية عند أول إشارة، لـــو كان عبد الدائم هذا أصغر قليلا في العمر، لو كان بصحة جيدة تمكنه من معاشرتها معاشرة الأزواج فيطعمها وجبة حب دسمة ولو لمـــرة واحـــدة في الأسبوع لما تركت أمنيته هذه معلقة على مشجب المستحيل، ولكن ما أدهشها إلى حد البكاء أن جسدها الجميل بدا كما لـــو أنه كان في حالة سبات ثم أفاق فجأة على طرقات مرتجفة وبيد فـــي حالـــة احتضار، يومئذ ولدى عودتها إلى مكتبها علقت عينيها

بالمدير العام لدى دخوله إلى مكتبه في زيه الاحتفالي ثم راحت للتو ترفرف من حوله كالفراشة إلى أن قنعت بعد عدة أسابيع أنه لا أمل ولا جدوى من المناورة ولا حتى من عروض الفتنة بإزاء هذا الرجل المغلول إلى امرأتين، الأولي على حد علمها تعيش في الظل راضية بما هي فيه أما الثانية فهي تعامله كما لو أنها ولي أمره، فليس هناك من شك في أنها هي التي تتعهده بالرعاية بدءًا باختيارها لربطة عنقه وكــل طقوس تجمله وأناقته المفرطة، إلى تلميع حذائه لدى مغادرته للمنزل في ظل العناية الإلهية، إضافة إلى وصاياه الحازمة وتبخيره لحمايــته من الحسد والضغائن والأحقاد وكل الشرور التي يتعثر بها المــرء في طريقه، زوجتان زيادة على خبراته المتنامية في اقتناص النســاء مــن كل الأعمار والجنسيات وجلبهن إلى خليته في الشركة دونمــا مواربة أو تخف، احداهن تطرق بابه والأخرى تغلقه وراءها لــدى خروجها من عنده متعرقة حبا ومجونا، وهما غالبا ما يلتقيان وجها لوجه بابتسامة تفهم وتسامح، هن من الكثرة إلى حد أن المدير العام الذي يعاني من دوار العطر النسائي الجيد والرديء لا يكاد يجد ســاعة واحــدة فائضــة عن غرامياته الفاضحة ينفقها في تصريف شؤون الشركة، وبذلك فقد تولت هي تصريفها.

فأصبحت تنوب عنه في كل شيء تجيب على مكالماته الهاتفية في حضوره وغيابه على السواء، وتشرف على مواعيده العاطفية مكافحة ما اســتطاعت الفوضى والطيش وإلحاح هذه أو تلك لتخطى دورها بوقاحة وجــرأة متناهية، كما تولت فوق ذلك تسيير دواليب الشركة وحل مشاكل الموظفيــن والعمــال والنظر في المرجعات المستعجلة واتخاذ القرارات الحاسمة حتى فيما يتعلق بالحسابات والأمور المالية.

لــم تكــن تظن لأول وهلة أن باستطاعتها إدارة شركة ضخمة مكرســة لخدمات البيئة ومكافحة التلوث، فقد كانت تفكر عند التحاقها بهذا العمل. أن الإدارة معجزة لا يجيدها إلا قلة من الرجال المحنكين الذيــن يتميزون بالحكمة والذكاء، أما ما لم تكن تتوقعه فهو أنها ما أن أمسكت بزمام الأمور في يدها حتى غرقت في طفح من عجائب الدنيا وأســاطيرها كانــت خافية عليها، فيما يقصر خيالها عن توقع حدوثها حتى في الأحلام، فقد اتضح لها أن مدير الشركة ما هو إلا رجل أفاق بــربطة عنق حريرية وأزرار مذهبة، فقيه في الغزل والمجون وأكثر تفانــيا فــي صــيد واقتناص الغزالات الشاردة على أبواب الغواية أو الحاجة، أما هوايته المفضلة فهي تقليب رزم أوراق العملة الأجنبية بين يديه المتعرقتين، ثم عدها وتخزينها، وأخيرا إنفاقها بسفه غريب فهناك حســاباته السرية في المصارف المحلية والخارجية، زيادة على المبالغ الــنقدية الهائلــة التــي تصرف لــه من خزينة الشركة وكأنه يملكها بالوراثة أبا عن جد بحجة فتح فروع جديدة للشركة في البلدان والقرى النائية تبين فيما بعد أنها فروع وهمية، أو بذريعة تجديد الأثاث وجلب أجهــزة اتصالات حديثة من الخارج، وأحيانا بدعوى صرف مكافآت عمــل إضافي للموظفين والعمال ولكنه يصرفها، لنفسه إلى غير ذلك من أساليب الخداع والتحايل.

وبرغم انشغالها بدوامة العمل اليومي ومتاعبه التي لا تنتهي فقد ظلت مهمومة وحريصة إلى حد الهوس على حيوية جسدها الفاتن، فلم تغفل للحظة واحدة عن تفقده وصيانته وعدم إصابته بالسمنة والترهل، لقــد أرعبها أن بعض صاحباتها اللاتي يقاربنها في العمر قد ظهرت

عليهـــن أثار الذبول والقحط العاطفي فيما يشبه مرضا غامضا أحالهن إلـــى أشـــباح بوجـــوه من الرمل وعيون منطفئة، وما تلك الهالة من الضباب الأصفر التي يتشحن بها سوى مؤشر على غروب الشمس في قلوبهـــن، بـــل وحتى ضحكاتهن الرجراجة ما هي إلا صدى لأنفاس المـــرارة واليـــباس، وقـــد انعكس ذلك حتى على مظهرهن الخارجي فتسربلن بمسوح راهبات بدءا بغطاء الشعر إلى الثياب الفضفضة التي تـــنزل مـــتماوجة ومتطاولة إلى كعوب أحذيتهن الواطئة، كل هذا يدل على ما يبذلنه من محاولات عابثة للمحافظة على كبريائهن، وترفعهن بـــإزاء أزمة الركود والبوار المستحكمة في سوق الزواج نتيجة لكثرة العرض وقلة الطلب، لقد فضلن فيما يبدو التخفي في طيات جلابيبهن الســـوداء والـــرمادية حتى لا يرتاب أحد في نقاء معدنهن ورصانتهن وصبرهن الذي من حجر الصوان، ومثانة تكوينهن المقاوم لكل عوامل الغوايـــة وتســـلط الشهوات الجسدية، ثم إصرارهن على التمسك بحبل المناعة والفضيلة حتى إذا كانت فضيلة البكاء على الأطلال.

وفيما هي تتصدى بعناد ومثابرة لكل عوامل التسوس والموات المهددة لشبابها وأنوثتها بما نشأت عليه من طبع مرح وصفاء روحي ونبل عاطفي إضافة إلى حبها للحياة الذي توظفه بمهارة في مظهرها وعلاقاتهـــا بالآخريـــن شـــرعت فـــي التردد على مكاتب الموظفين الموزعـــة علـــى خمسة طوابق متشجعة بمهامها الرسمية وسلطتها المكتسبة من المدير العام وحرصها على تفقد سير العمل في الشركة فإن ما لم تفهمه في جولاتها شبه اليومية هذه وظلت مندهشة وحائرة بشأنه هو أن أولئك الموظفين وأغلبهم من العزاب برغم براعتهم في

التقرب إليها بطرق متعددة، فهم جميعا يخاطبونها من نافدة مصالحهم الآنية والعاجلة، فلم يفكر بها أحد كامرأة جميلة وناضجة، امرأة بقلب مــن ذهب ونيات حسنة، طيبة وخدومة، تخجل من أحلامها السرية، ولاشـــيء يخـــيفها سوي أن يأتي يوم تجد نفسها من خلاله تائهة في الضـــباب الأصـــفر، كـــأنهم جميعا من العميان، يتلمسون فقط يدها الحانية التي يودون أن ترفق بهم، فتتعطف عليهم بترقية أو علاوة أو سلفة يتقاضونها من خزينة الشركة عند اللزوم، وهذا كل ما هنالك لا جديد ولا خطوة واحدة في اتجاه عواطفها الراكدة، إلى أن ظهر عمر عـــبد الحمـــيد متخـــبطا في مجرى حياتها الرتيبة، في هيئة مخلوق متشرد متدثر بمعطف أسود كأنه في حالة حداد أبدى

لكـــن هـــذه المســـألة لها وجه آخر لا يعرفه أحد، فهي التي مهدت لموعدها معه حتى قبل أن تتعرف عليه شخصيا، فقد دافعت عنه لدى المدير العام الذي ما أن اطلع على طلبه للتوظيف حتى أزاحه جانبا بعدم اكتراث،

ثم قال لها: أنت أول من يعرف يا أحلام أن الشركة لا توجد بها وظائف شاغرة في الوقت الحاضر.

فكان أن اقترحت تعيينه حتى في وظيفة بواب أو حارس ليلي، ثـــم ذكـــرته بمكتـــب عبد الدائم الذي ظل مغلقا منذ انتقاله إلى الدار الآخـــرة، مـــع أنه في رأيها يستحق وظيفة أفضل لتفوقه في دراسته الجامعـــية كما تشير إلى ذلك مسوغات طلبه الذي تقدم به إلى إدارة العاملين، ثم هي لم تكتف بذلك فراحت تبتهل إلى الله لمدة ثلاثة أيام بأن يهدى ذلك العمر للقبول بهذه الوظيفة المتواضعة لتخوفها من أن

يرفضـــها بدافع الغرور الذي من المحتمل أنه يرتديه كالصدرية من تحت معطفه الرث.

تســارع تنفسها وقد تضرج وجهها بحمرة خفيفة كما لو أنها تحــاول الإمســاك بظل عبد الدائم ورفعه من فوق الأرض بأطراف أصــابعها، أمــا هــو التائه في ملكوتها الباذخ فقد أستغرقه حديثها المــتدفق عن ذلك الميت وحياته المتقلبة فلم يفكر في مقاطعتها، بل أنه وجد في الإنصات إليها متعة فائقة، كما كان دأبة في قريته عندما كان يصغي مبتهجا بتغريد العصافير وهو مستلق في فراشه، رآها تعبر من وراء مكتبه بأدوار حياة عبد الدائم الوظيفية وهو يرتقي سلم الترقيات مــتمهلا إلــى ما قبل الدرجة الأخيرة، ثم انتكاسته المحزنة وسقوطه المريع لينتهي إلى العجز والتعاسة في مخزن ملفات الموتى.

وفــيما كان صوتها يرفرف بنعومة في أجواء القبو كان العالم يــتكوم من تحت قدميها بتاريخه غير المجيد وآلهته القديمة والجديدة وأســاطينه من البلهاء وساسة الغواية والسحر الذين يضعون ربطات عــنق حريرية وقلوبهم من رماد، هناك الأحلام المجهضة والأوهام وكل مالا يعد ولا يحصى من المظالم والموبقات التي اقترفها البشر على مدي الزمن، كان في حالة وجد غريبة متوحدا في جنة الأفراح هذه، واثقًا في قرارة نفسه بأن كل مسائل الحياة والموت التي يتماوج ظلهــا فــي عينــي هذه المخلوقة المتوقدة كما الجمر وقد صادرت عواطفه الخامدة في شبكة من الرغبات المستحيلة.

قالت في ختام روايتها الطويلة وهي تفرك بأصابعها قلبا ذهبيا يتدلى على صدرها.

- هذا القلب هدية منه، لقد أوصى لي رحمة الله بكل ثروته، دهش عمر عبد الحميد لهذه المعلومة الجديدة فقال لمجرد إطالة بقائها في مكتبه حتى موعد الدوام الرسمي:

- إذًا فهـو مـن أصحاب الثروات مع أنه كان يعيش في قبو تحت الأرض؟!

ظنت بأنه أساء فهمها فقالت موضحة:

- فـي الحقـيقة أنا لا أعرف شيئا عن وضعه المالي وكل ما هنالك أنه عند تفاقم مرضه أوصاني بأن أحتفظ لنفسي بصندوق صغير لا أدري ما به، وعندما فتحته بعد انتقاله إلى جوار ربه وجدت أن كل محـتوياته لا تزيد عن مبلغ من المال في حدود ثلاثمائة دينار وساعة قديمـة وخاتمين أحدهما من الفضة والآخر من الذهب وسلسلة مفاتيح وصـورة يبدو أنها أخذت لـه ليلة زفافه وعدة علب من التبغ، وفوق ذلـك مجموعة من الكتب في الفلسفة وتاريخ الحضارات ومجلد ضخم فـي علم الاجتماع، وكان يحتوى أيضا على رزمة كبيرة من الأوراق مـرقمة ومكـتوبة بخط دقيق لم أستطع قراءته، ولكني مازلت أحتفظ بهذه الأوراق كما هي في درج مكتبي لا أدري ماذا أفعل بها.؟

كـان شبه متأكد من أن أمينة سر المدير العام بالرغم من كل ما قالته عن الرجل الآخر، وطبيعة علاقتها الوطيدة به التي تتجاوز العلاقة الوظيفية العادية فهي في آخر المطاف لم تهبط الدرج إلى القبو لإقامـة مأتم لعبد الدائم تحت الأرض بعد مضي ما يقرب من نصف عـام على رحيله المأساوي عن الدنيا، هناك لابد شيء آخر قد يكون

أجلـــته حـــتى تنتهي من خطبة التأبين الحزينة، وكما توقع فقد فتحت أحلام حقيبة يدها السوداء وسحبت منها مغلفا صغيرا كتب عليه أسمه الثلاثي بخط اليد، قلبته في يدها ثم وضعته أمامه على المكتب.

ـ هـــذا قـــرار تعيينك في الشركة موقع ومختوم من المدير العام، مبروك يا أستاذ عمر، أن شاء الله بالصحة وطول العمر.

لـــم يعرف كيف يعبر لها عن مشاعره التي فاضت إلى حد أنه غرق فيها فلم يتمكن من رفع رأسه ليقول كلمة واحدة، أما هي فبعد أن علقت حقيبة يدها في كتفها غادرت الحجرة دون انتظار لعبارات الشكر والامتـــنان الواجـــبة على الطرف الآخر في مثل هذه الحالة نهض هو الآخر واقفا ومد يده لوداعها بصمت، ولدى خروجها قطع عدة خطوات فـــي أثرها كالمنوم، إذا ذاك رآها في ضوء قلبه تمشى في ظل العناية الإلهية متوجه بالحنين والسمو الإنساني، امرأة للحلم فحسب حتى وهي تـــدق بكعب حذائها على البلاط، ومع ذلك فلم يستطع أن يمنع نفسه من التساؤل عن ذلك المخلوق الآدمي الذي سوف تكون من نصيبه.

وأجاب على تساؤله بمرارة من أنه في كل الأحوال لن يكون هو، عندما اختفي طيفها وهي تستدير نحو الممر العريض في الطابق الأول. رجـــع إلى مكتبه ليبكي بؤسة وإحباطاته، ولكنه بدلا من ذلك أطلق لنفسه العنان وضحك بجنون.

كـــان عـــبد الدائـــم يخـــتلس إليه النظر من تحت غلاف ملفه الأصفر، وقد تذكر أنه في يوم ما وفي ظرف مشابه ضحك هو الآخر بصوت معذب وهاهو موظف القبو الشاب يعاني من نفس المحنة.

- 4 -

لـــو أن أحـــلام لم تأت إلى مكتبه ولم يرها أبدا لما ندم على شـــيء ولظلـــت حـــياته المـــرهونة للصدف تمضي في خط سيرها المرسوم بيد القدر، والموسوم على الدوام بالفوضى والعبث من دون مـــنعطفات أو تقلـــبات مفاجئة لا طاقة لـــه على احتمالها أو الصبر علـــيها، ولكنها جاءت من آخر النفق وفي يدها قرار إقامته الجبرية بجـــوار الموتى وكأنه حكم إلهي لا يقبل النقض. لم يزد الوقت عن نصـــف ســـاعة كانت كافية لأن تسرد وهي جالسة على كرسي بلا مسند التاريخ السري لسلفه عبد الدائم، نادبة سوء حظه وتعاسته في آخر أيامه وكأنها ترثيه ويدها الرحيمة على قلبها، لا يدرى ما الذي أصـــابه لـــدى خـــروجها من عنده، ولا يدرى كيف أنه خلال أربع ســـنوات مـــن الدراسة الجامعية لم يكن يفكر بغير درجات الامتياز وأوهـــام المجد، مسابقا نفسه، فلا يرى إلا وفي يده كراسة أو مجلد بغلاف سميك منهمكا في تصفح أوراقه باستغراق ناسك في تأملاته، وكأنـــه يلـــتهم وجبة من الفطائر المغموسة في العسل، فكل معلومة جديـــدة هي بمثابة فتاة هاربة يطاردها في خياله باستماتة وإصرار، واثقا من أنه سوف يلحق بها في هذا المنعطف أو ذلك، إلى أن يضع يـــده علـــيها ممسكا بها من طرف ثوبها ثم يستحوذ عليها كلها على بعضها. كن نساء من فائض أحلامه، بأثواب يفصلها لهن على ذوقه يمشـــين بخطى حمامة ولعل هذا هو السر في تفوقه، وقد خفي أمره

حــتى على أساتذته الذي يشيرون إليه من بعيد على أنه الدماغ الذي يشــبه آلـــة ســـحرية، وقد تنبأوا لـــه بأنه سوف يصبح عما قريب أســطورة علــم الكيمياء، قالوا وأكدوا مرارا على أن اسمه الثلاثي سوف يلمح عما قريب في ضجة الانبهار بما سوف يضيفه إلى تراث البشرية في هذا العلم الذي يشبه السحر وبذلك فمن المتوقع أن يبزغ كنجم وحيد في سمائه الفسيحة.

ما كان ليجد دقيقة واحدة يفرغ فيها لنفسه، فإذا استطاع بالكاد اقتناصـــها فـــان أمـــه سرعان ما تغبطه عليها، ثم تعومه مجددا في بحـــيرة متماوجة من نصائحها اللزجة، محفزة إياه على الهرولة لأن المشي لا يحتاج إلى جهد كبير وقد يلحق به الآخرون في غفلة منه، تطـــارده بإلحـــاح في أرجاء المنزل من ظل إلى آخر، فإذا ضبطته منكـــبا على دفاتره وقد نعس من الإجهاد تهزه من كتفيه لكي يستيقظ لأن وقت النوم لم يحن بعد، مؤكدة لـــه أن الإنسان الذي يطمح إلى أن يكـــون لـــه ظل في الأرض لا يجب أن يفكر إلا بالنجاح لا يتألم ولا يشكو ولا تغريه الكراسي الواطئة، لذا فحتى وجبة الطعام ترغمه علـــى تناولها فور إنزال القدر من فوق الموقد الحجري وسكبها في الصـــحن، فالدنيا في نظرها هي هذه اللقمة من الطعام التي يتوجب عليه ابتلاعها حتى إذا كوته في حلقه ومعدته، وما كانت هذه المرآة البدوية التي تجهل فك الخط بحاجة إلى مفردات اللغة، ولا حتى لأن تفـــتح فمها لكي تحدثه بكل هذه الأشياء، إذ تكفيه إشارة أو نظرة من عينيها الذابلتين، وقد ظل شبح أمه يمشي في أثره خطوة بخطوة حتى عند مجيئه إلى طرابلس والتحاقه بالدراسة الجامعية.

وبرغم من خيبة أمله في وظيفته التافهة فقد أفاق من غيبوبته على كنوز ربة الأحلام التي هزت مشاعره وجرفته بعيدا فيما وراء تخـــوم الهذيان والبلاهة، في ضوء عينيها عاد إلى تأمل وقائع حياته مـــن أول خطوة وحتى الخطوة الطائشة التي قادته إلى القبو فأدرك بأنهـــا لـــم تكـــن ســـوى شراع من السراب يدفع بقاربه في الاتجاه المعـــاكس، أما أحلام فهي نفس المرأة الساحرة التي كان يهرب منها محتمـــيا بظهر أمه ومتخفيا في جبة من الحبر والأحماض فيما بعد، يجرجـــر أطـــرافها من حوله غير مبال بشيء سوى إشارات الإلهام التي يوظفها في تجاربه المعملية وحل مسائله الكيميائية.

لقـــد حـــان الوقت لأن يتعرف على الدنيا من حوله وأولها فك رموز الجسد المشحون بالغواية والاطلاع على أسرار القلب وتعلم لغة البرق والتواصل مع أبجدية العيون وأجراسها الصامتة وأخيرا إحلال الـــروح محـــل ملعقة الطعام، وهكذا قام برحلة في الخيال إلى قريته الغارقة في الغبار والخرافات التي يتداولها الأهالي فيما بينهم على أنها جواهـــر نـــادرة مخبأة في عباءة الأجداد العتيقة، فلم يتوقف إلا قرب النخلة التي كان يلهو في ظلها مكوما التراب في شكل سنابل من القمح إلى أن توافيه صاحبته الصغيرة التي تماثله في العمر، فتحفزه على أن يلعـــب معها لعبة الثعلب والدجاجة البيضاء لأنها واثقة من إمكانية أن تفر منه حتى آخر الدنيا فلا يستطيع اللحاق بها، إذ ذاك ينهض مسرعا مخلفـــا وراءه ســـنابل القمـــح التي من تراب لكي تقتلعها الرياح من جذورها، يجرى وراءها من جذع نخلة إلى أخرى، ومن شجرة زيتون إلـــى فضاء الحقول المفروشة بالعشب الأخضر، يود لو يطير مستميتا

في مطاردتها إلى أن تقع في قبضته، فالثعلب لا يجب أن يتراجع عن هدفـــه الذي وضعه نصب عينيه، كما أنه لا يحتمل بأن يعود أدراجه مخـــذولا، كانـــت لعـــبة بريئة كل البراءة، ولكنها مع ذلك فسرت في عرف الكبار على أنها الخطوة ما قبل الأخيرة التي إن عاجلا أو آجلا سوف تقود تلك المخلوقة الطائشة إلى الغرق في طين الفضيحة التي لا تمحى آثارها أبدا، متجاوزة للعبة الزمن والنسيان، وإذا كان هو قد نجا مـــن العقوبة بحكم قانون التفرقة الجنسية الذي يمنحه حق القنص، فإن دجاجته الصغيرة لم تستطع الإفلات.

فلقـــد تســـاقط ريشها حالما أمسك بها أبوها من شحمة أذنها بأصـــبعى كماشـــة غير مبال بزعيقها ودموعها، ثم جرها وراءه بلا رحمة في عرض للسطوة والمهانة، أصبحت القرية تضرب به المثل في كيفية الدفاع عن الشرف وحمايته. ورصد أي خطر قد يتهدده في حيـــنه حـــتى إذا تجسد في هيئة طفل أخرق وحافي القدمين، وبهذا أودعـــت دجاجـــته البيضاء سجن الأبوة، فلم يفرج عنها إلى يوم أن جاءها النصيب في ثياب راعي غنم.

ما أن عبر بتلك المحطة المهجورة التي ودع فيها طفولته فيما هـــو يتهيأ لعامه الدراسي الأول حتى غمرته كآبه تمشت في أوصاله كلفـــح البرد، وظل يحدق مشدوها في ذلك الطفل الذي كأنه وقد كبر قـــبل الأوان بجلـــده الذي دبغته الشمس وأفكاره الساذجة، فقد خضع مـــرغما لأمـــه وهي تنزع عنه ثيابه، ثم تسحبه كالحردون إلى إناء واســـع مـــن النحاس عومته فيه، مقلبة إياه على ظهره وبطنه وهي مســـتغرقة في دعك جسده الذي بلا وزن بالماء والصابون الأخضر،

كانت كما لو أنها تود سلخ جلده فلم تفلته من بين يديها إلى أن ذابت طبقة الغبار والعرق التي تغلفه كالحراشف، وبعد أن جففته ومسحت دموعه بخرقة مقطوعة من رداء قديم جاءته بملابس نظيفة ومعرقة بيضاء غمرت بها رأسه الحليق ثم بخرته، ولم تنس أن تشبك تعويذة فـــي قميصـــه عند الصدر مؤلفة من نجمة وقرن من العاج في حجم سبابة طفل رضيع، وفي النهاية أخذت يده في كفها لتقوده إلى مدرسة القـــرية التي لا تزيد عن حجرة واحدة واسعة كالاسطبل، كانت فيما مضي عنبر نوم لفرقة من الجنود الطليان معسكرة في القرية، يومئذ كما يذكر صبت أمه على رأسه وفي أذنيه من النصائح المحفوظة ما يكفي لأن يبلط بها طريقه حتى إذا قام بجولة على قدميه حول العالم.

لقـــد كرســـت تلـــك المرأة الحنون والحازمة كل أيام عمرها كأرملـــة لتربيته والعناية به، رافضة بعناد عروض الزواج المغرية وكـــان آخـــرها مـــن شيخ القرية الذي كان يود أن يكمل بها عقده الشرعي الذي يضم ثلاثة نساء، ولكن أمه التي تقيم في قلبه لم تعش طويـــلا، فقد طوت أشرعتها المهلهلة في نفس اليوم الذي انتهى فيه هو من تطريز شهادته الجامعية، ماتت بهدوء وهي نائمة في فراشها كمـــا علم فيما بعد، وبالكاد لحق بها على طريق المقبرة ليودعها بما هو أغلى من الدموع، انه لا يفهم حتى الآن لماذا عجلت بالرحيل فلم تنـــتظره إلى أن يبشرها بالامتياز كما كان يأمل ويتمنى، كان يتخيل مـــدى فرحـــتها وابتهاجها وهي تنهض على قدميها بإعياء لتطوف بدروب القرية معلنة بصوتها الرخو عودة ابنها من آخر الدنيا وبيده ورقـــة فـــي حجم الحصيرة التي كانت تفرشها لـــه لدى عودته من

المدرســـة في ظل شجرة التين التي تتوسط فناء المنزل لكي يراجع دروسه وينام ويحلم أيضا من دون أن يخرج عن محيطها الضيق إلا عـــند الضرورة القصوى وبإذن منها، ولكن ما الذي تقوله لـــه أمه فـــيما لـــو رجع لها بعد عامين من التشرد. دون أن يوفق إلى عمل يكفـــيه مصـــروفه الشخصـــي على الأقل، كم كان القدر رحيما بها فرحلـــت دون أن تعلم أن شهادته الكبيرة بخطها المذهب لن يقبل بها أحـــد في حالة ما إذا قرر مقايضتها بعلبة من الطماطم أو السردين، لأن المقايضة ليست في صالح الطرف الآخر.

كـــان يـــتجول ساهما في شوارع المدينة عندما وقعت عيناه بالصـــدفة على تلك اللافتة الضخمة التي تشير إلى هوية مبنى شبه أثـــرى كتـــب عليه: "الشركة العربية العامة لخدمات البيئة ومكافحة الـــتلوث" كـــان يعانـــي من دوار البطالة، وقد خمن بأن أنشطة هذه الشركة لا بد أنها تتلاءم مع تخصصه العلمي، وهو لا يدرى فيما إذا كان مصيبًا في رأيه هذا أم لا، يومئذ ولدى عودته إلى منزله تناول ورقـــة وقلما وشرع من فوره في تدبيج طلب توظف بخط أنيق، وقد خيل إليه وهو يكتب ويشطب أن وظيفته هذه لا تقل إثارة عن امرأة بارعـــة الجمـــال أو صـــورة مـــنها مطابقة لها ينبغي أن يتفنن في مخاطبـــتها بـــأرق وأجمل ما يمكن أن يتفتق عنه هوى رجل يعذبه الكبـــت والحرمان، وقد يكون بالغ في أوهامه هذه إلى حد أن أحلام عندما أحيل إليها الطلب لكي تعرضه بدورها على المدير العام ظنت لأول وهلة فيما هي تطالع ديباجته المنمقة أنه رسالة غرامية موجهة إليها من أحد موظفي الشركة فضل فيما يبدو التخفي في بهرجة طلب

وظيفي، مع أنه في حقيقة الأمر ينوي طلب يدها، وقد أعوزته الحيلة للحضـــور شخصـــيا إلـــى مكتبها، أو التوجه إلى منزل العائلة لهذا الغرض كما هو التقليد المتبع في مثل هذه الحالة وهناك احتمال آخر وهو أنه يود استكشاف ردة فعلها قبل الإقدام على خطوته الحاسمة.

أعادت قراءة الطلب عدة مرات إلى أن حفظته عن ظهر قلب، مندهشـــة لولع صاحبه بها، ولكل هذا الحب الدافىء الذي يفيض من وراء السطور، إنه يخاطبها بكلمات لها نعومة الحرير مدققا في كل جملـــة أو عـــبارة لكي تكون موسومة كما يجب بأشواقه المتأججة، كانـــت حائـــرة وقلقـــة في انتظار قيسها المجهول الذي وقع الرسالة باســـمه الثلاثي، ولكنه يأبى الظهور عند حافة الباب، لعله لا يرغب في الكشف عن نفسه ولكن إلى متى؟

لقـــد حفـــزها هـــذا السؤال المربك للبحث عنه وفرزه من بين عشـــرات الموظفيـــن أثناء تجوالها من يوم لآخر في أروقة وممرات الشركة بأمل أن ترى ظل تلك الرسالة منطبعاً على وجه أحدهم أو في عينيه، وعندما أصابها اليأس من العثور عليه وكأنه فأر يختبئ في أحد الأدراج لجـــأت إلـــى مـــراجعة أسماء العاملين في الشركة من خلال كشـــوف المعاشات والمكافآت المالية فلم تقع عيناها على اسم عاشقها المحـــتمل، فـــي ضوء هذه الحقيقة التي تشبه الشوكة أدركت أن ذلك المخلـــوق الغريـــب إنمـــا يتحدث عن كرسي في الشركة هو كل أمله متغزلا في طيف الوظيفة المرجوة التي غدت في عرف العاطلين عن العمـــل بمثابة حورية من حوريات الجنة يحتاج المرء لكي يحظى بها إلـــى أن يفنـــي عمره في الصلاة وذكر الله، وقد يتطلب الأمر العبور

إليها فوق جسر من الدعوات الصالحة وسحب البخور، وإبداء فروض التولـه التـي تصل إلى حد البكاء عند قدمي هذه المعبودة المتكبرة، وبرغم مرارة خيبة الأمل التي ترسبت في نفسها فقد أشفقت وهي تقلب الطلـب فـي يدها على صاحبه الذي لا بد أنه قضى عدة ليال مؤرقا وهـو يفتش في المعاجم اللغوية عن مفردات حالمة تأسر القلوب حتى هـذه التي قدت من طين أو صلصال، وبذلك فلم تستطع كبح فضولها وشـوقها لـرؤية ذلـك الإنسان النادر والتعرف عليه، وهذا ما دفعها للتدخل لدى المدير العام لترشيحه بديلا عن المرحوم عبد الدائم.

لقـد أصـبح كل همه بعد أن انتهى من كتابة الطلب بنسخته المـنقحة الإسراع بتقديمه إلى الشركة العربية العامة لخدمات البيئة ومكافحة التلوث. ففي صباح اليوم التالي نهض مع أول أنوار الفجر فـارتدى ثيابه وسرح شعره المجعد بضربات مشط لم يبق إلا القليل مـن أسـنانه، كما استعار من زميله في السكن الملقب بالصومالي لبشـرته الزيتونـية حذاءه الجديد، كانت الشمس تجهد في زحزحة سـحابة رماديـة ثقيلة جاثمة على صدرها عندما أطل على المبنى الأثـري لكنه وجد الباب مغلقا، وبذلك فقد اتجه إلى محطة للحافلات العمومـية التـي تشبه حجرة صغيرة وقبع في زاوية مقعد حجري منكمشـا علـى نفسه في معطفه الرث فلم يتحرك من مكانه إلى أن أخذت أنفاس الحياة تسرى وتموج في الشارع من خلال زعيق أبواق السـيارات وطنيـن أفواج الذباب، فيما قفز جرذ ضخم من بالوعة مفـتوحة بحـذاء الرصـيف مسرعاً نحو تل من القمامة تلوح قمته السوداء من بعيد، وما لبث نبض اليقظة أن عم كل شيء بما في ذلك

الباعة المتجولين والشحاذين الذين هم في غالبيتهم من العجائز المحجبات، عندئذ فتح باب الشركة، ومن موقعه في زاوية المحطة رأى أسراب موظفي خدمات البيئة ومكافحة التلوث يصعدون الدرج الرخامي وهم في حالة نعاس، أما هو فقد نهض واقفا بعبء احباطاته المتراكمة وخطا نحو الباب، كان من حسن حظه أن أحدا لم يعترض طريقه فقد دلف إلى ممر طويل قطعه حتى نهايته، ثم انعطف إلى حجرة جانبية مغمورة بأنفاس ودخان رجل خمسيني كان جالسا إلى مكتبه وقد عقد يديه على سطحه مطرقا برأسه وهو شبه نائم، ما لبث أن فتح عينيه مندهشا على وجه شاحب ومعطف أسود، إنه كائن بشرى يشبهه في كل شيء ولكنه لم يطرق الباب عند دخوله، وبرغم استيائه وتجهمه فقد استلم الطلب، وبعد أن تأكد من وجود طابع الدمغة في أعلاه أشر عليه بقلم أحمر وقال باقتضاب:

- المراجعة بعد أسبوعين.

لقد كانت فترة الانتظار الممل هذه كما قال لأحلام فيما بعد خارجة عن الزمن وبطيئة كما لو أنها أبدية، قضاها في النوم والتسكع على غير هدى في أزقة وحواري المدينة القديمة، أو ما تبقى منها مغمورا بالضجة وروائح الزمن الغابر عقب أن هجرها سكانها القدامى فيما يشبه الهروب الجماعي من وباء غامض، وذلك على أثر إصابتهم بدوار بريق الذهب الأسود الذي ظهرت أول مؤشراته في أواخر الخمسينات من القرن العشرين، فهللت له الصحافة المحلية على أنه نعمة من السماء قد تفوق حتى نعمة المطر وتبز كل النعم الأخرى بما في ذلك راحة الضمير والنوم من دون كوابيس، وبلغ الأمر

بإحدى الصحف الأسبوعية إلى تشبيهه بنسمة البحر التي تلطف الجو في يـوم قانط تتعرق فيه السماء فيصبح الهواء في ثقل الرصاص، انه ظل الصحراء التي ما أن انتزعت عنها عباءتها الرملية حتى أتضح أنها تخفي من تحتها كنوزا خيالية، وبمزيد من الحفر والتنقيب في باطنها بات بالإمكان الوصول إلى هذه الثروة الهائلة واستخراجها بما يفتح الباب على مصراعيه لأحلام الرفاهية والسعادة.

وكتبت صحيفة أخرى نصف شهرية عن وداعٍ الفقر إلى الأبد، ولكن أطرف ما في المسألة هو أن محررا مغموراً في إحدى الجرائد الحكومية ذكر في مقالة مدبجة بأحلام اليقظة أنه قام بجولة استكشافية في ما أسماه بجنة المستقبل الموعودة كما رآها بعين خياله وقد آب منها شبه مخدر لما تزدحم به من عجائب وأساطير، هناك حدائق معلقة في السماء وقصور من المرمر والزجاج المقصب وأرصفة من الفضة تظللها أشجار في نصاعة البلور، أما الخبز فهو ألذ وأشهى من حلوى الورد، ومع ذلك فهو يوزع بالمجان، وهناك بالإضافة إلى ذلك حشود من النساء اللاتي يرفلن ببشرة في شفافية الضوء، وفي هذه الجنة يولد الأطفال دون ألم أو تعسر على أنغام الموسيقي، وأشارت جريدة عمالية إلى أن خام الزيت الأسود سوف يغمر البلاد عما قريب كالطوفانِ ولكنه طوفان من العسل واللبن.

وهكذا هب أهالي المدينة القديمة من سبات القرون على صخب وضجة اكتشاف هذا الكنز السحري، إنها فرصتهم المواتية لأن يفكروا بروية ويخططوا لما هو آت فرحين وقلقين في وقت واحد خوفا من الوقوع في حبائل خدعة جديدة قد تكون صممت

بإحكـــام في هذه المرة لإطعامهم وجبة دسمة من الأكاذيب الرسمية والأوهـــام، وأن مـــا تقوله الصحف بنبرة مضخمة قد ينتهي بسراب أســـوأ من سراب خيبة الأمل لأنه أمر، ولذا فقد تمهلوا قليلا مدققين في التقصي والتقاط الأخبار والمعلومات المتناثرة في طريقهم وإعادة فـــرزها وتصنيفها بصبر لا ينفد إلى أن تأكدوا من عدم وجود شبهه تحـــايل أو تضليل في هذه القضية الحيوية التي سوف يتوقف عليها مصـــيرهم لعشرات إن لم يكن لمئات السنين القادمة، فلم يعد ثمة أي أثـــر للشـــك في أن الصحراء قد تمخضت أحشاؤها عن معدن سائل يشـــبه القهـــوة السوداء ولكن برائحة لا تطاق، عندها بدا كما لو أن فجرا جديدا قد أشرق عليهم بلا غيوم أو ضباب فكان أن التفتوا إلى مدينـــتهم العتيقة ليتأملوها في ضوئه الساطع وكأنهم لم يألفوها ليوم واحـــد، فما هي إلا أطلال أقيمت في حيز ضيق من الأرض بأزقتها ومســـاربها التـــي كالأمعـــاء الدقيقة. وأسوارها الكالحة، أما بيوتهم المتداعـــية فهـــي لا تحـــتاج إلا إلـــى نفخة واحدة لكي تنهار على رؤوســـهم، هواءهـــا يتماوج برائحة الرطوبة ومياه الغسيل، وهناك الجـــرذان التـــي تـــزاحمهم وتقلق راحتهم بصفيرها في آخر الليل، تـــراءت لهم كمدينة للذكري ومتحف كبير لأساطير تاريخية فحسب، وقـــد حان الوقت لأن يغادروها إلى الدنيا الواسعة، فلم يعد هناك ما يغريهم بإنجاب المزيد من الأطفال أو التفكير بغير جنة الأحلام التي بزغت شمسها من الجنوب الصحراوي.

مـــا أن ابـــتلعوا هذا الطعم اللذيذ حتى شرعوا في الاستعداد للرحـــيل علـــى وقـــع خطي تائهة وخفق قلوب يضنيها أسى الفراق

الوشـيك ولوعة الحنين، لقد كانوا على مدى الزمن أقرب إلى أسرة واحـدة كبـيرة العـدد، جذورها ممتدة ومتشابكة برغم المنازعات والخصومات التي تنشب فيما بينهم في حالة وقوع شجار عنيف بين الأطفـال، أو حيـن تنقلـب مشاحنات النسوة إلى اشتباكات بالأيدي والأسـنان، مسـبوقة بوابل من السباب والشتائم، فشرعوا في تبادل الدعوات إلى اجتماعات الوداع الحزينة،

يقول أحدهم لأصدقائه المقربين واجما: "سامحوني فقد لا نلتقي أبـدا مرة أخرى"، ثم يذرف قليلا من الدموع المالحة في كفيه وهو يطـوف بيوت الجيران معانقاً إياهم فردا فردا، راجيا الصفح من كل واحد منهم على حدة، فلا بد من نسيان الإساءة كيفما كانت والالتفات إلى أمور الحياة المستجدة فيما وراء أسوار المدينة الغارقة في ظلال الغـروب، فهـناك وعود ومسرات كثيرة على الطريق، إضافة إلى تدبـير سكن جديد والانفتاح على العالم المتحضر واستحداث عادات مهذبـة في الأكل والنوم، وحتى في أساليب المعاشرة الزوجية، كما أنـه مـن المهـم تزيين بيوتهم الجديدة ليس بالتحف فقط وإنما وهو الأكـثر إثـارة بنساء جميلات ونظيفات لا تنضح أجسادهن بروائح البصـل والـثوم وعرق القيظ في الصيف إذ يجب أن يكن متألقات ومـتوردات كما في صور النساء المطبوعات على أغلفة الصابون المعطـر، مشـرقات وفـي عيونهن الواسعة لمعة برق لا تنطفيء، مشـحونات علـى الدوام بحرارة الأنوثة المتدفقة من تحت ثيابهن، يتبخـترن فـي فساتين حريرية تشف عن أعضائهن الباذخة ولديهن القابلـية لممارسة الحب حتى في المطابخ وفي كل وقت، فتستجيب

الواحـــدة منهـــن لأفـــراح الجســـد عـــند أول إشارة من دون خجل أو تـــردد حتى إذا كانت مستغرقة في تأمل وعد النجوم، وهي تطل على السماء الفسيحة من شرفة الليل.

وهكـــذا هجروا مدينتهم التاريخية مهرولين من دون أن يثقلوا ظهورهـــم بقطع الأثاث القديم، حتى ذكرياتهم الحميمة قالوا بأنها لم تعد صالحة للتداول فعلقوها على مشجب النسيان إلى الأبد، وكل ما هنالك أنهم أغلقوا أبواب بيوتهم من ورائهم بأقل قدر من الحنين، فلا مجـــال هـــناك لمزيد من العواطف والتحدث بغير لغة العصر، فإذا كـــانوا قـــد خـــرجوا من قوقعتهم الكئيبة أحياء فهذا هو كل ما كانوا يـــرجونه، فـــلا شيء يدعوهم إلى مراجعة الماضي الذي أصبح في حكـــم العـــدم بما في ذلك قصص الحب الخجولة ونسائم البحر التي تهـــب عليهم من النوافذ في أمسيات الصيف، ومداعبات القيلولة التي تمهـــد لألعاب السرير الممتعة في أول الليل، والمهم أن يتذكروا الله ويحمدوه على سخائه في كل خطوة، فهو رب العزة الذي أنعم عليهم بهـــذه الثروة الخرافية، كما قال لهم شيخ جامع الناقة في آخر خطبة جمعة لـــه قبل أن يطوي عباءته الصوفية ويرحل هو الآخر.

لم يكن التجول في سوق الترك والشوارع المتفرعة منه حتى مـــيدان السيدة مريم العذراء. بالمغامرة المأمونة العواقب عند هبوط الظلام، فمع انطفاء الشمس تغرق المدينة في طفح حياتها السرية، في هـــياج الخفافيش وتعكر الهواء بروائح الخمور المغشوشة المصنعة محليا ودخان المخدرات الذي يتصاعد في الجو بكثافة فيصيب القطط المتشـــردة بشـــبق غريـــب، ثم في هجوم السكارى والأفاقين ورهط

الـــتجار الموبوئين الذين لا تروج بضاعتهم المحظورة إلا في دوائر ضيقة من التكتم والحذر، فهم جميعا من حثالة اللصوص والمهربين الذيـــن يحـــيون الليل لحسابهم الخاص، ما أن ينتشروا في الحواري والشوارع الشاحبة الضوء بهيئاتهم الغريبة والمثيرة للريبة حتى تلوح فـــي الأفق بوادر معركة دامية عمادها المطاوي والعصي والسلاسل ذات الـــرؤوس المدببـــة، تنشـــب عادة بسبب التنافس المحموم على اقتناص الزبائن واحتلال الأمكنة التي تسهل عليهم الهروب والاختفاء كالصراصـــير في حالة تعرضهم لمداهمات قوات الأمن، فإذا نشبت المعركة التي لا هوادة فيها فغالبا ما يتوقد جمرها ويمتد لهيبها على نطاق واسع كالحريق الذي تهوي عليه الرياح البحرية.

وبالإضـــافة إلى عصابات المخدرات والخمور الرديئة هناك بـــنات الليل الوافدات من وراء البحر، يطلن من الشرفات بنهودهن الصـــغيرة المتململة عند فتحة الصدر، وثمة أخريات بنهود ضخمة مـــترهلة لإتاحـــة المـــزيد من فرص المقارنة والاختيار، أما الحظ والرواج فانه يكون عادة من نصيب النسوة اللاتي يغامرن بالتجوال فـــي الشـــوارع المظلمـــة متهاديات في جلابيبهن الفضفاضة بشقها الطويـــل الـــذي يبدأ بفتحة عند الكعب صاعدا بشكل انسيابي إلى ما فـــوق الركـــبة فـــي عرض رخيص للأنوثة بطابعها التجاري، وبما يغـــري بملاحقتهن في الأزقة المتقاطعة حتى تخوم أسرتهن المغطاة بشراشـــيف متسخة، كانت مأدبة الحب الجسدي هذه تجرى كما هو مقـــرر لها بأمل اصطياد أي عابر سبيل يرغب في مضاجعة سريعة وبأجر معقول قبل أن يؤوب إلى منزله بوقاره المعهود قلقاً ومتوجساً

فـــيما إذا كـــان هـــناك أي أثر علق به وهو ينهض نصف عار من السرير المؤجر، فهناك احتمال أن ينكشف أمره بإزاء شكوك وريبة زوجـــته المصـــونة التي لا يمكن في كل الأحوال أن تغفر لـــه أو تتسامح معه في مسألة كهذه، فهو بالكاد ينجو من محاكمة غير عادلة يصـــدر الحكـــم فـــي جلستها الأخيرة بحرمانه من النوم في سرير الزوجية لأسابيع طويلة، وقد يتطور العقاب إلى فضيحة علنية تصر المرأة المخدوعة على إثارتها في أوساط الأقارب والجيران.

كان معظم المارة المتأخرين يسيرون في الشوارع مهرولين، وهـــم يحملون في أيديهم أكياس البقالة ملتفتين حولهم في كل خطوة كما لخوفهم من الأشباح التي تترصدهم في العتمة،

كـــان هو أحد هؤلاء المارة، يمشي هائما على وجهه بلا هدف حيـــن صـــفرت إحداهـــن قاطعة عليه شرود ذهنه وانشغاله بوظيفته المـــرجوة فـــي يومه السابع الذي ينقضي في انتظار موعد المراجعة، عندما صفرت لـــه للمرة الثانية بإلحاح تباطأ في سيره ثم التفت وراءه فـــرآها تشـــير لـــه ملوحة بيدها من موقعها في دائرة ضوء مصباح مغبش، لم يبال بها لأول وهلة وخاصة أن هذه ليست هي المرة الأولي التـــي تصـــادفه فـــيها تجربة من هذا النوع، امرأة من بائعات الهوى تعـــترض طريقه في الظلمة عارضة علية بضاعتها من اللحم الأبيض بأسلوب سوقي، كان يهم بالمضي في طريقه حين صفرت لـــه للمرة الثالثة متقدمة في اتجاهه، ولما أصبحت على بعد خطوتين منه لم يعد يشك في أنها امرأة من نفس الفصيلة المعروفة لدي كل الناس، قاطعة طـــريق تلـــتقط زبائـــنها كيفما أتفق، وجلهم من العمال والمستخدمين

الغـــرباء الذيـــن لا يدققـــون فـــي البضاعة المتاحة لهم ما دامت تفي بالغـــرض، ولكـــنهم يـــتعرقون عند فتح باب المساومة مصرين على تخفـــيض الثمن إلى النصف أو أكثر، فيتمسك كل واحد بموقفه إلى أن يـــتم الوصول إلى حل وسط يرضي الطرفين، احتوته في غمامة من عطرها الرخيص، ثم قالت ضاغطة على نبرات صوتها المهني.

- الســـاعة بثلاثيـــن دينارا والنصف بعشرين، هذا من أجلك ولأنك على ما يبدو ابن حلال.

ثم مستدركة:

- ولكنـــي أرجـــوك أن تكون طيبا معي، فأنا لا أحب بطبعي العراك والمشاكل ومراكز الشرطة ومعزوفة سين وجيم.

فكر في أنه لا مناص من أن يشتبك معها في مساومة مرهقة حين قرر فجأة مرافقتها إلى السرير متجاوزاً بذلك تحفظه وخوفه الغريزي من الأمراض التناسلية، كانت جميلة بل وفاتنة في ثوبها المخروطي المطرز بخـــيوط الفضـــة عند فتحة الصدر، بتموجاته التي تفصح عن تضاريس جســـدها الـــذي مازال في طور الغواية فتيا بنهدين منتصبين وعنق من الشمع النفقي وهالة من الشعر الأسود مسرح على كتفيها بعناية.

ســـوف يســـتغل هذه الفرصة للتعرف على المرأة فيما وراء حـــدود الشرف والعفة بخطوة واحدة لا غير، فهو لا يحتاج في هذه الحالـــة إلى الخبرة بأبجدية الغزل المعقدة، ولا إلى الخوض في طين مغامرة عاطفية تفضي به إلى مأزق الزواج الذي لم يحن أوانه بعد، وقـــد لا يحيـــن إلا بمعجزة من السماء، ولذا فقد ابتسم بإزاء الوجه

المـــزركش بـــألوان احتفالية فاقعة أشبه بألوان الطيف، وقال لها بلا مواربـــه أن كـــل ما في جيبه من نقود لا يزيد عن خمسة دينارات يتـــيمة، ومـــع ذلك فهو لن يبخل بها عليها بالرغم من أنها تضحية كبيرة لإنسان في مثل وضعه يعاني من أزمة البطالة.

ولكـــن لدهشـــته. فوجـــئ فيما هو يطرق باب المساومة بيد مرتعشـــة بالمـــرأة التي لم يتعرف على اسمها بعد توجه إليه ضربة بقبضتها على صدره مترافقة مع ضحكة رنانة:

- هـــذا المبلغ يا ولد الناس لا يساوى ثمن زجاجة عطر من النوع المقلد الذي لا يصلح إلا للكلاب.

وأضافت قائلة:

- ولا ثمن صندل للاستعمال المنزلي.

- لكني في الحقيقة لا أملك غيره، صدقيني.؟!

قال ذلك وهو يهم بالانصراف ليقينه بعدم إمكانية التوصل إلى اتفاق مرضي معها، وذلك للفرق الشاسع بينهما في لغة الأرقام، غير أنـــه مـــا أن استدار إلى الوراء حتى مدت يدها وأمسكت به من ياقة معطفه، ثم سحبته في اتجاهها.

- بالرغم من أنك مفلس فلن أدعك تهرب مني!!

أخـــذت يده وأطبقت عليها في كفها الرطبة، ولم تلبث أن جرته وراءها كالطفل الوديع وهو لا يدري إلى أين تقوده، فقد أستسلم لإرادتها مدركـــا بأنه ليس لديه ما يخسره في كل الأحوال، كانت فرصة مواتية

لأن يتعارفا بشكل أفضل وهما يخبطان بأربعة أقدام على بلاط الشارع في مدينة الأشباح التي تدثرت بثوبها المتفحم وهي تتأهب للنوم، فقدم كل واحـــد منهما نفسه للآخر من نافذة صغيرة في متاهته الذاتية، هو الذي كـــان يأمل في إقامة صرح كبير لاسمه ينتصب فوق قمته وبيده ورقته المذهبة التي تعلنه كمشروع عالم كيميائي في حاجة إلى قدر من التفهم والتشجيع لكي ينهض على قدميه ويسهم بكل طاقته في خدمة البشرية، ولكن للأسف ما أن وضع قدميه خارج أسوار الكلية حتى فوجئ إلى أي حـــد كان حالما وساذجا، لقد تصدعت خططه التي كان يعول عليها في بـــناء مستقبله وانهارت دفعة واحدة مشاريعه المتخيلة عند أول منعطف كقصـــور مـــن الرمال، فلم يعد لديه ما يفكر به سوي البحث عن عمل لتأميـــن قـــوت يومه في انتظار فرصة سانحة لاستثمار درجته العلمية المختومة بختم الامتياز، بدأ من الصفر يوم أن التحق بالعمل حارسا في عمارة عارية الجدران كان العمال يغلفونها بطبقة من الأسمنت المعجون بالماء، ولكن مالكها الذي يشبه على بابا في الحكاية المعروفة بهذا الاسم قـــال لـــه في نهاية الأسبوع الثاني من تسلمه لعمله بأنه لا يصلح لهذه المهـــنة، ثم صرفه من عنده دون أن يحاسبه على أكياس الأسمنت التي ســـرقت مـــن مخزن العمارة فيما هو يجرى تائها في سراب الأحلام المخملية، لقد اضطر حتى إلى الخوض في وحل تجارة العملة، ولكنه ما لبـــث أن هجرها إلى مغامرة أخرى حالما اكتشف أن هذه التجارة غير المشروعة تقتضي منه التفريط بأوليات قيمه الأخلاقية التي تربى عليها، وبذلـــك فقد أجر عربة يد كدس فيها ما يخطر وما لا يخطر على البال مـــن البضـــائع الاســـتهلاكية التـــي تهرب من المنافذ البرية والبحرية

بعلامات جودة وصلاحية مزيفة، كانت بضاعته من النوع الذي يغري ويحفـز النسـوة بالتحديد إلى فتح حقائبهن وتفقد محتوياتها من العملة الوطنـية يشـرعن بعدهـا في إثارة حملة مركزة من المساومة المملة ترغمه في نهاية المطاف على التخلي عن مكاسبه الضئيلة، كما أنه قلما كـان يصـمد بإزاء ابتسامة امرأة منعشة للحواس الخمس ترغمه على التنازل عن آخر درهم من الأرباح التي قد تساعد في ازدهار تجارته، ومـن ناحـية أخـرى فهو لم يستطع الصمود في وجه ما كان يعتبره منافسة غير شريفة من الآخرين.

إضافة إلى كثرة عدد الباعة وأساليبهم السمجة لجلب الزبائن، وأمـا طموحـه ومحاولاته المتكررة للالتحاق بوظيفة محترمة تليق بدرجته العلمية وكفاح السنوات الأربع في الجامعة فقد باءت جميعها بالفشل، لأنه على حد قوله لم يجد أحدا من أهل الثقة أو النفوذ يسنده ويزكيه في سوق الوظائف الرسمية.

لم ينته بعد من المرور بكل محطات الإحباط وخيبة الأمل التي عبرها الواحدة بعد الأخرى منذ مغادرته لمقاعد الدراسة حين التقطت هـي طـرف الخـيط، ثـم شرعت في غزل شبكة دقيقة من الدموع والعـثرات، فحدثـته بلا مواربة عن دوار رحلتها البحرية من مدينة طـنجة المطلـة علـى المحيط الأطلسي إلى طرابلس الغرب مودعة بصـمت ومرارة لمدينتها العتيقة التي تحولت مع مجيء المستعمرين الأوروبيين إلى سوق مشرعة الأبواب والنوافذ للغرباء والمتعة،

كانت البداية من نقطة اللاعودة حالما يفتح المرء عينيه فيجيد

نفسه معلقا بأنشوطة وبلا أمل في الخلاص فيظل متأرجحاً فيها وهو يتـنفس أبخـرة مستنقع ينضح بالعنونة من تحت سحابة من الذباب، كان من سوء طالعها أنها ولدت على حافته، وعند أول خطوة انزلقت لـتغوص فـيه حتى القاع، لم يكن هناك ما يدعو إلى الاستهجان أو الدهشـة في امتهانها لتجارة الجسد التي هي بالإضافة إلى أنها أقدم مهنة في عالم النساء فهي المهنة الوحيدة التي لا تحتاج إلى مؤهلات أو خـبرة بأي شيء فيما عدا شهادة الأنوثة، لقد وهبتها أمها سلاحها الوحيد لخوض معركة الوجود في حالة افتقارها لأية أسلحة أخرى، تشهره في الطريق العام وهي على ثقة من مفعوله الحاسم.

كـان أبوهـا وهـو عامل نظافة ينفق أكثر من نصف أجرته الأسبوعية في تحسين مزاجه الذي يأبى أن يتحسن، وما يتبقى يكرس لإعالة أسرة مكونة من خمسة أطفال برعاية أم متفانيةً، كانت بشيء مـن الحكمة والتدبير تحتال على هذا المبلغ الضئيل لإنقاذ صغارها مـن بيـن فكي الجوع الذي لا يرحم، وعندما كبروا تفرق أخواتها الذكـور متناثرين في أرجاء الدنيا، أما هي المراهقة الفاتنة والشهية كالتفاحة الناضجة فقد رغب فيها الكثيرون، ولكن من باب المصلحة المتـبادلة، فما عليها سوى أن تحدد المبلغ الذي يرضيها، لقد قاومت بعـناد في البداية بريق الذهب ومصائد الغواية المنصوبة من حولها فـي انـتظار الـرجل الموسوم بعواطف متأججة وله شهامة ونخوة فـارس يتقدم من وراء الأفق فاتحا ذراعيه ليأخذها بأعوامها السبعة عشر على جناح الحب، لقد حلمت به وانتظرته على رصيف الحنين عاما بعد آخر إلى أن أيقنت بأنه لا أمل ولا رجاء في مجيئه، إذ ذاك

لم يعد أمامها سوى المغامرة برصيدها من الجمال والأنوثة الحارة، وبـــرغم هذه التضحية الجسيمة فان تلك الجيوش الجرارة من بائعات الهـــوى الهاويات والمحترفات أفسدت كل شيء فلم يعد لهذه المهنة غـــير الشـــريفة شروط ومواصفات يعتد بها، لا شيء من ذلك مما تسبب في تفشى محنة البطالة في صفوفهن، وبذلك فقد غدت الفرص المـــتاحة شحيحة ونادرة إلى حد أن قدميها كما قالت بلسانها تصابان بالتورم وهي تسرح طوال اليوم متسكعة في الشوارع المكتظة بالناس مـــن دون أن يطلبها أحد ولو بإشارة مراوغة من بعيد، لا أحد سوى شراذم الشحاذين الذين يهرولون في أثرها ببلادة، متلمسين برموشهم حقيبتها الفارغة إلا من قلم أحمر شفاه ومرآة صغيرة ومنديل تجفف بـــه عرق التعاسة، فلا يبقي أمامها عندئذ إلا أن تلجأ بكل ثقلها من الإعياء واليأس إلى أول منضدة شاغرة في مقهى أو حانة، فلا تفكر بشيء إلا في أن تنام وهي تحتضن رأسها بين ذراعيها، غير راغبة فـــي أن تســـتيقظ حتى إذا انطبقت السماء على الأرض، ولكنها بعد ساعة أو أقل تفتح عينيها ذاهلة على يد النادل تهزها من كتفيها فيما هو يستعد للإغلاق لتأخر الوقت.

لا يـــدرى عمـــر عبد الحميد كيف تمكنت هذه المرأة المتورمة بخبرات ومكائد الحب الجسدي المأجور من أن تجرفه ورأها إلى عالم الحقائق المرعبة وأوبئة الانحطاط بكل تداعياته المحزنة، عالم ما وراء الضـــمير بكل شروره ومساوئه، لا أحد يمر به دون أن يتنشق أبخرته الســـامة، قاسمته بشيء من الكرم والشره عدة أرغفة من خبز الجور مدهونة بزبد البحر والذكريات السوداء، أنصتا بأذن معدنية واحدة إلى

ســجع الصــلوات في مدن الطيش والسفاهة، ثم أطلا من نافدة سرية علــى تلك الصحراء المترامية المسماة بالوطن الكبير الذي يسود فيه الأقوياء من نمور المال والسلطة وهم يدوسون بأعقابهم الحديدية على كل شيء يصادفهم في طريقهم كالفيلة العمياء.

تقدمــته على طريق الرياح المتقاطعة، وهو يتبعها على غير هدي، كان أول رجل بلا هوية تجلبه من الشارع إلى منزلها منذ أن وطــأت قدمها هذه المدينة المسورة بالحجارة ومصائب الزمن، غير عابئة بعواقب مثل هذا التصرف الطائش الذي قد يجر عليها متاعب كثــيرة هــي فــي غني عنها، كانا على قدر لا بأس به من التفاهم والمــودة حيــن ســبقته إلى زقاق مغلق يشبه النفق، يسوده السكون والصــمت فيما عدا مواء القطط المتشردة، كان يتأخر عنها بخطوة واحــدة عندما سحبت مفتاحا صغيرا من حقيبتها، ثم أدارته في قفل باب منزل يقع في آخر الزقاق، فتحت الباب ودعته للدخول على أن يســمي باســم الله ويقدم رجله اليمنى، وعندما أبدى دهشته لإيمانها بالخرافات، قالت لــه بصوت مرح:

- اســمع يا العمر، لا بأس على عاداتنا وتقاليدنا كيفما كانت، ثــم أكــدت لــه وهي تدلف إلى السقيفة أن الناس في كل مكان لهم نصــيبهم مــن الــبدع والطيش والعادات المتوارثة وأنفاس الماضي وتــرهاته على السواء، قدم رجله اليمني كما أوصته ولحق بها إلى الداخــل، كان المنزل لا يختلف في كثير أو قليل عن أي منزل آخر علــى امتداد شبكة العنكبوت المسماة بالمدينة القديمة إلا في اختلاط الــروائح التي تغمره، فلم تغب عن أنفه رائحة حناء ورائحة بخور

مازالــت عالقة بالجو، كما تنشق رائحة ثياب مبللة على حبل الغسيل فـــي الفناء، وكانت هناك نسمة عطر نسائي تعكرها رائحة الأحذية المصفوفة بعناية في رفوف دولاب خشبي.

قالــت كنزة كما لو أنها تخاطب نفسها بصوت لا يكاد يسمع وهي تتجه إلى حجرتها.

- الحمد لله، من حسن الحظ أنها نائمة، مسكينة ؟!

تبعها إلى حجرتها من دون أن ينبس بشيء عند العتبة نزعت صندلها، وأضافت بنبرة مشفقة:

- أعنـــي فطــيمة، هي مثل أختي الكبيرة، يوم أمس أصيبت بنزلة برد منعتها من الخروج إلى العمل.

- أرجو لها الشفاء.

قـــال ذلـــك بصوت خافت، فيما تقدمت كنزة من خوان الزينة وأشعلت بعود ثقاب الشمعدان الموضوع على حافته، بدلا من إضاءة المصباح الكهربائي. - هكذا أفضل يا العمر، ما رأيك؟

هـــز رأسه موافقا إياها بصمت، في الضوء المرتعش بظلاله الواجفـــة أدرك كم هي جميلة وأكثر إثارة برغم أوحال وآفات المهنة الموبـــوءة، وفكر وهو ينتصب بحذاء إطار الباب أن كل ما ينقصها هـــو أن تغتسل بالماء والصابون من عرق الزبائن وغبار الشوارع ودوار آخـــر الـــنهار والإنهـــاك الذي لا بد أنه يطبق على عضامها الرقـــيقة، وكما لو أنها حدست بما يدور في ذهنه فقد خلعت بحركة

مسرحية جبتها الفضفاضة، وبعد أن كومتها في يدها ألقت بها على حافة السرير، ثم تقدمت منه في ملابسها الداخلية وقالت له بابتسامة ذات مغزى بأنها لن تغيب طويلا، وبعد أن طرقت على جبينه بطرف إصبعها مداعبة إياه خرجت إلى الحمام، تمشى على رؤوس أصابعها حتى لا توقظ زميلتها النائمة في الحجرة المقابلة.

كانت حجرة كنزة كما انطبعت في ذاكرته لزمن طويل نظيفة ومرتبة بعناية، بها سرير زوجي مغطى بشرشف بلون السماء الربيعية، أما الوسائد فهي مطرزة برسوم حمامات محلقة في الجو، وعلى خوان الزينة صفت زجاجات من العطر بأحجام وتصميمات متعددة، بالإضافة إلى مستلزمات التبرج وعلبة مثبت للشعر وصندوق صغير من الصدف تحتفظ فيه كنزة بخواتمها وأقراطها، وبحذاء الباب تنتصب شماعة في هيئة شجرة معلقة في أغصانها التي كأصابع مقطوعة تشكيلة من الفساتين والتنورات والسراويل وعدة مناديل مزخرفة من النوع الذي يستعمل في غطاء الشعر، ولكن أهم ما أثار انتباهه صورة كنزة وهي مع أفراد عائلتها وهم جميعا بالزى الوطني التقليدي، قلب عينيه في الصورة بإطارها المذهب فرأى كنزة أخرى غير هذه التي قابلها في الشارع صدفة فأمسكت به من ظله، فهي تبدو في الصورة ضئيلة الحجم بشعر مشعث ووجه بلا ملامح كأنه منحوت في الطين، ومع أنها تتوسط العائلة فهي لا تكاد ترى في ثوبها الطويل بكميه الواسعين ولونه الباهت.

أحس وهو ينتظرها عند الباب بمشاعر غريبة لم يجربها من قبل في حياته، أقرب إلى مشاعر اللص الذي يغامر بالسرقة لأول

مرة في حياته مشتتاً بين حالة من تبكيت الضمير وضرورات الحياة فــلا يمــد يده إلا إلى ما هو في حاجة إليه مشفقاً على ضحيته عند اكتشاف الحادثة وفقده لبعض أشيائه الثمينة، لكنه لم يأت إلى السرقة وهــذا مــا يعزيه، فبالرغم من أن كنزة خفضت لــه في تسعيرتها المعلــنة إلى الحد الأدنى واستضافته في منزلها فانه في قرارة نفسه يــود لو أنها تعود من الحمام برأي آخر، فتشير بإصبعها إلى الباب الخارجي، ثم تقول لــه بحزم: تفضل مع السلامة " لكنه مع ذلك لم يســتطع هدهــدة جماح شهواته التي تغلي في عروقه، ولا السيطرة علــى غرائزه التي أخذت متأججة وقد اجتاحته كرياح عاصفة، لقد ســبقه خــياله إلى الوليمة الباذخة من متع الجسد شبه المجانية التي يجــرى إعدادهــا علــى شرفه، ولذا فإن كل ما يتمناه هو ألا يغص بنكهتها اللذيذة.

لــم تــتأخر كنزة في الحمام بأكثر من الوقت الذي قدره لها، عــادت ولكن في هيئة أخرى خارجة من تحت الماء دافئة ومعطرة، فلــم يــبق مــن تلك المرأة المحترفة للرذيلة سوى ابتسامتها المهنية المطــبوعة على وجهها بما يشبه ابتسامة تمثال من الشمع، فيما عدا ذلــك فقد أمحى كل أثر يدل على شخصيتها كبائعة هوى تخرج كل صباح لتسويق جسدها بالجملة والقطاعي، استعادت وجهها الطفولى الذي تخفيه تحت طبقة من الأصباغ في شكل قناع، كان شعرها الذي كأنه من حرير طبيعي بلونه الكستنائي ينهمر على كتفيها في فوضى مثيرة، في عينيها التماعة فرح مما يوحي بأنها تمكنت من استرجاع زمن البراءة، يوم أن كانت تنظر إلى الدنيا من حولها على أنها كعكة

معجونة بالسكر قبل أن تكتشف أنها في حقيقة الأمر كعكة من حجر الصوان، قبل أن تتلوث بفيض الشهوات الطائشة وأوحال رأس المال الذي هو مصيدة للفقراء من أمثالها، كان نهداها الصغيرين المتوثبين يرفان بحب الحياة بالرغم من أنها حياة آثمة وبغيضة، حتى يبدو من الصـــعب التصديق بأن هذه المخلوقة العذبة هي نفسها المرأة العابثة التـــي كانـــت مـــنذ قليل تراوغ في زاوية الشارع لاقتناص رجل ما تســـتدرجه إلى سريرها لاعنة اليوم الذي ولدت فيه لأن الزبون ليس على ما يرام، فقد يكون مخموراً حتى العمى، يخطئ في تلمس الباب الـــذي يقاربهـــا مـــن خلالـــه فيلجها كيفما أتفق، أو يكون من رهط الحشاشـــين المدمنين فلا يتورع عن أن يمسك بجديلة شعرها ويلفها علـــى يده ليريها النجوم في عز الظهر، وأسوأ من ذلك حين تقع في شباك رجل نصف مجنون، يبدو كما لو أنه استرد عقله للحظات حين يهـــز رأســـه بالموافقة على تسعيرتها الباهظة من دون تعويمها في مســـاومة مرهقة، لكنه ما أن ينفرد بها في غرفة مغلقة حتى لا يعود يري فيها سوى فطيرة من اللحم المقدد تضخمت عند قليها في الزيت إلـــى حد أنها أصبحت تشبه امرأة برأس وقدمين وأسنان من اللؤلؤ، يندفع نحوها بوحشية كالثور الهائج من حيث لا تدري لالتهامها على عجل من دون شوكة أو سكين، أو يمزقها إلى قطع صغيرة بأصابعه المتسخة، لقد استفادت كما قالت لـــه في افتتاحية الطريق من كل هذه المواقـــف والـــتجارب المريـــرة، فهـــي على الدوام في حالة تأهب لمواجهـــة الخصم بسلاح الأظافر والأسنان عند أول بادرة اعتداء أو تحـــرش قـــد تـــتعرض لهـــا، كما أنها اكتسبت بمرور الزمن خبرة

بالـــرجال ومعادنهم فلا تنقاد لأحد عند أول أشارة، إذ يجب أن تتأكد أولا أن الزبون في حالة توازن نفسي وعصبي لا يعاني من خلل في قواه العقلية، أنفاسه نظيفة من رائحة الكحول، وليس في حالة ذهول بتأثـــير جـــرعة حشيش إضافية، يلاحق النجوم في السماء وقد قرر الصعود إليها ممتطيا ظهرها وهو يمسك بلجامها من الخلف كالدابة، كما أنها لا تشرع أبواب جسدها لأي مخلوق كائنا من كان إلا بعد أن تستسلم أجرتها في كفها عدا ونقدا، ثم تدسها في حقيبة يدها مطمئنة إلى أنها لا تنقص درهما واحدا.

عندما قعدت إلى خوان الزينة في غلالة حمراء متأملة وجهها فـــي المـــرآة من دون أصباغ وفرحة بنفسها كما تشي بذلك ابتسامة عينـــيها رأت زبونها الشاب في المرآة وهو مازال مسمراً في مكانه كما لو أنه ينتظر الحافلة في محطة عمومية دون أن يجلس أو ينزع معطفه الأسود على الأقل فالتفتت إليه مندهشة.

- إذا كنت يا العمر ترغب في أن ننام واقفين فهذا أفضل في كل الأحوال.

ثم وكما لو أنها تذكرت متأخرة واجب الضيافة تابعت قائلة:

- ما رأيك في وجبة عشاء خفيفة، بيض مقلي أو ما شابه؟!

وضع عمر عبد الحميد يده على صدره، ثم خبط عليه بامتنان:

- الحمد لله لا داعي لذلك. فأنا لا أتعشى في الغالب.

إنـــه أول رجـــل فـــي حياتها المهنية تقرر برضاها إطعامه من

جسـدها بـأقل مـن ربع الثمن المقرر دون أن تفهم دوافعها لمثل هذا التصرف الأحمق، وما هو أكثر حماقة استضافته في سريرها الخاص. فلو أنها رويت لزميلتها فطيمة تفاصيل مغامرتها هذه الموسومة بالطيش والـبلاهة، أو أنها علمت بها بطريقة ما فسوف تقرعها بلا رحمة، وقد تشـتط أكـثر مـن ذلـك فتصفعها على وجهها متهمة إياها بالرعونة والإخـلال بقواعد الانضباط المهني، فما جدوى مرافقتها لرجل مفلس كـان يجـب أن تدير لـه ظهرها بالعرض، وهي بالطبع مصيبة في وجهة نظرها هذه بحكم أنها تكبرها في العمر، ثم هي أكثر منها خبرة بالـرجال وطـبائعهم ونزواتهم وقد تعلمت على يديها أول دروسها في الغواية وكيفية جر الرجل من أرنبة أنفه إن لم يكن من ياقة قميصه أو ربطة عنقه وهو شبه منوم، حتى إذا كان واحدا من هؤلاء الذين يدعون الوقـار والتزمت الأخلاقي، فلا بد من كسر شوكته وإغرائه بالنوم في فراش الريش والأكل من التفاحة المحرمة، أو جلبه إلى الفخ على مهل وبتدريج بطيء وكأنه هو الذي اعتزم ولوجه بإرادته الحرة، هذا أولا، وثانيا فقد أفهمتها وهي تخطو أول خطواتها على مسرح المجون ألا تثق بـأي مخلوق من جنس الثعالب كما يحلولها أن تسمي الرجال الذين هم جمـيعا في رأيها من السفلة والخنازير، عديمو المروءة والأمانة بحيث أنهـم قلما يلتزمون بنص الاتفاق مصرين على دفع نصف الأجرة وهم يزررون سراويلهم. بحجة أنها باردة كالجثة.

وبيـنما هي تسرح شعرها الطويل بشرود قلقة ونادمة لسوء تصرفها الذي يتنافى مع العقل السليم، مصرة على عدم تكراره، ظل عمر عبد الحميد تائها عن نفسه، غير واع بما يتوجب عليه عمله في

اللحظـــة التالية، ولذا فقد غمرته كنزة بمزيد من الدهشة متعجبة من جلوســـه علـــى كرســـي بحذاء السرير ويداه على ركبتيه في وضع التلميذ المهذب الذي يرهب معلمه الصارم، مقارنة بزبائنها الآخرين الذيـــن يتعاملون معها بقوانين وطقوس حيوانات الغابة، إنه كما يبدو من مظهره وسلوكه إجمالا زبون خام، أو لعله يتظاهر بذلك لأمر في نفســـه، ومـــع كل هذا فلا مناص من أن تتعهده بحنانها وخبرتها في فـــنون التهـــتك ما دامت تثق به، أشارت لــــه بيدها بأن ينزع ثيابه فأطاعها صامتا، وحين شرع بفك أزرار قميصه سألته ضاحكة:

- ما رأيك في أن نبدأ بالصيني، فهو من المقبلات الضرورية، ثـــم إن لــــه مذاق البط المتبل بشكل جيد، أو على الأقل هذا ما يقوله بعض الزبائن الذين جربوه على يدي تذوقه وسوف تري.

وانتهت إلى القول وهي تحبس ضحكة مجلجلة:

- أمـــا إذا كنت تفضله على الطريقة العربية القديمة فان ذلك قد يحتاج إلى وقت طويل كما أنه متعب إلى حد كبير.

مـــرة أخرى ظن بأنها تتحدث عن الطعام، فوضع يده مجددا على صدره وقال:

- لا لزوم لهذا الآن.

بهذه الإجابة الساذجة والبريئة لم تعد تشك في أنه كما حدست لأول وهلـــة زبـــون مبـــتدئ يفـــتقر إلى أبسط قواعد ومصطلحات العلاقـــات الجســـدية، وبذلـــك فقد نهضت واقفة وأخذت بيده إلى أن

أجلســـته علـــى حافة السرير ثم قلبته على ظهره وشرعت في تلقينه بمهـــارة الدرس الأول في مقاربة الطرف الآخر، ولكن هذا الوضع غير السوي ما لبث أن تغير حالما استدعى التلميذ الخجول شياطينه الـــنائمة التي كما يبدو لم تشأ أن تخذله. فهرولت على الفور لنجدته، ومـــا أن اجتمعت من حوله مهللة ومشجعة حتى انتبه هو إلى الجسد الـــرائع الذي بين يديه، وقد أهاجته نعومته وعطوره فلم يجد أفضل مـــن فك رموزه بنفس أسلوبه الناجح في تحليله لمعادلاته الكيميائية مجدا ومثابرا فلا تخمد همته بالرغم مما يلحقه من التعب والإنهاك، وهكذا تحول فجأة إلى محارب بدوي أفلتت ناقته في صحراء الأوهام وهـــا هو مضطر لأن يفتش عنها في متاهة الرمال المتحركة، كنزة هـــي ناقته الضائعة، ومن المهم الآن أن يمسك بزمامها جيدا، وبذلك فمـــا أن أطلـــق أول صيحاته الصامتة، ثم طعنها برأس حربته حتى أحست بأن السرير يدور بها وأن العالم كله قد فقد رشده واتزانه، فلم يعـــد هـــناك ليل ونهار وقمر أحمر وبحر يتنهد ويوم للضحك وآخر للبكاء، وإنما هناك شمس فاضحة قد تكون أشرقت من زاوية السقف، أو مـــن تحـــت السرير تلفحها حرارتها في أنفاس هذا البدوي وفي دوامـــة شبقه، فما كانت تدري أن شفق البراءة الذي رأته في عيني زبونـهـــا وهو يساومها على الأجرة في ضوء الشارع الشاحب يمكن أن يخفي وراءه هذا الإعصار الرهيب الذي رفعها من فوق السرير كالريشة في تيار من الهواء، ومع ذلك فقد ظلت على تحفظها المهني حائـــرة بين أن تلحق برفيقها سباحة إلى الضفة الأخرى من الجنون، أم تـــبقى علـــى حـــيادها كمـــا هو الأمر مع غيره من الزبائن حتى لا تغريهم بالمزيد فيما هم يبحرون في محيطها لاهثين ومتعرقين في حالة ما إذا أرخت لهم العنان كما يرغبون.

ولكن الوقت فيما يبدو لم يتسع لها لأن تقرر بعقلها إلى أين تتجه، ومـــا هو التصرف اللائق في مثل هذه الوضعية المربكة، فلم تعد هناك فرصـــة للتفكـــير بعـــد أن جرفتها رياح الصحراء كالحصاة، وكل ما اســتطاعته هــو أنهـــا اســتنجدت بروح أمها المتوفاة وبكل الأولياء الصالحين، وعضت على الشرشف وقد جمعت أطرافه بين أسنانها، لقد طبخــت في مرق اللذة المحمومة، وأروع من ذلك أن جسدها عاد فتيا وطاغيا كما عهدته وهي في عمر المراهقة، قبل أن تتلقفه كلاب السوق.

- يا سيدى عبد القادر.

كان آخرهم، وهو الولي ذاته الذي كانت أمها توقد الشموع في فــتحة ضــريحه آملة بأن يكون واسطتها إلى الله لهداية زوجها إلى الصــواب، تذكــرته وهي في الرمق الأخير، ولكنها ما أن استردت أنفاســها حتى انحدرت متدحرجة في سفح من الرمال الناعمة، غير عابئة بشيء ولا حتى أن توقظ فطيمة المريضة بصيحاتها المكتومة متشبثة بذراعي بحارها كما لخوفها من الغرق في أمواجه الصاخبة، قد يكون هو بذاته الرجل الذي طالما حلمت به وهي تتقلب كالسمكة بين الأيدي المتعرقة، بدا لها واثقا من نفسه بعكس ما كانت تفكر به وهــي تترصد خطواته التائهة في الظلام، ثم إعلانه عن إفلاسه بلا مواربة برغم إحساسها الذي لا يكذب بأنه في حاجة إلى امرأة كيفما كانـــت، بالكـــاد وصله صوتها الباكي، كانت عيناها مندتين بالدموع حين همست في أذنه بنفس متقطع بأنه يمكن أن يبقى حتى الصباح، أو إلى الأبد إذا كان يرغب في ذلك.

- 5 -

الزمــن ذاتــه وكأنه يدور حول نفسه في دوامة لا تنتهي، كان الوقت حوالي الساعة الثامنة والنصف صباحاً، وفيما كان يحتسي قهوته التي جاءه بها مسعود النقاز مهرولا في فنجان من الخزف الصيني عليه رسم وردة، متلذذا بطعم ماء الزهر على لسانه جمح به خياله فيما وراء الملفات المغبرة، فرأي نفسه مجددا ينهض من فراش كنزة التي أمتعته إلى حد التخمة بكل عضو من جسدها الجميل وكأنه الرجل الأول الذي يعــبر بجــنانها الوارفة. محمولا على أجنحة الملائكة، فلم تبخل عليه بشيء من فاكهتها وزهورها، كانت رقيقة وسخية معه، وأكثر من ذلك فقد بذلت كل ما تستطيعه لإسعاده، وفي نهاية الأمر فقد أبت أن تتقاضى درهمــا واحــدا فتنازلت لــه عن حقوقها في ديناراته الخمسة المتفق عليها، ثم أشارت بيدها إشارة غامضة وهي تبتسم قائلة:

- يكفي ما أخذته من هذا العضو المحترم.

وبعــد أن قعــدت علــى ركبتيه قالت لــه أن بيتها سوف يظل مفتوحا في وجهه ليطرقه متى يشاء وفي أي وقت بشرط واحد، وهو أن يكــون ذلــك بعــد أذان المغرب، أي حالما تنتهي من كنس الشوارع والأزقــة مــتفقدة المارة واحدا واحدا بأمل ألا يكون حظها بلون شعر رأسها فتعثر على زبون يده دافئة تختم به يوم عملها الشاق، يكون على قــدر مــن سعة الصدر فلا يوجع قلبها بالمساومة التي عادة ما تفقدها صوابها. كان يفكر بكنزة منصتا في نفس الوقت وبأذن واحدة إلى ثرثرة

القهوجـــي وهـــو يروي لــــه بأسلوبه المسرحي آخر ما تجمع لديه من أخبار وأسرار وشطحات موظفات الشركة العازبات اللاتي من المحتمل علـــى حد قوله أن يشخن في مكاتبهن وهن مازلن مسمرات إلى محطة الــزواج المهجورة، ولكنه ما لبث أن استدار بلسانه الخشن إلى المدير العــام وكأنـــه يــراه واقفــا عــند إطار الباب بزيه الاحتفالي وعينيه المشحونتين ببريق السلطة، مزهوا بسترتها المنشاة التي يضعها بشيء من الإهمال على كتفيه كما لو أنه بذلك يدلل على زهده فيها، أشار إليه بإيمـــاءة من رأسه وقال بأنه ذلك العجل السكير يفكر في ابتياع مزرعة في ضواحي المدينة قد تكلفه ستة أصفار إلى جانب الرقم واحد.

- مليون من الدينارات يا أستاذ، العاطى حي؟!

ثم تنهد بحرقة وهو يلتقط صينية القهوة من فوق المكتب.

- وزيـــادة علـــى ذلك، فقد سمعت والله أعلم بأنه سوف يبدأ قريبا في بناء قصر على الشاطئ لزوجته الثالثة التي ما زالت حتى الآن في علم الغيب.

ظل القهوجي يهذي بهذه الأقاويل التي بلا ضفاف وكأنه يذكر نفســـه بهــا ويرتـــبها في ذهنه بحسب أولويتها وأهميتها. استعدادا لتوزيعها على موظفي الشركة من الجنسين منقوعة في فناجين القهوة أو طافـــية مـــع أوراق النعناع في أقداح من الشاي، وأحيانا يضخها دفعـــة واحدة كوابل من المطر، على أن يعود إليها بمزيد من الشرح والتفصيل فيما بعد، ولكن عمر عبد الحميد قاطعه بقوله:

- العاطـــي حي كما قلت بالضبط يا مسعود، ولكن أليس من المفروض أن يكون لنا نحن أيضا نصيب في هذه النعم.

حدق مسعود النقاز في الوجه الشاحب وقال متعجبا:

ـ أي نصـــيب يا أستاذ؟ أنت تحلم، المدير العام يتصرف في الشـــركة وكأنه ورثها عن أبيه، والا مدير كيف؟ نساء وفلوس وفي كل يوم بذله جديدة وأشياء أخري.

كـــان ينتظر أن تهل عليه أحلام في أية لحظة، وهو لا يدري مـــن أين جاءه هذا اليقين بأنها لن تخذله، ولذا فقد قطع حبل حكايات القهوجي بضربة قاطعة من لسانه. قال له:

ـ خليها على الله يا عم مسعود.

كان مصيبًا في توقعاته، فما أن انصرف مسعود النقاز مسرعًا في القبو بصينية القهوة حتى جاءت بعده بدقائق قليلة مخبطة بحذائها ذي الكعب العالي على الدرج، معلنة عن حضورها المبهج بخطواتها المـــرحة، مـــتوردة ومخضـــبة ببهاراتها الطبيعية وبدفئها ونعومتها وكأنهـــا حمامة في اليد، وكما وعدته منذ يومين فقد أحضرت معها المائـــة وخمســـين ورقة من مذكرات المرحوم عبد الدائم التي تتميز صـــفحاتها بشـــعار الشـــركة العامة لخدمات البيئة ومكافحة التلوث محشوة في مغلف سميك ،ألقت به على سطح المكتب وقالت مبتسمة:

ـ يمكـــنك أن تضيع فيها من الوقت ما تشاء، ولكني أشك في أنك سوف تفهم كلمة واحدة من سطورها التي تشبه خطوط النمل.

تـــناول المغلـــف بيـــن يديـــه، ثم سحب منه رزمة الأوراق الضخمة، وبعد أن فرها بأصابعه دمدم قائلا:

- بالعكس يا أحلام، ليس هناك مشكلة حتى إذا كانت مكتوبة بالحبر السري.

ومـــع أنهـــا لـــم تـــدرك معنـــي ملاحظته الأخيرة هذه فلم تبال. باستيضـــاحها، وكل ما هنالك أنها تمنت لـــه التوفيق في لعبته التي لا جدوى مـــنها بحســـب رأيها، وبرغم إلحاحه في أن تنتظر قليلا ريثما يعود القهوجي فيأمر لها بقدح من الشاي فقد استدارت نحو الباب، ثم توقفت عند حافته وقالت:

- العمـــل يـــا عمـــر، هـــذه الشركة مثل مستشفي المجانيين ومشاكلها لا تنتهي أبدا. ؟!

- كان الله في عونك يا أحلام.

كانـــت مـــتعجلة، بينما هو يود لو أنها لا تغيب عن عينيه أبدا قانعـــا بـــتأملها من وراء مكتبه بسمو روحي وكأنه في حضرة ملاك، لا يطمـــع فـــي شيء أكثر من ذلك، فقط أن يمتع عينيه لبعض الوقت مدققـــا في هذه اللوحة الآدمية بزخارفها وخطوطها وتكوينها الساطع، فـــي مدي ملاءمة لون الفستان للون عينيها، في صفاء بشرتها وحركة يديهـــا وبـــراءة ابتسامتها وارتباكها الفطري وهي تحمل على قدميها جســـدها الســـاحر، مدركة بطريقة ما لما قد تسببه من اضطراب في الـــدورة الدموية لأي مخلوق تمر به أو تتوقف أمامه، غادرته مسرعة فلـــم تترك وراءها شيئا سوي رائحة عطرها الربيعي عابقة في الجو بالقدر الذي أنعش حواسه وحفزه للعمل، ولكن المشكلة دائما في أنه لا يعرف من أين يبدأ، ومع ذلك فلا بأس، إذ يكفيه إحساسه المتنامي بأن وظيفـــته الأسمية التي علقت بها قدماه كما لو أنها من طين لزج تشي

بأفراح ومسرات شرعت رياحها الطيبة تهب عليه من يوم لآخر ليس فقــط لشــحنه بما يحتاجه من طاقة للبقاء على قيد الحياة حتى موعد الانصــراف، بل إنها توحي باحتمال أن تصبح زنزانته الصامتة هذه أقــرب إلى جنة موعودة يغبطه عليها أولئك الموظفون الكسالى الذي يحظــون بامتــيازات ضوء الشمس والهواء الصحي والتأرجح طوال ساعات الدوام الرسمي متعلقين بحبال الإشاعات والنميمة كآخر عقار مجاني توصلوا إليه حتى الآن في مكافحة أمراض الرتابة والملل.

اكتشــف وهو يسمي باسم الله أن أحلام صائبة فيما قالته عن اضــطراب خــط عبد الدائم وتشوشه، فما أن تصفح الأوراق بنظرة ســريعة حــتى تعثرت عيناه في كتابات ذاهلة تشبه خطوط الأطفال الذيــن مازالوا يتعاملون مع اللغة على أنها لعبة مسلية، لا تقل إثارة عن قوارب من الورق تجري في الماء أو قطرات من المطر تتساقط مــن سحابة مرسومة بقلم أزرق في كراسة الرسم، فلا يهم أن تتناثر كلما تهم في شكل حبات من الحصى، أو تتداخل في شبكة من خيوط العنكبوت، حتى أنه وجد صعوبة بالغة في تهجئه العنوان الذي كتبه المــرحوم عــبد الدائم في الصفحة الأولي مع أن الرجل أعاد كتابته ثــلاث مــرات فــي محاولة جادة فيما يبدو لأن يكتبه بخط واضح ومقــروء، ولذا فلم يجد بدا من اللجوء إلى طريقته الناجحة في فكه لــرموز مسائلة الكيميائية بإعادة الأشياء إلى عناصرها الأولية، وبما أن الجمل تتكرر بنصها فقد قام بتجزئة الجملة الواحدة وفصل الكلمات عــن بعضــها البعض وإعادة كتابتها بخط يده وبذلك تمكن من قراءة عــنوان المخطــوط وهــو:!! "زوبعة في فنجان"، لقد أدرك أنه بهذه

المنهجية برغم بطئها يستطيع المضي في تحليل المعاني بمتعة ذهنية لا تقل إثارة للفضول عن مراقبة تفاعل الأحماض في دورق مغلق.

إنه الآن يتأهب لهذه اللعبة الطريفة التي لا يشاركه فيها أحد، ولكنها بالغة التشويق، وجديرة من ناحية أخرى بأن ينفق فيها جزءا من وقته الضائع، متلهفا إلى معرفة ما يود المرحوم عبد الدائم قوله في أوراقه المتراكمة التي كما يبدو فقد نحت كل كلمة فيها بنفس لاهث.

لابد أنه كان يتربع على الأرض أو يتمدد في فراشه أو ينهض لكي يلوذ بمنضدته المعدنية لكي يسود هذا الكم الهائل من الأفكار والهواجس برغم المرض وعزلته عن الدنيا وما قد يصاحب ذلك من شرود وكآبة، وإذا صحّ ما قاله له مسعود النقاز من أن عبد الدائم أصيب في أيامه الأخيرة بلوثة عقلية أعادته إلى طفولته، ففي هذه الحالة فانه لا يمكن لأحد أن يتخيل ما يدور برأس مخلوق يرقص على قدم واحدة وهو يري العالم من حوله موشكا على الغرق كقارب في عرض البحر تتقاذفه أمواج صاخبة، ما الذي يمكن أن يقوله موظف عادي فضل الهروب إلى قبو تحت الأرض للاحتماء به من آفات الحياة والأطماع التافه والمكائد التي تحاك في الخفاء وضجة صراع الديكة التي تتقاتل للفوز بحبة قمح، وكل ذلك بالطبع لا يؤهله لأن يرتدي جبة حكيم أو واعظ في عالم يغص بالسماسرة والأفاقين ودراويش النفط والمضاربين بضمائرهم في السوق السوداء، ثم لمن يسوق نكباته المريرة وتجاربه المؤلمة في وقت لم يعد فيه الناس يكترثون بشيء فيما عدا الإنصات إلى نغمات أهوائهم الفاسدة تعزفها الرياح المغبرة منذ الصباح وحتى ساعة متأخرة من الليل.

لم يكن في نيته الإساءة إلى رجل ميت أو الاستخفاف به، ومع ذلـــك وكمـــا لو أن عبد الدائم اطلع على ما يدور بذهن خليفته على كرسي خيبة الأمل فقال محتجا ومؤنبا:

- حقــيقة أن مصـــيبتنا في هذه البلاد هي في أننا نحكم على الأشياء من دون روية أو تمهل هكذا خبط عشواء، اقرأ المخطوط أو لا وبعدها يمكنك الحكم عليه فيما إذا كان مجدياً أم لا، ثم أن الحكمة يا أستاذ لم تكن في يوم من الأيام حكراً على أحد.

ومـــع أنه هذه هي المرة الثانية في تاريخ حياته في القبو التي يســـمع فـــيها صوتاً آدميًا ينبجس من الفراغ فانه لا يستطيع بعد أن يصدق بحقيقة أن صاحبه ينتمي إلى عالم الفناء، ولكن لا مفر من أن يـــتعامل مـــع هذه الظاهرة كشيء مألوف وعادي، فلا مجال لإبداء المـــزيد مـــن الدهشة والتعجب، لقد تعلم من أهل قريته أن المرء لا يجـــب أن يذكـــر الأموات إلا بخير والترحم عليهم والإشادة بمناقبهم الفاضـــلة فـــي الدنـــيا حتى إذا كانوا من فصيلة البشر الذين يحيون ويموتـــون ولـــيس مـــن شأنهم إلا التأمل في صورهم طوال الوقت معجبيـــن بأنفسهم وكأن الله لم يخلق غيرهم. يتسمون بالأنانية وحب الـــذات فحسب، ولكن مهما كان الأمر فإن المدعو عبد الدائم لم يسئ إليه في شيء، بل إنه مدين لـــه بأفضال كثيرة، أولها أنه برحيله إلى الآخـــرة مهد لـــه الطريق إلى القبو، فعبر من خلاله إلى عالم أحلام الفســـيح الـــذي فـــتح أمامه ببطء، ولكن بأمل أن يراه مشرعا على مصراعيه في وقت قريب، كما أنه أسدى لـــه خدمة كبيرة بأن أورثه مخطوطـــه ولـــو عن غير قصد، فصرفه بذلك عن التفكير بالموت

والعــدم، أو الاســتغراق في همومه الشخصية والتأمل في مصيره الكــالح وهــو يدلــف إلى نفق وظيفته التي لا رجاء فيها، واجترار المــرارة والــندم على الزمن الذي قضاه مسمراً إلى مقاعد الدراسة مجهــدا لنــيل درجة الامتياز في الكيمياء الحيوية إلى حد أنه أصبح جلــدا على عظم كما وصفته أمه في آخر زيارة لقريته قبل رحيلها إلــى الــدار الآخرة بأسابيع قليلة، يومئذ قرعته بلا هوادة لأنه يهمل صحته التي هي كل رأس ماله، وعندما اشتكي لها من رداءة الطعام فــي بيت الطلبة ضاعفت لــه من مصروفه الشخصي بعد أن باعت قطعة الأرض التي ورثتها من ضمن تركة الزوج الراحل لكي ينفق مــنه على نفسه ملحة في أن يعتني بطعامه، ثم أوصته بأن يشتري معطفا جديدا بدلا من معطفه الأسود الذي اهترأ على ظهره.

ومــع عدم يقينه بحقيقة صوت عبد الدائم برغم نبراته الآدمية فقــد انتصب واقفا على قدميه وألقي نظرة خاطفة على القبو حتى لا يســمعه أحد وهو يخاطب رجلا ميتا أو لا أحد بالأصح، لم يكن ثمة صــوت فيما عدا صفير الفئران، وبهذا عاد مطمئنا إلى مكتبه، وبعد أن جلس عقد يديه على سطحه ودمدم معتذرا:

- في الحقيقة لم يكن في نيتي ..

ولكنه فوجئ بعبد الدائم يقاطعه بسخط:

- يكفــي ما عانيته من جحود وظلم في الدنيا، إذا لم تعجبك أفكــاري فلــيس أســهل مــن أن تمزق الأوراق وتلقي بها في سلة المهملات وبذلك تريح نفسك وتريحني في آن واحد.

ثم أضاف بجهد ومشقة:

- لقد كتبتها لنفسي حتى لا أجن من الوحدة والفراغ، قد تكون هذيـــان رجل مريض بالفعل، ولكن لعلمك فأنا لم أكن أرغب في أن يقرأها أحد فيما عدا أحلام لأنها مثل ابنتي.

وبعد برهة من الصمت بدا خلالها وكأنه يلتقط أنفاسه:

- كان بودي أن نكون زملاء نقطع الوقت في الثرثرة ولعب الـــورق إلـــى أن يحين موعد يوم الحساب، ولكن يخيل إلى أننا لن نتفاهم مادمت أنت مازلت مقيما في الدنيا.

- هل تعني بأنني يجب أن ألحق بك في الدار الآخرة؟

ولكـــن عبد الدائم لم يجب على سؤاله، انتظره للحظات وهو يديـــر رأسه في زوايا الحجرة، وظل متجمدا في مكانه إلى أن خيل إلـــيه أنـــه يسمع صوت خطوات سلفه الراحل وهو يمشي بخفة فلا يلمـــس الأرضي بقدميه، نهض للحاق به، وعند عتبة الحجرة صاح في أثره بصوت مكتوم:

- دقيقة من فضلك يا أستاذ.

عـــندئذ وفيما هو يستدير إلى الداخل فوجئ بضحكة مجلجلة لا يمكن في كل الأحوال أن تنسب إلى رجل مريض كان يعاني كما قالت لـــه أحلام من ضيق في التنفس، كان يضطر عندما تسوء حالته بأكثر مـــن قدرتـــه على التحمل إلى أن ينهض من فراشه في أي ساعة من ســـاعات اللـــيل مترنحا في أثر نسمة هواء هاربة، وعندما يعجز عن

اقتناصها في القبو يصعد الدرج لاهثا إلى الطابق الأول فيفتح مصاريع النوافذ جميعها في جلبة واضطراب، ثم يتركها مشرعة وهو يؤوب إلى فراشه، فما كان ليعبأ أو يكترث بأولئك الموظفين الذين غالبا ما يتفاجأون بنوافذ مكاتبهم مفتوحة لدي حضورهم إلى مبني الشركة في الصباح حتى إذا كان الجو عاصفا، فما تلبث الرياح أن تعبث بالأوراق والملفات التي تطير في كل اتجاه مختلطة ببعضها البعض في فوضى عجيبة، وأما الحارس الليلي للشركة الذي لم يعرف أبدا بوجود عبد الدائم في القبو فقد كان يهب من نومه مذعوراً وفزعا من أصوات الأقدام التي تخبط على السقف من فوق رأسه في هداة الليل مترافقة مع ضجة مصاريع النوافذ بصريرها الذي يتضخم في الصمت كعواء الذئاب، لكنه لم يجرؤ أبدا على الخروج من غرفته للتحقق مما يجري، كان الذعر يشله، وقد بات لا يشك في أن هذه الضجة ناشئة عن عصبة من أطفال الجن الذين لا يروق لهم اللعب واللهو إلا في آخر الليل، وأحيانا في أوله متسابقين بطول الممر وعرضه لأن آباءهم لابد أن يكونوا أعقل من أن يتصرفوا بهذه الهمجية، لم يقل الحارس الكهل رأيه هذا لأحد فيما عدا موظف الاستعلامات الذي وافقه عليه، وعندما لم يعد باستطاعته تحمل وطأة السهر والرعب طوال الليل تقدم بالتماس نقله للحراسة الليلية بمخازن الشركة.

وعلى الرغم من تفاقم مرضه فقد رفض الانتقال إلى مستشفى الأمراض الصدرية وكما قال لأحلام فإنه لن يغادر القبو إلا على حمالة في رحلة اللاعودة، حتى أنها استعانت بالقهوجي لإقناعه ولكن بلا جدوى، وبذلك فقد اضطرت إلى أن تجيئه بطبيب بواسطة

ممرضـــة كانت زميلة لها في المدرسة لكي يجري لـــه الفحوصات اللازمة بسرية وتكتم، لم يكن الطبيب الذي كان حديث التخرج وبلا خـــبرة في اختصاصه المهني في حاجة إلى فتح حقيبته السوداء لكي يسحب منها معداته التي يستعين بها في الكشف عن المرضى، وكل مـــا هـــنالك أنـــه اكتفى بنظرة متفحصة فرأى كم هو متعب بهزاله وجفنـــيه الملتهبتين من قلة النوم وجلد وجهه الرخو الذي يشف عن عظـــام وجنتـــيه وحرارته المرتفعة وتنفسه اللاهث، ثم التفت وقال لأحـــلام بأنه يجب نقل المريض إلى المستشفي على الفور، وبعد أن أمسك بيد عبد الدائم الممدد على فراشه دون حركة خاطبة بلطف:

ـ ســتموت لا محالـــة يا أستاذ إذا بقيت يوما آخر في هذا القبو الرطب، فالهواء غير صحي، كما أنك في حاجة إلى رعاية طبية دقيقة.

وبالـــرغم مـــن هـــذا الـــتحذير بخطـــورة مرضه فقد تمادى عـــبد الدائـــم في عناده، وبإزاء تصلبه فقد كتب لـــه الطبيب الشاب وصفة أدوية من الحبوب والسوائل ناصحا إياه بأن يتناولها في أوقات وبمقادير محددة وإلا كما قال لـــه لن يكون لها مفعول يذكر.

دفعـــت لـــه أحلام أجرته، وعندما رافقته إلى الباب الخارجي أخـــبرها أنه برغم حداثة عهده بالطب فليست هذه هي المرة الأولي التـــي يصادف فيها مريضًا برأس من حجر، لا يدري أن المرض لا يـــرحم، وأنـــه لا مجـــال لمهادنته، ولكن المرض كيفما كان يمكن مقاومـــته بل والقضاء عليه في حالة التزام المريض بالتعليمات دون مـــراوغة أو تهاون، وختم محاضرته القصيرة وهو يهبط الدرج بأن

أوصـــاها بالسهر على راحة المريض وإعطائه الأدوية في مواعيدها دون أن يهتم بنوع العلاقة التي تربطها بعبد الدائم ولا بظروف سكنه فـــي قبو تحت الأرض، فأعفاها بذلك من رواية محنة موظف أنهكه ضـــميره وهو يرفع راية الأخلاق الحميدة عاليا، وهو يتعلق بأرجوحة الأمانة والنزاهة إلى أن أصيب بالدوار وشاخ قبل الأوان، وإذا كان قد وضع الدنيا وراء ظهره واعتزل الناس فلأنهم على حد قوله لم يعودوا مـــن الإنســـانية في شيء، وإنما هم قطعان من الوحوش الهائمة على وجوههـــا فـــي شوارع المدينة، مسلحة بأنياب حادة ومتأهبة للصراع حتى الموت من أجل حزمة من الثوم أو رأس خروف مملح.

وبالـــرغم مـــن صـــداع وتعـــدد مهامها في الشركة وهمومها الشخصية فلم تقصر أحلام في العناية به وخدمته مدفوعة بشعور البنوة تجـــاه الـــرجل الذي دأبت على زيارته في مكتبه في الطابق الخامس عـــندما كان نائبا للمدير العام، فكان يرحب بها بحفاوة وسرور عارم ولا ينســـى أن يـــتحفها فـــي كل مرة بهدية لا تعرف كيف ترفضها، يداعـــبها كما لو أنها طفلة ما زالت تتعلم المشي فيحتضن وجهها بين كفـــيه ويمســـح بيده على شعرها الناعم، كانت في ظاهرها مداعبات بريئة فلم تكتشف أنها ليست كذلك إلا عندما عرض عليها الزواج وهو يحتضر، كانت تزوره في القبو من حين لآخر لتطمئن عليه، ومع أنها لا تغيب عادة عن مكتبها إلا لوقت قصير فقد تنبّه المدير العام إلى هذا الأمـــر فـــي حينه، فقد حدث أكثر من مرة أن طلبها فلم يجدها جالسة علـــى كرسيها الدوار منهمكة في عض ضفيرتها الطويلة بشرود فيما يزيد ضوء الشمس من توهج أنوثتها، فكان هذا المشهد المؤثر يعاوده

فـــي أحلامه، فيرى نفسه واقفا على طرف إصبعها السبابة كالعصفور مطـــلا علـــى فـــتحة صـــدرها حيث تسرح عيناه بين ضفتي نهديها الصلبين، أما هي فتستغرق في الضحك لخوفها عليه من السقوط وهو يتأرجح ويكاد يفقد توازنه، ومع تكرار تغيبها الذي أثار ريبته وسخطه أيضـــا اســـتدعاها إلى مكتبه وفي يقينه أن ثمة ما يدعو إلى الشك في ســـلوكها فـــي الفـــترة الأخيرة، لقد ظلت على مدى الأيام بمنأى عن غرامـــياته الفاضحة فيما طالت يده المراوغة أغلب موظفات الشركة اللاتـــي يقعـــن في شباكه مسلوبات الإرادة وشبه منومات تحت وطأة أســـاليبه وخبرته بفنون الغواية، زيادة على أقراص العواطف الزائفة التـــي يطعمهن إياها كقطع السكر، والغزل الذي يجيده إلى حد التوله وفرش وعود الزواج والحياة المرفهة لهذه أو تلك في حالات التردد أو الخوف الغريزي من الوقوع في الهوة التي يستدرجهن إليها، إذ أن كل واحـــدة تصر من جانبها على أن يمدها بغطاء شرعي تمشي من تحته إلـــى المصيدة حتى إذا كان مهلهلا أو من الخيش، أما أمينة سره التي هـــي أجملهـــن فلا يدري لماذا يرهب سلطة جسدها الفاتن وكيف أن ســـحر عينيها يجرده من كل أسلحته فيظل عاجزا حتى عن مغازلتها ولـــو بـــنفس كلمات الإطراء والإعجاب التي يرصفها مرؤوسية من موظفـــي الشـــركة في طريقها بما يؤدى أحيانا إلى رفع درجة حرارة أنوثـــتها إلـــى حـــد أن جلدها يتندى بعرق بارد من تحت ثيابها صيفا وشـــتاء، فمـــا كان في استطاعتها تجنب مصائد الحنين التي تصادفها كلمـــا عبرت من باب إلى أخر، أو وهي تتهادى بجلال في الممرات الطويلـــة، كمـــا في أثناء صعودها وهبوطها للسلالم وبيدها حزمة من

الأوراق، ذلـــك أن حـــالات الانبهار بورودها المتفتحة وعبيرها الذي كالبخار اللذيذ تلاحقها في كل مكان، فكانت تجد سعادتها القصوى في فـــيض التنهدات والدهشة والشهقات المكتومة التي تنهمر تحت قدميها بغـــزارة، إنهـــم جميعا يقفون على رصيف واحد خافقي القلوب لكي يلوحوا لها بمناديل حمراء كل بطريقته، ولكن ما يسوءها ويعكر صفو مـــزاجها أن كـــل هذه الضجة التي تتماوج من حولها لا تكاد تتجاوز تخـــوم جســـدها، فـــلا أحـــد يعبأ بالتوجه إلى قلبها لكي يهز أجراس عواطفها الساكنة مثل بحيرة في الصحراء تحط الطيور على شواطئها، لكـــنها مـــا تلبث أن تطير مغردة بعد أن تنقر عدة قطرات من الماء، فحـــتى الآن لم يحاول أي مخلوق تحريك أشواقها الراكدة ولو بضربة من جفنيه.

قعـــدت علـــى الكنـــبة الوثـــيرة قـــبالة المديـــر العام بساقين مضـــمومتين، نهداهـــا فـــي مواجهته وقد صوبا إليه بإحكام وكأنه الضـــحية الأخـــيرة التي حان الوقت لأن تجهز عليها بلا رحمة، لقد كان منذ التحاقها بالشركة يقاوم بعناد توددها إليه وظل يتجاهل بنفاد صبر مناوراتها الطفولية كلما انحنت عليه في المكتب ملاصقة لكتفه وأنفاســـها في وجهه، تشير بإصبعها إلى جملة أو كلمة غير مفهومة فـــي ورقـــة يكلفها بطباعتها، ثم إصرارها لمرات عدة لأن تعد لـــه القهوة بنفسها، وعندما لا تجد عذرًا جاهزًا للتقرب منه ولفت انتباهه وانتشـــاله مـــن جموده تتناول سترته المعلقة على المشجب وبعد أن تنفضـــها بحـــرص مـــن الغبار الذي لا أثر لـــه تحثه على ارتدائها لـــبرودة الجـــو مع أنه لا يشعر بذلك، كان يشيح بوجهه بإزاء همس

شيطانه الذي يغريه بها مؤكدا لــه أنها فريسة هشة وفي حالة تأهب للاســتجابة لأول إشــارة من يده، ومع ذلك فإنه يظل هادئا ومتجلدا بــرغم تعرقه، ولعل هذا ما يدفعها إلى الالتصاق به أكثر فأكثر غير عابــئة بصوت الاستغاثة الذي يطلقه من أعماق روحه، ينهض على أثرها واقفا وهو يدعو الله مبتهلا إليه في سره لأن يكون رحيما به، وهو الآن يلهج بنفس الدعاء الصامت.

خفــض عينيه عن حبتي العنب البارزتين من تحت فستانها، وقال بنبرة هادئة، ولكن بحزم:

ـ إذا كان هناك شخص ما فيجب أن أعرف من يكون، قولي لــي الحقــيقة يــا أحلام فهي كل يهمني، وبإزاء هذا السؤال المحدد بنــبراته القاطعــة فكرت في أن تطلعه على الوقائع بكل ملابساتها، فليس هناك أحد سوى عبد الدائم، ذلك المخلوق العاجز الذي لا رجاء فــيه، لكــنها كانــت خائفة ومتوجسة حتى من الإشارة إليه بطرف لســانها، فلو أنها قالت لــه أن نائبه السابق يعيش أيامه الأخيرة في قــبو تحــت الأرض فهي على يقين من أنها لن تنجو من شرر نوبة عصبية تجتاحه بعنف لمجرد ذكر الاسم في حضوره، وأكثر من ذلك فهــو لــن يــتورع في مثل هذه الحالة عن طرده من مخزن ملفات الموتــى بدعوى أن الشركة ليست مأوي للعجزة، ثم يأمر بإلقائه في الشــارع هو وثيابه وأوراقه وزجاجات الدواء المتناثرة من حوله في فوضــى عــدم الاكتراث، وبذلك يتخلص منه إلى الأبد، ومما يثير اســتغرابها حتى هذه اللحظة أنها لم تتوصل بعد إلى معرفة سر ولا أصــل العــداوة المســتحكمة بين الرجلين في الماضي والتي كانت

صـــامته وخفية، ثم أصبحت علنية وعنيفة لدي التحاقها هي بالشركة كمـــا أخـــبرها بذلك مسعود النقاز، ومع أنها لم تقتنع برأيه فهي لا تســتطيع تجاهل النزاع الذي نشب بين المدير العام ونائبه لاقتسامها فـــيما هي لا تقبل القسمة على اثنين، فظل يتصاعد يوما بعد يوم إلى أن انتهـــي بإقاله عبد الدائم من منصبه ونفيه إلى القبو، ومع ذلك فلم يخمد تماما، فهي كما تذكر فقد حدثته ذات يوم عن مرض نائبه بأمل أن تثير شفقته عليه، ولكنه بدلا من ذلك قال لها بغضب مكتوم:

- يستأهل، إنه رجل جحود، ذلك الثعلب الذي يتظاهر بالطيبة والأمانـــة ونظافـــة الـــيد ولكن على من؟ ثم أضاف بصوته المعمد بالقسوة والتسلط:

- إذا كان يرغب في إجازة مفتوحة فليس لدى مانع، قولي لـــه أن يقدم طلباً كتابيا بالخصوص لأوقعه لـــه، أو فليذهب إلى الجحيم.

إذن فـــلا مناص من اختلاق ذريعة لتبرير تغيبها المتكرر عن مكتـــبها، فلـــم تجـــد سوي الادعاء بأن المسألة لا تتعلق برجل ولا ينصف رجل، وإنما لأنها تعاني في الفترة الأخيرة من مشاكل صحية ذات طابع نسائي مما يضطرها إلى التردد على الحمام من وقت إلى أخـــر، إذ ذاك لـــم يحاول المدير العام المأخوذ بسحر أنوثة مضمخة بـــرائحة الياسمين أن يعرف أكثر مما أفصحت عنه وباحت به، لكنه بـــدا غـــير واثق من صحة أعذارها فظل يتأمل ساهمًا أصابع الثريا التـــي تشـــبه أصـــابع من الشمع وفي عينيه نظرة ساهمة تشي بعدم رغبـــته في استجوابها بمزيد من الأسئلة، قانعًا بأكاذيبها البيضاء إذا

كانـــت قد كذبت عليه بالفعل، فهي لا تقل عذوبة عن نبرات صوتها بجرســـه الموســـيقي الحالم ولا تقل جاذبية عن براءة ابتسامتها التي ينزلق فيها كرغوة الصابون، نهض واقفاً وقال:

ـ لا أحـــد يؤمـــن جانـــبه في هذا الزمن، فلا تكوني ساذجة يا أحلام أكثر من اللازم.

وعندما لزمت الصمت، أضاف قائلا:

ـ أمـــا إذا تحـــرّش بـــك أحد من موظفي الشركة، أو حاول الإساءة إليك حتى من غير قصد فما عليك إلا أن تومئى إليه برأسك لكي أريه النجوم في عز الظهر.

كان يمتلك هذه الصلاحية بالفعل، وهو الذي دأب على التعامل مع موظفي الشركة وعمالها كما لو أنهم من خدم البيوت، فلا يتسامح أو يتســـاهل مـــع أي واحد منهم حتى في الأخطاء الصغيرة التي لا يمكن تجنبها أو هذه التي تقع سهوا، يصرخ في وجوههم مهددا إياهم بالطـــرد لأنهم جميعا من وجهة نظره ليسوا إلا حثالة، في ذلك اليوم لـــدي خـــروجها من عنده لم تستطع السيطرة على نوبة من الضحك هزتها بعنف وهي تغلق الباب وراءها، ضحكة هادرة كالينبوع الذي تفـــيض مـــياهه فـــي كل اتجاه، مصدرها ذلك التناقض المريب في شخصـــية المدير العام الذي بقدر ما يبدى من الحرص على سمعتها فـــي الشركة فانه يتفنن في نصب الشراك لزميلاتها من الموظفات، فـــلا خـــيار لأي واحـــدة منهن فإما الاستسلام لإرادة حاكم الشركة المطلق، أو الهرب كالدجاجة التي تفر بجلدها مذعورة وزاعقة بإزاء

استماتة ثعلب جائع في مطاردتها، وهذا ما حدث بنصه مرارا للكثيرات تمكن من الإفلات في اللحظات الأخيرة، فيما نعمت أخريات بذهب العاشق المزيف وأنفاسه المفعمة برائحة النبيذ المعتق، كما أنها لا يمكن أن تنسي مأساة تلك الموظفة الجميلة التي علقت بأنشوطته وتحت وطأة فضيحتها عمدت إلى القفز من الطابق الخامس لتموت منتحرة دون أن يترحم عليها أحد.

ترقرقت ضحكتها الرنانة في الممرات فيما ترجع صداها في مكاتب الموظفين الذين كانوا يتأهبون للانصراف فتسمروا في أماكنهم بما في ذلك مسعود النقاز الذي خيل إليه حينها أنه سمع صوت تكسر الأمواج على الشاطئ مع أن البحر أبعد من أن يراه بعينيه، كانت الوقت يقترب من الساعة الثانية ظهرا، وهكذا سوت أوراقها الموضوعة على المكتب وهي مازالت مستغرقة في الضحك، وعندما هبطت الدرج إلى القبو وجدت عبد الدائم راكعا يصلي ويداه على ركبتيه، انتظرته إلى أن أطلق السلام على الملائكة، ثم قرفصت قبالته وسألته مبتسمة:

– منذ متي لم تضحك من أعماق قلبك يا أستاذ عبد الدائم؟

فكّر الرجل برهة ثم أجابها مندهشاً:

– منذ أن ابتلع الحوت النبي يوسف عليه السلام، ولكن ما مناسبة هذا السؤال؟

عندئذ أمسكت بيده وقالت:

– لا أدري، ربما لأن الضحك يشفي كثيراً من الأمراض كما

قرأت في إحدى المجلات النسائية.

- إلا مرضي أنا يا أحلام؟!

الزمن يمضي بالرغم من خطواته البطيئة، وها هو يوم آخر ينقضي من حياته الوظيفية من دون أن يقوم بأي عمل مجد فيما عدا استغراقه في فك طلاسم الفصل الأول في مخطوطة عبد الدائم، لقد اتضح له أن المرحوم كان يكتب على هواه وبكل ما يعن له في حينه، فيخلط بين تأملاته في الدنيا الغافية والناس والحياة من حوله ومأساة الوجود وأسرار الخلق والعابرين في رحلة المجهول التي لا أحد يعرف إلى أين تنتهي، وبين شطحاته الروحية التي تتداخل مع بعض الأحداث التاريخية بدون ترتيب وبقفزات عشوائية، فيبدو وكأنه يود إحياء ذاكرة الوطن الذي تعرض على مدي قرون لويلات ومصائب من كل نوع، من الأوبئة إلى المذابح، وكما كتب في أوراقه فقد هاجمه الونداليون كالجراد وهم ينشدون أغاني الموت والدمار لكل شيء يصادفهم في طريقهم حتى الأشجار وسواقي المياه، ثم توالت عليه النكبات متتابعة فوقع في قبضة الرومان الذين بسطوا نفوذهم حتى على رمال الصحراء، حتى الأسبان طمعوا فيه فجاءوا ذات يوم على ظهور مراكبهم الصليبية وفي نيتهم تدمير مدينة طرابلس على رؤوس الأهالي فقصفوها من البحر بالمدفعية، وتمكنوا من احتلالها وحكمها لمدة تقرب من عشر سنوات باسم السيد المسيح الذي تباركه السماء، وفي نهاية المطاف تنازلوا عنها لفرسان القديس يوحنا الذين عبروا البحر في سفنهم الشراعية منطلقين من شواطئ جزيرة مالطا برغم العواصف العاتية وهم يرتلون مقاطع مختارة من الإنجيل كما لو أنهم بصدد تلقينها للأسماك لكي تشاركهم

الصلاة على روح السيدة مريم العذراء.

كانـــت ســيول الغزاة الجارفة تتدفق على هذه الأرض من كل الاتجاهـــات. فقد أفاق الناس ذات صباح على قراصنة آل عثمان وهم يدقـــون على أبوابها البحرية بمجاديفهم، جاءوا من آخر الدنيا لإضافة حجر آخر في جدار امبراطوريتهم الشاسعة، وعندما تمكنوا من احتلالها شرعوا في دهن حيطانها بالخرافات والترهات، ثم وضعوا الأقفال في أفـــواه الـــناس، فـــلا ينطقون إلا في حالة واحدة وهي الدعاء للسلطان العثمانـــي بـــأن يحفظه الله ويرعاه ويمد في عمره إلى ما لا نهاية، لقد تمكـــن قطـــاع الطرق هؤلاء من الهيمنة على هذه البلاد لما يزيد عن أربعمائة عام كانت وبالا عليها بكل ما كان يتخللها من فساد وفوضى.

كان الطليان هم آخر قوافل الأشباح التي عبرت الصحراء، وفي ظـــنهم أن لا شـــيء يعترض طريقهم ووضع يدهم عليها سوى شراذم الأتـــراك المســـلحين بالبنادق القديمة والأحجبة، ولذا فقد قرروا كنسهم بمقشة من الحديد، وما أن لوحوا بها عاليا وهم مازالوا في عرض البحر حـــتى انهارت دفاعات جرذان الباشا المحشوة بأساطير وأوهام القرون الوســـطي، ولكـــن جنرالات روما الذين شرعوا في الرقص على قدم واحدة لدي هبوطهم إلى الشاطئ من بوارجهم الحربية لم يفكروا آنئذ أن قدمهم الثانية سوف تظل معلقة في الهواء لمدة عشرين عاما.

وكمـــا يبدو فإن موظف القبو المريض كان يجرى على الورق بـــدون محطات للراحة، ولم تكن مسألة الصياغة الأدبية مما يهمه في شيء، كان يخبط بقلمه وهو يرتعش من الحمي أو وهو يحاول اقتناص

نســمة هــواء تــنعش رئتيه المعطوبتين وتحميه من السقوط من فوق الكرسي، عندما أحس عمر عبدالحميد بالتعب والإرهاق أزاح الأوراق جانبا وأخذ يطرق برأس قلم الرصاص على سطح المكتب، كان صوت الطرق خفيفا في أول الأمر، ثم أخذ في التضخم شيئا فشيئا وكأنه أيقظ بهذا الصوت موتى الشركة النائمين في ملفاتهم المغبرة فهبوا من سباتهم ليدقوا بأقلامهم في أثره، وبرغم الضجة التي تواصلت عندما توقف هو عــن لعبته فقد نهض واقفا متأهبا للانصراف، ولدى مغادرته للحجرة لحق به صوت عبد الدائم عند العتبة مودعا.

ـ مع السلامة يا أستاذ.

- 6 -

لدى مغادرته لمبنى الشركة بكل حمولته البائسة من العبث ودوار القلب تذكر فجأة دوره في إعداد وجبة الغداء بحسب الجدول الأسبوعي المـــتفق علـــيه مـــع شـــريكيه في السكن، الأول يدعى يوسف ويلقب بالصومالي ببشرته الزيتونية وطبعه المرح، وأما الثاني وهو في حوالي التاسعة والعشرين من العمر فيدعى عبد الكريم الحداد، كتوم وفي حالة شـــرود دائـــم، وبالـــرغم مـــن أنه يعيش مع رفيقيه تحت سقف واحد ويقاسمهما الطعام والأوهام ومحنة البطالة إلا أنه قلما يظهر في المنزل فـــلا يرى إلا في آخر الليل عندما تطرده الرياح البحرية من الشوارع دون أن يعـــرف أحد أين يقضي يومه ولا كيف يكسب رزقه، أما يوم الجمعة فغالبًا ما يصرفه في النوم من وراء باب حجرته المغلقة بإحكام، وفي المساء عند غروب الشمس ينهض بهدوء ويتناول بصمت حصته من الطعام وبعد أن يستحم يخرج لتدخين النرجيلة في مقهى نجوم الليل، ولذا فقد حامت من حوله إشاعات تصنفه ضمن مروجي المخدرات في المدينة القديمة، وما كان عمر عبد الحميد نفسه ليصدق بأن هذا الشاب الوديع يمكن أن يكون تاجر سموم، يهز رأسه متحيرا ثم يقول في نفسه بأن للبطالة أحكامها في كل الأحوال.

واجـــبات المطبخ ما كانت لتقلقه في زمن البطالة ولا حتى بعد انضـــمامه للعمـــل في الشركة العربية العامة لخدمات البيئة ومكافحة الـــتلوث، فقد كان يجد فيها على الدوام فرصته سانحة لإنفاق جزء من وقـــته الفـــائض عن حاجته في عمل مجد، فيكون هناك ما يشغله عن

التفكـــير في عقدة حياته التي ظلت ملازمة لـــه من دون أن يلوح في الأفق أية إشارات على أنها سوف تنفك عما قريب، وبذلك فقد مر في طـــريقه بســـوق السمك الذي لم يعد حكرا على باعة لحوم الحيوانات الـــبرية والـــبحرية وإنما تطور إلى سوق لكل شيء بدءاً بالخضروات والفواكه والزيتون بكل أنواعه وألوانه إلى الخبز والمخللات والطيور الداجـــنة وغير الداجنة والسلاحف والعصافير المغردة والصيصان في أقفاصـــها الصغيرة، يضج طوال اليوم وحتى رحيل الشمس في آخر الـــنهار بـــرواده وزبائـــنه من أهل المدينة والغرباء من كل الأجناس البشرية بما في ذلك العاملات بالتمريض من الجنس الأصفر والعمال الأتـــراك والرومانييـــن والكوريين والعرب وبعض الأروبين ورهط الـــزنوج الذيـــن طبخـــتهم الشـــمس الأفريقية إلى حد التفحم، جميعهم يتدافعون في ممرات وردهات هذا المبني العتيق العابق برائحة الزمن الغابـــر، بالإضافة إلى روائح محدثة، مختلطة مع بعضها البعض وقد طغت عليها رائحة فضلات الطيور في أقفاصها الخشبية.

كـــان يجـــد مـــتعة كبيرة في التجول في هذا السوق البشرى الحيوانـــي عـــندما كـــان عاطلا عن العمل، يطوف بأرجائه متفرجا ومـــتأملا يســـاوم ولا يشترى برغم إغراءات البضائع المجلوبة من وراء الـــبحر أو المصنعة محليا، ولعل ذلك هو ما حفزه إلى خوض مغامـــرة العمل التجاري مجددا برغم فشله الذريع في المرة الأولي، فجـــاء بصندوقين من السمك الطازج، وبالكاد تمكن من حشر جسده النحيل في نهاية صف طويل من باعة السمك المحترفين الذين رحبوا بـــه كعضو جديد في هذه العائلة الكبيرة التي يوحدها الفقر والآمال

الخائبة، لكنهم مع ذلك أخذوا يرمقونه بدهشة لتطفله على هذه التجارة الخاسرة، لقد أدركوا منذ البداية عدم خبرته بالكائنات البحرية وجهله المطـبق حتى بأسمائها الشائعة على ألسنة العامة، ثم هو لا يشبههم فـي شيء بذقنه الحليقة وطبعه الانطوائي، ولشفقتهم عليه فحسب لم يعلـنوا علـيه الحرب، ذلك أن الرزق في رأيهم يتوقف على خيوط غـير مرئية معلقة بالسماء حيث تهزها يد خفية فينال كل واحد منهم نصيبه من النعمة بدون أن تنقص أو تزيد درهمًا واحدًا، لكنهم كانوا علـى يقين من أن إقامته بينهم لن تدوم لزمن طويل، كانت توقعاتهم صـائبة وفـي محلهـا، فقد ظل عمر عبد الحميد طوال اليوم يهش الذباب عن بضاعته الراكدة بجريدة قديمة طواها على شكل مروحة إلى أن فرغ السوق من الناس والضجة في آخر النهار دون أن يوفق فـي بيع سمكة واحدة، لقد نكب في رأس ماله، ولكنه برغم ذلك لم يساوره الندم على مغامرته هذه، فهناك دائما الدرس الصعب الذي لا بد أن يتعلمه المرء في كل خطوة حتى إذا كانت خطوة إلى الوراء، لم يندم بإزاء مهرجان النهود المتوثبة والسيقان المحشورة بحكمة في سـراويل الجيـنز الضـيقة ونسـاء الجلابيب الفضفاضة بعيونهن المكحولة ودوامة الثرثرة والمساومات المرهقة والفوضى والتذمر من الغـلاء، وأهـم مـن ذلك تعرفه على امرأة عجوز بدت منذ الوهلة الأولي مثالا للطيبة وصفاء النفس والتسليم بإرادة الخالق كيفما كانت وفي كل أحوالها، كانت متربعة على الأرض مقابلة لـه من الجانب الآخـر المخصـص للنساء عارضة بضاعتها من الأعشاب الطبية والمراهم على مشمع مفروش عند قدميها الحافيتين، لقد أدركت هي الأخـرى أن هذا الشاب الجميل القسمات بقدر رثاثة مظهره وهزاله غريـب عـن عالم السمك بما يزيد عن غربتها هي عن نساء نبلاء

النفط والسماسرة وتجار الذهب والمهربين الذين يتزعمون السوق السوداء، تلكم السيدات اللاتي يتسربلن بالأساور وعقود الذهب والقلائد والأحجار الكريمة والأزياء الفاضحة التي يظهرن بها في الأعراس وحفلات الختان وموسم السفر والعودة من الأراضي المقدسة، وحتى في المآتم إلى حدّ أن ظهورهن تبدو محدودبة لدى وقوفهن، أخذت تسترق إليه النظر مشفقة لتحجر لسانه وعدم اندماجه في جوقة باعة السمك وهم ينادون على بضاعتهم بصيحات متقطعة، وقد يكون صمته هو ما حفزها إلى مبادرته بالتعارف، فقدمت له نفسها على أنها الحاجة مريومة وقد ترملت منذ عشر سنوات، تعيش حياتها بتوفيق من الله الذي تحمده صباحاً ومساءً على نعمته بما في ذلك الهواء الذي تتنفسه بالمجان، حريصة على مواعيد الصلاة ومتأهبة دوما للقاء وجه ربها بلا إبطاء وفي أي وقت يدعوها إليه، فما كانت لتتأخر عن ذلك إلا لأمر واحد تود أن تنجزه وتطمئن على أنها لم تقصر في القيام به على خير وجه، وهو كل ما يشغل كل مساحة تفكيرها، ولعله الشيء الوحيد الذي يقلق راحتها على الدوام.

- إنجاب البنات في هذا الزمن مصيبة يا سي عمر؟!.

وأضافت متنهدة ومفصحة عن همّ بدا لها كما لو أنه لا مناص من البوح به في حضرة بائع السمك الخجول.

- عندي بنت واحدة لم أرزق بغيرها، ومع أنها كبرت في العمر إلا أنها مازالت تنام وحيدة في فراشها كالبومة.

هذه المقدمة التي تنضح بالمرارة كان لا بد منها للمرور إلى صلب المشكلة التي تؤرقها، بدأت بها ثم أمطرته بوابل من الأسئلة

عن أصله ونشأته وظروف التحاقه بسوق السمك، أجابها كيفما أتفق ولكـــنه لـــم يخف عنها متاعبه ومحنى البطالة التي يعاني منها لعدم عـــثوره على عمل وظيفي عقب تخرجه من كلية العلوم، وبذلك فهو يعـــيش حياته مخبطا كالأعمى لا يعرف إلى أين يتجه، هذه الإجابة الغائمـــة وأن لـــم تشـــبع فضولها كما يجب فقد شجعتها على طرح الاقتراح الذي أجلته حتى اللحظة الأخيرة بأن عرضت عليه الزواج من ابنتها الوحيدة والإقامة معها في منزلها، ثم قالت لـــه مؤكدة على أن مـــثل هذا العرض المفتوح ملائم لمخلوق في مثل وضعه البائس، فلا يحتاج إلا إلى أن يهز رأسه بالموافقة.

- والله يا سي عمر أنا لا يهمني إلا أن تعيش حياتك مثل كل الـــناس، الوحدة مرة، وكل رجل في الدنيا كائنا من كان يحتاج إلى امرأة تؤانسه وتعتني بطعامه وفراشه.

لقـــد أدرك منذ البداية أن الحاجة مريومة جادة في عرضها هذا الـــذي أردفته بمقبلات أخرى من ضمنها أن ابنتها على قدر لا بأس به مـــن الجمـــال، موظفة في الصحة وتجيد الطبخ، ولكن كنوز الدنيا كما قالـــت لـــــه بلا مواربة لا تعوض المرأة ولا تغنيها عن رجل يضفي علـــيها مـــا هي في حاجة إليه من حدبه ورجولته، تحتمي به من آفات الحياة وشرورها وعند اللزوم تعلق همومها على كتفيه، وإذا كان رجلا صـــالحا يخاف الله فسوف يأخذ بيدها لكي ترافقه في الطريق إلى جنة الخلد لأن الحياة لا تدوم، وفي ختام هذه الخطبة العاطفية منحته فرصة للتفكير في هذه المسألة الحيوية وتقليبها على جميع وجوهها، وإن كانت لا تحتاج إلى ذلك لأنها مثل القرش في يد الإنسان، ولكن من المهم أن

يـــبلغها بـــرده النهائي في آخر الأسبوع آملة في أن يكون رده إيجابيًا ومتوافقا مع ما ترجوه وتتمناه لــــه من السعادة وراحة البال.

- سوف أفكر بالأمر يا خالتي الحاجة، وأنا ممنون لك في كل الأحوال ولا أعرف كيف أشكرك، قال لها ذلك وهو يعلم بالطبع أن هذه العجوز الطيبة ما كنت لتفكر بأنها تتحدث إلى رجل مازال لديه فـــائض من الأحلام الكبيرة التي يرغب في أن يبلط بها طريقه ولو إلـــى أمجـــاد مســـتحيلة، يتوحد مع الحياة برغم تياراتها المتلاطمة ويمـــتص رحيقها حتى الثمالة، يغوص ثم يطفو على سطح الأمواج، أمواجـــه هو التي تجرفه حتى في نومه، لقد توهمت بائعة الأعشاب الطبية أنه أحد هذه المخلوقات المتهالكة والمجوفة التي تراها كل يوم تدب على الأرض برؤوس من العظام وقلوب شبه ميتة لا تخفق إلا لرائحة عرق النساء والحناء ورنين النقود في حالات أخري، وبذلك فهـــم أتعـــس من أن يعول عليهم المرء في شيء، أما هو فقد تكون واثقـــة مـــن أنه برغم شحوبه وإخفاقاته سوف يؤدي وظيفته كزوج ورب أســـرة كما يجب وكما تود هي أن يكون لائقا بوحيدتها، وفي أسوأ الظروف فسوف يكون المنقذ لابنتها من رماد العنوسة، ولذا فقد أرخت لـــه الحبل قليلا واعِدة إياه بأنها في حالة توصلهما إلى تفاهم فسوف تزوده برأس مال يساعده في تأسيس مشروع تجاري ناجح.

كانـــت هـــذه الخلطة من النيات الحسنة والوعود البراقة على مقاســـه وفي متناول يده كما فكر بها لدي انصرافه من سوق السمك فـــي آخـــر النهار، ولكن السؤال كيف ينهض واقفا وهو يستند على كـــتف امـــرأة عجوز أعدت لـــه مصيدة بطعم اللحم المتبل ورائحته

الشـــهية، ثـــم هو لم يستنفد بعد كل مدخراته من قوة الإرادة وروح المغامرة والتفاؤل بتحسن أوضاعه، ومهما كان الأمر فهو لا يستطيع أن يرهــن حــياته ومصيره في مقابل جسد امرأة حتى إذا منح لـــه بالمجـــان أو بثمن بخس، ودع الحاجة مريومة عند باب السوق وهو يهز يدها المعروفة بأساورها العاجية في يده مؤكدا لها من أنه سوف يفكر في عرضها الذي يستحق كل الشكر والتقدير.

دلـــف إلـــى المطبخ بكيس البقالة معلقا في يده، وبعد أن ارتدي منامـــته شرع في إعداد وجبة الغداء مستظلا بعيني أحلام وهي تطل علـــيه مـــن كوة في خياله ضاحكة ومشجعة إياه، بدأ بأن أشعل فرن الغـــاز، ثم وضع فوقه طنجرة قديمة حوافها سوداء ومتآكلة، ومع أنها غـــير صـــالحة للطـــبخ إلا أنـــه لا يوجد غيرها، فلم يكن زميلاه في العزوبـــية ممـــا يهمهما مثل هذا الأمر وهما اللذان تعودا على الأكل والـــنوم كـــيفما اتفق، يقبلان على حصتهما من الطعام بشراهة غريبة دون أن ينتـــبها حتى اللقمة الأخيرة إلى أن نسبة الملح في الطعام أكثر مما يجب، أو أن الأكل لـــه طعم مياه الغسيل وربما أسوأ، فهما دائما علـــى اســـتعداد فطري لبلع أي شيء يقدم لهما مرفقين إياه بالشكر لله على نعمته، أما هو فطالما عاني من تعاسة الأكل الرديء عندما يحين دور أحدهما في المطبخ فيخلط الأشياء بعضها ببعض متعجلا من دون مـــراعاة أو تدقـــيق في المقادير المطلوبة من الزيت والطماطم ونسبة المـــاء فـــي الإنـــاء فلا يكترث بأي من هذه المسائل سوي أن ينتظر خلطته البائسة إلى أن تنضج على النار، وقد تشيط في غفلة منه، وفي النهاية يفرغها في ثلاثة صحون حتى إذا كانت بلا طعم ولا رائحة.

ولكنه في هذا اليوم لم يستطع تركيز اهتمامه في وجبة الطعام وملحقاتهـــا، فقد كان ذهنه يموج ويضطرب بأفكار جديدة وتوقعات يســتبد به بريقها الذي يلتمع فيما وراء قشور البصل ورائحة الثوم، هــناك لعبته المثيرة التي استحوذت عليه مؤخرًا فراح يتلهى بها في فضـــاء السكون الذي يغمره بزمنه الرتيب والمكرر، تلك هي أمينة ســر المدير العام، أحلام التي هبطت عليه لا يدري من أين في هالة فســفورية متشــحة برداء من الوعود باخضرار مشاعرها كما هي الســحب فــي فصــل الشتاء، لقد استطاعت بضربة واحدة من يدها الرحيمة إزاحة ستائر الظلام التي تحجب الرؤية، وهاهو يتنشق عبير زهورهــا في البهارات التي تفتح الشهية، لا يدري متي بدأ يفكر بها علــى أنها الشمعة الوحيدة في حياته الموحشة بالرغم من أن علاقته بها مازالت جنيناً وفي أول أطوارها، فلم تتجاوز بعد حدود الإمكان من تبادل التحية كلما التقاها في أحد الممرات والإنصات إلى ثرثرتها الموصــولة غالــبا بضــحكات مرحة هي كل دفاعاتها في مواجهة حصــار الجســد والأهواء الطائشة كلما هبطت إلى القبو، يتذكرها كنســمة صيف رقيقة حالما يفتح عينيه على أشعة الفجر ليهتدي بها كالبوصــلة إلــى محطة آماله الخائبة والتي لم تعد كذلك منذ تعرفه علــيها، لقــد باتــت تغريه بيقظة العصافير التي ما أن تلمس شمس الصــباح رؤوســها بعصاها السحرية حتى تطير في الجو مزقزقة ومصفقة بأجنحتها في موعدها اليومي مع الحياة، لكنه ظل برغم ذلك يرهــب البقاء بمفرده منفيا في صمت القبو طوال ما يقرب من ست ساعات في اليوم من دون عمل إلا إذا كان تصفح ملفات الموتى وفك

طلاسم عبد الدائم من الأعمال المجدية التي يستحق عليها مكافأة في آخر الشهر يتقاضاها من خزينة الشركة.

كان يرى موته رؤيا العين، بل ويكاد يلمسه بإصبعه في كل ما يحـيطه عـندما يتحول هو الآخر في يوم من الأيام إلى ملف يغطيه الغـبار، ثـم يأتي أحدهم ليضعه بهدوء على رف النسيان، لولا أحلام لأصيب بالجنون لا محالة، لقد ظهرت عند عتبة مكتبه كما لتقول لـه بـأن الحياة الإنسانية لا يمكن اختصارها في حركة دائرية ضيقة تبدأ بطقس غير ملائم لليقظة وتنتهي بممارسة الحب الجسدي مع امرأة من الشارع قذفت بها الأمواج على شاطئه كحطام قارب قديم، أطلت عليه كـنور الشمس التي تمكنت في اللحظة الأخيرة من فك حصار السحب فـي جـو غائم لتنير قلبه وتعرفه بأشياء أخرى غير التسكع ومقارعة الخـواء بفنجان من القهوة أو الترحال على صفحات جريدة يطل من نوافذهـا على عوالم نائية، هناك حيث النساء أشبه بالورود في حديقة عامـة لا يقـف ببابها شرطي أو شيخ معمم وهو يؤشر بعصاه على خطـوط ودوائـر الحلال والحرام، يذكرك بأهوال يوم القيامة وعذاب الهدهـد وسـيوف من نار إذا ما تاقت نفسك إلى الاقتراب من زهرة قـرنفل لتنشق عبيرها فلا يتبدد في الهواء، أيقظته من سباته كما من رتابـة الـيوم الواحد الذي يندس في جبة الغروب فلا يتبقى منه شيء سـوي أصداء تثاؤب وطنين خافت وغبار رمادي، جاءت لتقول لـه بأن للحياة البشرية سبعة أبواب، أو لها باب الحب حتى في هذه البلاد التـي مـازال أناسـها يـزنون جسد المرأة بميزان جزار في السوق العمومي لكي يقدروا كم يساوي أوقية من الذهب، حتى إذا تاه عن بقية

الأبــواب فلن يتوه عن الباب الذي يفضي إلى سعادة القلب، وحتى إذا كان في حضرة الأموات وملزمًا رسميا بحكم وظيفته بمسامرتهم وتفقد ملفــاتهم ونفض الغبار عنها وتجديد ما تلف منها فان أمواته هؤلاء لن يعترضوا أبدا على زيارة ربة العشق والأحلام الجميلة لــه في مكتبه تحت الأرض، لأنها تأتي دائما محملة بالفراشات والمطر.

كــان منهمكا في تفحص أفكاره والتأمل فيها كما لو أنها أسماك ملونة سابحة في حوض ماء زجاجي وفي يده ملعقة خشبية يديرها في قــدر الطعــام الذي يغلي على النار عندما انسل يوسف الصومالي إلى المطــبخ بهدوء، فلم ينتبه لــه عمر عبدالحميد ولا أحس بوجوده، فظل هــذا الشاب الذي لا يكترث لشيء مستندا بمرفقه إلى حافة الباب وهو يحملق بإشفاق في عالم الكيمياء الحيوية الذي تنبأ لــه أساتذته بنجاحات غير مسبوقة في تخصصه العلمي فلم يفوت هذه الفرصة وقال مازحًا:

ـ لــو أنــك يا عمر تستغل خبرتك هذه في أحد المطاعم الراقية فسوف تصبح في وقت قريب من أعظم نجوم السلطة والحساء في العالم.

كــان يوسف الصومالي هذا صديقه المقرب منذ زمن الطفولة وأحــب الناس إلى قلبه فلم يفترقا وهما على مقاعد الدراسة الابتدائية إلــى أن جاءا إلى طرابلس في حافلة واحدة للالتحاق بالجامعة بالرغم من أنه نقيضه في كل شيء، بمظهره المتأنق وطبعة المرح اللامبالي وغــرامه الذاهــل بطالــبات العلوم والزراعة والتربية والطب اللاتي يتوزعــن كالفراشــات المزركشة من المقصف إلى الردهات وظلال الأشــجار فــي دورة مثــيرة من دورات عروض الأزياء والشقشقة

وأحــدث نمـــاذج وقوالـــب تســـريحات الشعر المأخوذة من المجلات النسائية، وهناك أيضا نسائم العطور المهيجة للحواس الخمس، فما كان لـــيجد أفضـــل مـــن أن يسرح من كلية إلى أخري للتعرف على آخر الـــتطورات المدهشـــة فـــي عالم هذه المخلوقات اللطيفة على الطبيعة وملامسة ظلالهن الأرجوانية عن قرب، فلا يضطر أبدا إلى القفز من فـــوق مواقد البخور وأسوار العفة التي أقامها الباشاوات الأتراك حول جســـد المـــرأة طوال أربعة قرون لإخفاء تهتكهم ومجونهم في قلعتهم الحصـــينة، يترصد وهو شبه غائب عن الوعي زهورهن المتفتحة في الهـــواء الطلـــق مترنما بمقاطع من أغنية شعبية رائجة مشجعة على الصبر والمثابرة، لأن الفرص كثيرة وسانحة، كما أن البكاء بإزاء كل هـــذه المفاتـــن المبعـــثرة على الأرض جائز لأنه يساعد على صفاء الـــرؤية، ولكـــن بشـــرط عدم الاستغراق في مناحة كمن يبكي على الأطـــلال، إضـــافة إلـــى ذلك فما كان لتنقصه الجرأة على الغش في الامـــتحانات كما في كل متعلقات حياته انطلاقا من فلسفته العبثية التي تقول بأن لا أحد برئ من الغش، فكل الناس يمارسون هذه الرذيلة بما في ذلك حكام الأمة الذين يتحايلون على بعضهم البعض وعلي شعوبهم ويسمسرون حتى في القضايا القومية والمصيرية.

ما أن تحرر من أسر الدروس المملة والمعادة كالطعام الذي لا يستســـيغه ومـــن منغصات امتحانات آخر العام التي يدخلها محبطا ويخـــرج مـــنها بدرجات في حدها الأدنى بالكاد تؤهله للانتقال إلى صـــف مـــتقدم حـــتى انضـــم إلى طابور العاطلين عن العمل الذين ينتظرون على باب الله ولا أحد يعلم ماذا ينتظرون بالتحديد، لكنه ما

لبث أن فوجئ بتعيينه في سلك التدريس معلما في مدرسة ثانوية بإحدى البلدات النائية وفي غير تخصصه العلمي، يومئذ قدر بحسبة بسيطة أن تكاليف المواصلات من وإلى المدرسة تزيد عن معاشه الشهري فلا يجني في نهاية المطاف سوي الصداع والتعب، ثم هو لا يطيق القيود حتى إذا كانت من حرير، طرق أبوابا كثيرة للتوظف في المدينة ولكن أحدا لم يفتح له، ولذا فقد قرر وهو يراوح بين اليأس والرجاء تجربة حظه ومفاهيمه اللامبالية في السوق السوداء، على أن يتعرف أولا على أسرارها ورموزها قبل أن يدلف إلى ساحتها الفسيحة، لم يكن هناك من وجود لهذه السوق إلا في خياله المحموم، وقد ظن لأول وهلة أنه لا يختلف عن أي سوق من الأسواق التي تنعقد ليوم واحد في الأسبوع، وبذلك يمكنه أن يهتدي لموقعه بسؤاله لأول شخص يصادفه في طريقه لكنه كان واهمًا، فظل يدور حول نفسه كالنحلة إلى أن علم أن هذه السوق لها أبواب سحرية ونوافذ من البلور يمكن أن تتهشم إذا ما أطال المرء التحديق فيها لأكثر من دقيقة واحدة، سوق بلا هوية وكل روادها من الأشباح، فكان لا بد من أن يتخذ هو الآخر هيئة شبح وأن يتعلم لغة زبائنه الذين يرتدون أقنعة كما في حكايات وقصص الخيال العلمي، كاد أن يتراجع وهو مازال في أول الطريق لا يدري إلى أين يتجه متوجسا من الإخفاق وخائفا من أن يتوه في السراب، ولكن تمسكه بروح المغامرة التي طبع عليها، زيادة على مواهبه في الغش وجرأته وقابليته للتلون كالحرباء عند اللزوم، بل وحتى تغيير جلده واسمه إذا دعت الضرورة، كل ذلك كان من العوامل الحاسمة التي دفعت به لاقتحام مجاهل السوق السوداء.

بمـــرور الوقت تجمع لديه ما يكفي من المعلومات الأساسية لأن يمشـــي في الاتجاه الصحيح من دون عثرات أو كبوات مؤلمة، وهكذا توجـــه ذات صباح إلى سوق المشير بنظارة سوداء على عينيه وحقيبة بـــنفس اللـــون يؤرجحها في يده، وبهذه الهيئة المريبة كما لو أنه تاجر مخدرات متخف تاه في الزحام، لكنه عقب جولة بطيئة في السوق أطبق بأصـــابعه الخمســـة على رزمة صغيرة من الأوراق الخضراء أحس بملمســـها الـــناعم في كفه فيما خفق قلبه بعنف وهو يدسها بحرص في جيب سترته، لا يدري ما الذي باعه وما الذي اشتراه ولا كيف وصلت النقود إلى يده وإذا ما كانت نقودًا حقيقية أم أوراقًا مزيفة، ولكن ما هو أغرب من كل ذلك تعرفه على نماذج من البشر ما كان يتخيل من قبل وجودهم على ظهر المدينة، رجال ببذلات حريرية وربطات عنق فاخرة وقواديـــن وداعرات ورجال أعمال مزيفين ومهربين كما في القصص البوليسية، كان أول ما جناه في يومه الأول هو كل ما يحتاجه من الثقة في النفس لكي يصلب قامته ويوسع من مشاريعه المربحة.

لقد رأى العالم من وراء نظارته السوداء بغير ألوانه المألوفة التـــي تعـــرّف علـــيها في طفولته وظلت كما هي في أوراق الشجر والـــرمل والزهور وريش العصافير لكنها انطفأت وامحت، فما عاد هناك سوي لون واحد يميل إلى الرمادي يطفو على كل الأشياء من حوـــله بما في ذلك حجارة الشوارع، بل وما عاد يسمع دقات القلوب وإنما صدي عواء يصم الأذن كمن يدلف إلى غابة تغص بالوحوش والطـــيور الجارحـــة، عـــند عودته إلى منزله تحت جنح الظلام لم يرســـوى نجمـــة وحـــيدة فـــي حجم حبة العدس. وحتى هذه النجمة

الشاحبة اختفت من سمائه فيما بعد، ما أن غدت النقود تجري في يده حـــتى فكـــر بأنه قد حان الوقت لاتخاذ شريك ثقة وكتوم يمرر من خلالـــه صـــفقاته المريـــبة فلم يجد من هو أقرب إليه من عمر عبد الحمـــيد لكونـــه صديق عمره أولا، وثانيا لأنه بلا عمل يتعيش على نصـــيبه مـــن ميراث أبويه، وهو الميراث الضئيل الذي قاسمته إياه أخت مجهولة لم يعرف بوجودها أو يلتقي بها إلا عند بيع البيت بعد وفـــاة أمـــه والشروع في حصر التركة فأعلنت عن نفسها في آخر لحظـــة علـــى أنهـــا شقيقته من أبيه، كان يبحث عن فرصة مواتية لمفاتحته في الموضوع إلى أن ضبطه ذات يوم وهو يعيد ربما للمرة العشرين كتابة طلبه للتوظف فقرفص قبالته وقال:

- الدنيا حظوظ يا أخي عمر كما هو في عرف الناس، ولكن الحظ إذا كان لـــه وجود فعلا فإنه في رأيي أعمي وبلا أرجل، ولذا فانه يتوجب على المرء إذا أراد أن يعيش حياته كما يرغب أن يفتش عن حظه في كل مكان، حتى في دورات المياه.

ومع أن حديثه هذا كان أقرب إلى من يهذي في نومه، يتقطع فـــي وقفات غامضة وتنهدات مكتومة فقد تمكن عمر عبدالحميد من الـــتعرف علـــى الطريق الذي رفع الصومالي يده لكي يشير إليه من أول علامـــة، الطـــريق المزروع بالألغام، يستدل عليه الناس براية عليها رسم عقرب مثبتة في رأس عصا من الحديد، فما عليه في هذه الحالـــة إلا أن يتعلم القفز كالقرود لكي يجتازه بسلام، وبذلك يحصد الـــنقود بالمـــنجل كما لو أنه في حقل من الشعير، متعرقا من الغيظ لا لقلـــة أرباحه وإنما لأنه يطمع في أن يجني بين يوم وليلة ما يكفيه

من الأموال لابتياع قطيع من النساء الفاتنات وبناء قصر من المرايا مقابل شاطئ البحر، وكل ذلك بعقد واحد يوقعه بطرف إصبعه.

وبعد هذه المقدمة التي تشبه الطعم أضاف الصومالي قائلا:

- لو أنك تنضم إلى فسوف تكسب في ظرف سنة واحدة، ما يمكن أن تكسبه من وظيفة البيئة والتلوث في عقد من الزمن، هذا إذا وفقت في الفوز بها.

عندما لم يستطع التحقق من مغزى النظرة الغامضة التي حدجه بها عمر عبد الحميد من فوق يده المرفوعة بورقة الطلب الوظيفي، تابع بصوته المبحوح مدمدما:

- تأكد يا عمر أن كل ما يهمني هو مصلحتك، الحياة يا أستاذ لا تحتمل خطوة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء، ثم هي حياة قصيرة وسريعة الزوال، ومن الظلم أن نضحي بها تحت أي اسم من المسميات كما لو أنها دجاجة لا تبيض.

كان قد وصل إلى السطر الأخير في ديباجة طلبه الوظيفي الذي يعلق عليه كل أماله فتوقف عنده وقال:

- برغم كل شيء فأنا لا أستطيع أن أخدع نفسي وأضحي بنصائح أمي، أخاف أن تغضب مني وتلعنني حتى وهي تعيش في منفاها الأبدي.

- نصائح أمك؟!

قهقه يوسف الصومالي ثم صاح مشدوها:

- كأنك تريد أن تقول أن البلاهة نعمة من الله، افتح عينيك جيدا وسوف تري أنه لا خيار أمامك.

طــوى عمــر عبد الحميد ورقة طلبه الوظيفي ووضعها في مغلف، ثم نهض واقفا فيما ظل الصومالي مقرفصاً حيث هو.

- حتى إذا تحولت السوق السوداء إلى جنة عرضها السماوات والأرض فأنا لن أغامر بدخولها، أرح نفسك وأرحني من فضلك.

ومــع ذلك فقد فكر تاجر السوق السوداء المستجد أن بامكانه بمــزيد من المراوغة والإلحاح تليين دماغ عالم الكيمياء الساذج هذا وجره إلى عالمه الذي تعرف هو على كل أبوابه السرية، كان يدرك بــأن هناك خيطًا رفيعًا لا يكاد يري يفصل بين الحلال والحرام في دنــيا بعض الناس من أمثال عمر عبدالحميد، ولكن حتى هذا الخيط تقطــع أو يوشك على ذلك لاستماتة البعض في التعلق به وشده في هــذا الاتجــاه أو ذاك، ومعنــي ذلك أنه لم يعد هناك مجال للتردد والموازنة، فإما أن يمضي الإنسان في اتجاه الرياح الطيبة منساقاً مع تــيارها الجــارف أو يظل كالجرذ يندب حظه التعس لأن رعبه من قطة وهمية حرمه من قطعة الجبن الدسمة، فظل يناور متوجسا وهو يمســح علــى شــواربه الشوكية إلى أن التقطها جرذ آخر كان يمر بالمصادفة.

- 7 -

لـــم يجد فيما يبدو لعبة أخرى يتسلى بها غير عد الأيام التي انقضـــت مـــنذ تســـلمه لوظيفـــته الوهمية في القبو بدءا بيوم السبت التاريخي في حياته الوظيفية والعاطفية، يعدها على رؤوس أصابعه مـــرددا الأرقـــام بصوت مسموع كما لو أنه يسبح بحمد الله إلى أن توقف عند يوم الجمعة، هي نفس العادة التي اكتسبها في طفولته لدي التحاقه بالمدرسة الابتدائية حتى لا تضيع منه الأرقام فيقع في أخطاء لا منجاة من تحمل عقوبتها المقررة في مثل هذه الحالة. مضى يجمع الأيام ويراكمها رافعا يده في الهواء وقد ثنى إصبعه السبابة، كان من قبل يعد الأرقام الحسابية ويحفظها عن ظهر قلب لأنه ملزم بذلك. أما الآن فهـــو يحصى الأيام برغم إدراكه أن الزمن أرخص شيء لدى الـــناس، أرخـــص من قدح الشاي ومن فنجان القهوة السوداء، وكأنه الـــرمل الذي يتطاير في الجو بكثافة في أثر الرياح الحارة التي تهب من الجنوب الصحراوي، وقد أصبح لرتابته وتشابهه زمنا للانشطار والـــدوار، وخاصـــة بعـــد أن كلف رسميا بمسامرة الموتى والترحم علـــيهم، فأصـــبح هـــو نفسه كالدوامة يدور مع الزمن في فضاء لا نهائـــي. بعـــد أن انتهي من حساب الفترة الزمنية المتبقية حتى آخر الشـــهر لكي يقبض أجرته من خزينة الشركة العربية العامة لحماية البيـــئة ومكافحة التلوث، انتقل إلى حسبة أخرى وهي قياس المسافة الزمنـــية التـــي باتت تفصله عن ليلته الماجنة التي قضاها في سرير عصـــفورة اللـــيل متقلبا على بطنه وظهره محموما بشبقه، لقد ظل

طـيفها يلاحقــه بإلحاح في النوم واليقظة وفي كل وقت وهي التي أحبته من دون شروط ومنحته جسدها بالمجان رافضة بحزم أن تمد يدهــا إلى درهم واحد من نقوده، بل وزيادة على ذلك فقد شرب من يدهــا قهوة الصباح، وحين رافقته لتوديعه حتى الباب الخارجي قبلته وقالت لـــه مبتسمة بأن في إمكانه أن يطرق بابها متي يشاء ليجدها فـــي انـــتظاره هـــي وفستان نومها البرتقالي وقهوتها وكل أشيائها الحميمة، وأضافت قائلة بصوتها الناعم:

ـ يا ليت كل الرجال مثلك يا العمر طيبون و.......

ولكـــنها كمـــا لـــو أنها غصت بالكلمة الأخيرة فعبرت عنها بضحكة مهنية، وعندما وضع قدمه على عتبة الباب استوقفته لتحدد لـــــه بدقـــة مواعيد تواجدها في المنزل، موضحة لـــه أنها تفضل حضـــوره ملفوفـــا فـــي ســـتائر الظلام، حين تنام الرياح في شقوق الأبواب وعيون السكارى، وتفرغ هي من آخر جولاتها المسائية في مـــتاهة الكبـــت، عندئذ لن يشغلها عنه شيء، مؤكدة لـــه أن الوضع سوف يكون أفضل في المرة القادمة لأن مثل هذا الشيء لا يمنح ولا يؤخذ دفعة واحدة.

وبـــرغم هـــذا الموعـــد المفتوح على سعادة الفراش فقد ظل مـــترددا فـــي طـــرق بابها إلى أن التقي بها صدفة ذات صباح لدى توجهـــه إلـــى مقر عمله مبكرا حتى لا يسرقه الوقت، حيته بصوت مـــرح ودعـــته بعفوية إلى تناول فنجان من القهوة على حسابها في مقهى قريب يعرف بمقهى الوردة البيضاء تعودت اللجوء إليه للراحة

حالما تفرغ من أحد زبائنها، آملة في العثور على رجل آخر تتواصل معه بنظرة أو إشارة، لم يعرف كيف يعتذر لها لخوفه من أن يتأخر عـن التوقيع في سجل الحضور والانصراف كموظف دؤوب يحترم الـنظام ومواعـيد العمل حتى وهو لا يجد قشة يحركها من مكانها طـوال ساعات يومه في الشركة، يحرص على ذلك بالرغم من أن هـذا الانضـباط الوظيفـي لا أهمـية لـه في عرف المدير العام ومسـاعديه من مدراء الإدارات المختلفة، فهم جميعا يتوافدون على الشـركة في حدود الساعة الحادية عشر يتقدمهم المدير العام برأسه المدخـن وعينـيه المحتقنتين بتأثير سهراته الماجنه التي يحييها في مزرعته المهربة من أراضي الدولة وعادة ما تمتد حتى الفجر. وعند عودته إلى المنزل ينام كالحجر، وغالبا ما يفيق من نومه وهو مازال يحلـم بنهد امرأة من نساء قطيعه المتنامي يغمسه في كأس من النبيذ المعـتق، ويقضـمه بأسنانه كالتفاحة منتشيا بتأوهات صاحبته التي لا تقـل عنه تهتكا ومجونا، عندما أمسكت كنزة بيده لم يجد بدا من مرافقتها طائعا إلى المقهى بالرغم من خجله وضيقه من الظهور علنا بصـحبة امرأة سيئة السمعة بتبرجها وفستانها الطويل المشقوق عن نصف الدنيا.

كان المحل يعبق برائحة الطعمية والمخللات، ولكنه كان شبه مقفـر مـن الزبائـن فيما عدا رجل وحيد يرتدي جلبابا على اللحم ويحيط رأسه وأذنيه بعمامة بلا لون يتدلى طرفها المتسخ على كتفه، كـان كما يوحي بذلك مظهره الرث واحدا من أولئك العمال الغرباء الذيـن جـاءوا من وراء الحدود مهرولين بأمل اللحاق بوليمة النفط

الــباذخة، لكنهم فوجئوا مخذولين بانقضائها، فلم يتبق منها شيء إلا الــرائحة، فراحوا يتنفسونها في الهواء متعيشين على فتاتها الذي لم يكــنس بعــد، طوق الرجل الغريب كنزة بنظرة مفترسة تنز رغبة وحسرة لدى دخولها إلى المقهى متنكبة ذراع عمر عبد الحميد، ولكنه مــا لبث أن انصرف كما يبدو إلى تذوق نكهتها في قدح الشاي الذي أخــذ يرتشفه بصوت مسموع، أما هي فلم تكترث به ليقينها من أنه يشبه فأر الجامع الذي بالكاد يجد ما يسد به رمقه .

قعــدا متقابليــن إلى منضدة شاغرة بجوار الباب مطلين على متاهة الشوارع الموسومة بالكآبة وهي شبه خاوية، وكما هي في مثل هذا الوقت من الصباح حين تهب المدينة من نومها القلق على مواء القطط وصفير الرياح الهائمة في الأزقة الضيقة، فلا أحد يتذكر كيف كانــت في زمن مضى وهي في أوج حيويتها وزخمها، تنهض من أحلامهــا الــزائفة فــي أثر ضجة نداءات الباعة المتجولين ورائحة القهــوة التي تغلي على النار وصرير المفاتيح التي تدور في الأقفال الصدئة وجوقة المؤذنين التي تنادي للصلاة، أما الآن وبعد تعرضها لمحــنة الهجــرة الجماعية فقد تحولت إلى مدينة للسكارى والغرباء والمتشــردين مــن كــل الجنسيات، وإذا كان هو لم يشهد تحولاتها التاريخــية بطابعها المأساوي، وقد يكون واحدًا من المتطفلين عليها فإنــه مع ذلك مدرك لكل وقائع زمنها الغابر ونكباتها وأحزانها من قــراءاته عنها في الصحف والمجلات المصورة، وفي بعض الكتب التــي تشيد بمعالمها وماضيها العريق بأساليب حالمة ومشفقة وكأنها تنعيها، وكذلك معلوماته التي استقاها من ذكريات وروايات عدد من

الشـــيوخ المعمرين الذين يلتقيهم أحيانا في المقهى المطل على ميدان الساعة، وهم من ضمن قلة من السكان تمكنوا من الصمود في وجه تيارات الأوهام الملمعة، فصمموا على البقاء حيث هم متشبثين بهذه المديـــنة التـــي برغم جدرانها المتداعية وجرذانها المتوحشة كما قال أحدهم بصوته الرخو فهي بالنسبة لهم كالبحر للسمك، يتنفسون برئتها حـــتى إذا كانـــت معطوبـــة، متبركين بحجارتها وأضرحة أوليائها الصالحين صباح مساء.

كان مستغرقا في تأملاته الصامتة عندما أشارت كنزة مفرقعة بأصابعها إلى صاحب المحل، ثم طلبت منه إعداد رغيفين من الخبز محشوين بالبيض المقلي في الزبدة مع رجاء أن يرفقهما بكأسين من عصـــير الـــبرتقال شـــاكرة إياه مقدما على خدماته، ولكن عمر عبد الحمـــيد الـــذي تعود في ظل العزوبية على شرب قهوته على الريق اعـــتذر بلـــباقة عـــن الأكل، ومع ذلك فانه مالبث أن رضخ لإلحاح مضيفته الجميلة مصرا على الاكتفاء ببيضة واحدة مسلوقة في الماء، أما هي فقد قالت منددة بعدم شهيته للأكل.

- يجب أن تأكل جيدا يا العمر لكي تحافظ على صحتك.

وأردفت بلغتها المهنية:

- وحـــتى لا يـــتوقف قلـــبك عن النبض عند أول طلقة غير صائبة في السرير.

ضحكت لما قالته بمرح وهي ترمقه بنظرة جانبية من عينيها المكحولتين، ثم شرعت كفها وأخذت تدير إصبعها الوسطي في دائرة

الحــناء الغامقــة التــي تتوسطه فيما يشبه زنبقة سوداء معبرة بهذه الحــركة عــن لب تفكيرها وهمومها التي قلما تتجاوز قوائم السرير الــذي تستلقي عليه كامرأة للإيجار، وهو الشيء الذي تهجس به في كل حين بحكم تداعيات أسرار المهنة ورسوخ قدمها في دنيا المجون والتهــتك، لكــنه لم يستغ مزاجها العابث فأشاح بوجهه، وأخذ يرقب خطوط الحياة في وجوه المارة القلائل الذين يعبرون من أمام المقهى مدموغيــن بالفقر والذهول، فقلما يظهر أحدهم وفي قدميه حذاء لائق أو ســترة غــير مجعــدة، إلا أنه في غمرة تعجبه لما تفرزه المدينة القديمة من نماذج بشرية ممسوخة تذكر مغموما بأنه يكاد يشبههم في كل شيء بمعطفه البالي وشحوبه، حتى أنه منذ عدة أسابيع وهو يفكر فــي اقتــناء حــذاء جديــد يليق بوضعه كموظف محترم في شركة محــترمة، غــير أنه ما يلبث أن يؤجل مشروعه هذا إلى أن يطرأ بعــض التحسن على وضعه المالي حرصا على مدخراته من ميراث والديــه، وتحسبا من أن يطلق فيها يده بلا رادع فينتهي إلى الإفلاس والــندم، التقط البيضة المسلوقة من الصحن برؤوس أصابعه وأكلها علــى دفعتين، وفيما هو يحتسي قهوته برشفات صغيرة وبلا صوت غمرت كنزة يده بكفها الدافئة، ثم قالت بدلال:

- يبدو أنني لم أعجبك في تلك الليلة؟!

فاجأته بقولها هذا وكأنها تدعوه في هذه اللحظة بالذات لرحلة ثانــية فــي ســريرها المنزلي كيما تصحح أخطاء أو هفوات المرة الأولــى، إنهــا بــلا شــك امرأة فاتنة ومتمرسة في طقوس الغواية والإثــارة بنهديها الحالمين وساقها التي في بياض العاج يكشف عنها

ذلــك الشــق العريض في جلبابها الحريري وهي تضع رجلا على أخرى في عرض صاعق للأنوثة المعدة للتسويق، كم عدد ضحاياها مــن غــير زبائــن الحرام يا ترى؟ وكم عدد أولئك الذين تاهوا في ســرابها وهـــي تخطو أول خطواتها في عالم الرذيلة، ببحة صوتها وتلونه وهذه الرقة التي تتعمدها في حديثها تذكره بهديل الحمام الذي يحــط فـــي فـــناء المنزل لالتقاط فتات الخبز، ومع أنها امرأة تحت الطلــب جاهــزة ومتأهبة على الدوام لتلبية أول إشارة تأتي من أي اتجــاه فـــلا يبدو من سلوكها أنها نادمة على ذلك، وكأن المرء في اســتطاعته التكيف باستمرار مع ظروف وتقلبات حياته كيفما كانت، حـــتى إذا كانـــت تفـــتقر إلى أبسط الشروط الإنسانية، أو أن العادة تســـتعبده إلى حد أنه لا يتلاءم معها فحسب بل وقد يستعذبها أيضا، حدق في قناع الأصباغ الذي تضعه على وجهها وقال:

- بالعكس يا كنزة، لقد كنت طيبة معي إلى أقصى ما يمكن؟

- طيبة فقط؟

فكّر إلى أي حد كانت بارعة في طقوس الحب الجسدي متقنة لأساليبه الغريبة التي ما كانت لتخطر لـــه على بال، كم كانت نهمة وجموحـــة وهي تجرب معه كل الأوضاع التي تقع فيما وراء الخيال أو علـــى تخومـــه، من الممارسة ذات القواعد الخمسة على الطريقة الصينية التقليدية التي لا يدري من أين تعلمتها، إلى فنونها الكهنوتية البطيـــئة لدي الفراعنة، إلى طقوسها السحرية لدي الأفارقة، إضافة إلـــى شـــططها هـــي مستغلة بمهارة خبراتها المتوارثة عن جداتها

العربيات في عصورهن الزاهية وهن اللاتي ما كن يخجلن من شيء عندما تسدل إحداهن ستارة خيمتها متخفية عن العيون المتطفلة، فلا يهمهـا عـندئذ أن يسـمع الناس تأوهاتها وقرع طبولها كما بعصا سـحرية وهـي تتقلب كالسمكة بين ذراعي الرجل الذي ساقته إليها العـناية الإلهـية، كان لديها تجاربها المتراكمة على مر السنين بما يفـوق كـل التصورات، لكنها أذهلته عندما دعته إلى الالتصاق بها وهـي تهـم بالتحليق في الهواء، فكر لأول وهلة بأنها لعبة مستحيلة وأنها غير جادة في طلبها إلا من باب المزيد من التهتك والإثارة، فلا هو فقد رشده، ولا هي فراشة يمكنها أن ترفرف في الفضاء، وبرغم ذلك لا يدري حتى هذه اللحظة كيف جرت الأمور كما تحب، وكيف رآها بالفعل سابحة في الجو بما يشبه خداع البصر متعلقة بحبال غير مرئـية، وكـيف تعلق هو بها وكأنها أرجوحة إلى أن سقطا معا من عليائهما على الأرض لاهثين ومتعرقين.

أسعدها بإطرائه لها بالرغم من أنه يتحدث بلغة خجولة وبالغة الـتحفظ لـم تتعودها من زبائنها الآخرين الذين تلتقطهم من الشارع بغبارهم وعرقهم مبللين بدموع الشهوة وهي تسرح طوال النهار من زقـاق إلـى آخر مدققة في الوجوه والملابس حتى يمكنها اقتناص الـرجل الملائم الذي تتوسم فيه توقد الرغبة مدعومة بفائض نقوده، كمـا أن لديهـا محطـات أخرى إضافية في سوق المشير وميدان الشهداء وموقف سيارات الأجرة على امتداد أسوار السرايا الحمراء والسـاحة المجاورة للفندق الكبير، أما إذا تمكنت من التسلل إلى هذا المبني الفخم فإنها قلما تغادره إلا وهي تجر وراءها واحدا من نزلائه

مـــن العـــرب أو الأجانب وهم الذين يدفعون بلا حساب، ولكنها لا ترافق أحدا كائنا من كان إلى غير غرفتها الآمنة المؤجرة من امرأة عجـــوز محـــترفة للتسول لكي تستخدمها في نطاق مهنتها في جلب الزبائـــن وإمـــتاعهم، وبمـــا أن هذه العجوز الكتومة قلما تتواجد في مـــنزلها إلا في بعض الحالات الطارئة كما في حالة تعرضها لوعكة صـــحية أو لنزلة برد أو عند تفاقم آلام مفاصلها، أو إذا كان الطقس سيئا والرياح البحرية تطارد المارة بسياطها الباردة في الشوارع فلا تجـــد مـــن تمد يدها إليه طلبا لحسنة، فكانت كنزة تستغل غيابها إلى أقصي حد ممكن، فلا تضطر في هذه الحالة إلى إغلاق باب الحجرة فتـــتركه مفتوحا على مصراعيه ومن ثم تدعوا زبونها إلى مشاركتها لعبة القط والفأر التي روت تفاصيلها لعمر عبد الحميد في فجر ليلتها الأولـــي معـــه، بادئة باحتفالية الثياب التي تنزعها عن جسدها قطعة قطعـــة بحركة مسرحية فيما الزبون يحملق فيها وهو شبه غائب عن الوعـــي لا يكـــاد يصـــدق ما يجري إلى أن تدنو منه ثم تسحبه من أقمطـــته كمـــا ولدته أمه، وعندما تزف اللحظة الحاسمة تهرب من زبونهـــا الهـــائج وهـــو يتصبب عرقا بما يؤدي إلى إثارته إلى حد الجنون، فيشرع في مطاردتها كالثور الذي تختفي من أمام عينيه كل الألـــوان فـــلا يبقـــي إلا اللون الأحمر الذي يزيد في هياجه فيجري وراءهـــا كالأعمى من حجرة إلى أخرى ومن الفناء إلى المطبخ إلى أن يصـــيبه الـــدوار، إذا ذاك تلجـــا إلـــى السرير مزقزقة ومتأهبة لاستضـــافة هذا المخلوق الذي عصفت به غرائزه كألسنة اللهب في فراشـــها، فـــلا يبقـــي عندئذ إلا أن يرعد ثم ينفجر فيها بكل بروقه

وغــيظه، ولكنها ما تلبث أن تصده مطالبة إياه بزيادة الأجرة المتفق عليها إلى النصف وإلا فلا.

ـ وأنــا أيضــا لــم أكن أتخيل وجود رجل في هذه المدينة المنحوسة بمثل هذا التهذيب و.....

احتفظــت بالكلمة الأخيرة على لسانها مستبدله إياها بضحكة رنانة واثقة من إدراكه لما تعنيه حتى إذا كان حمارا ببردعة، كانت مقــبلة علــى الحــياة بشراهة جرادة برغم جروحها السرية التي لا تــندمل، كــل همها الترفيه على الناس وتركهم يأخذونها كلها على بعضــها كمدينة مشرعة الأبواب لكل الرجال حتى إذا كانوا من أكلة لحــوم البشــر، لكــنها تود في بعض الأحيان لو أنها تذبحهم جميعا بسكين مثلومة، وفي غمرة فرحة قلبها وجسدها بهذا المخلوق النادر قررت منحه موعدا آخر فقالت له:

ـ أنا عادة لا أعمل في يوم الجمعة، ما رأيك في وجبة غداء أعدها لك بيدي لم تذقها أبدا في حياتك، وسوف أقدمك إلى صاحبتي فطيمة بصفتك طبيبا روحانيا.

بدا ساهما عندما أجابها متمتما:

ـ إن شاء الله.

كان في نبرة صوته ما يشي بأنه لم يحسم أمره بقبول الدعوة، فتنهدت وسألته:

ـ هل ستأتي أم لا؟

هز رأسه بنعم حالما أخذت عصافيرها الخفية تغرد من حوله:

- سأحضر يا كنزة.

نظر في ساعة يده، كان الوقت يقترب من السابعة والنصف، ومعنـــي ذلك أنه بالكاد يستطيع بلوغ مبني الشركة قبل سحب سجل التوقيعات الموضوع على منضدة صغيرة بحذاء مكتب الاستعلامات، نهــض واقفــاً وبعد أن شكر كنزة على وجبة الإفطار مودعا إياها بمــزيد من الامتنان انصرف مهرولا في طريقه إلى الشركة العربية العامة لخدمات البيئة ومكافحة التلوث، كانت السماء فوق رأسه أشبه بقــبعة ضخمة منسوجة من السحب السوداء التي احتشدت برعودها في وقت مبكر من الصباح منذرة بجو عاصف، الرياح البحرية تجلد الـــناس بذيولها المشبعة برذاذ المطر، تدفق أرتال السيارات الذي لا ينقطع، الاستياء من صعوبة العبور من رصيف إلى آخر، المحلات التجارية تكتظ بالبضائع الاستهلاكية المجلوبة من كل أنحاء الأرض ولكــن الــركود يخيم على التجار والباعة الذين يقطعون الوقت في الفــرجة والتأمل بتركيز وانبهار في مخلوقات الله اللطيفة مستمتعين بعــروض الأنوثة المجانية التي تجري على الأرصفة، هناك روائح العطــور التي تهب عليهم من كل اتجاه ونماذج الثياب الضيقة التي ترتديها الفتيات من تحت جلودهن وفوقها المناديل الملونة التي تغطي الرأس ولا أحد يعلم ما هي الحكمة من ذلك، كما لو أن شعر المرأة من دون بقية أشيائها الحميمة السبب الرئيسي في طوفان نوح.

في هذا الجو الغائم الذي تختلط فيه أسراب النساء ببرودة الجو

وهدير البحر انهمرت السماء بوابل من المطر، كان من حسن حظه أن المســافة المتبقية حتى مبنى الشركة لا تزيد عن مائتي متر، ومع ذلك فلم ينج من البلل، ولكنه كان متفائلا عندما دلف إلى مكتبه تحت الأرض بمكاسبه التي تحققت منذ تسلمه لوظيفته في القبو، فقعد على منضدته الصدئة ليعدها على رؤوس أصابعه، فلديه الآن امرأة تحت تصــرفه يمكنه أن يلوذ بجسدها المعطر لينام في دفئه وينعم بشدوه كلمــا ضاقت من حوله حبال الرتابة والعزلة، وهناك أحلام التي هي كــل عزائه في مأزق وظيفته الجنائزية فصار يحبها من أجلها، بل ويتمنـــي دوامهـــا، فلم يعد يشعر وهو ينتظرها بثقل الوقت وتخمره، ومـــا عاد يقلقه شبح الموت القابع في الملفات المغبرة، هذا بالإضافة إلـــى أساطير عبد الدائم المسلية والمثيرة لفضوله، تذكر ما يتغنى به شـــيخ الجامع في خطبة الجمعة من أن المرء حين يعدد نعم الله فمن الصـــعب أن يصل إلى حدودها لأنها بلا حدود، ومعني ذلك أن ثمة نعـــم كثيرة لم يجنها بعد، ولكن يكفيه حتى الآن مكاسبه التي تحصل عليها دفعة واحدة وفي زمن قصير، فها هي الدنيا تفتح لــــه ذراعيها وتدعوه إلى معانقتها في عيني أحلام الساحرتين، في نقاء مشاعرها وشقشـــقتها كلمـــا هبطـــت إلى القبو، وكذلك في سخاء كنزة ونياتها الحســـنة ـ تجاهــــه، إن كل ما يحتاجه الآن هو أن يشحذ همته لكي يـــنهض مـــن كـــبوة الإحباط التي غمرته بظلالها السوداء منذ اليوم الأول لفـــوزه بالامتياز في الكيمياء الحيوية، أنه يشعر الآن بمشاعر حارة تدعوه إلى تجاوز كرسيه في القبو إلى آفاق الدنيا الواسعة، لم ينـــتظر طويلا عندما فرغ من تقصى مكاسبه ونجاحاته، فما أن قلب

صفحة جديدة في أوراق عبد الدائم حتى أدركه مسعود النقاز بفنجان القهـوة وبقصاصـة صـغيره دفع بها إلى سطح المكتب مع صينية القهوة، ثم قال وعيناه على القصاصة.

- الحساب يا أستاذ؟.

تطلـع عمـر عـبد الحمـيد إلى الأرقام الدقيقة المسجلة في القصاصة المقطوعة من علبة تبغ، ثم أزاحها بيده جانبا.

- وهل هناك حساب يا مسعود غير حساب يوم القيامة أعاننا الله عليه.

لكـن المـزاح في مثل هذه المسألة الحيوية لم يرق للقهوجي الـذي سـمح لنفسه بالجلوس على الكرسي الوحيد في المكتب، فقد تجعد وجهه وهو يمضغ الهواء بأسنانه القليلة المتبقية في فمه.

- نعم يا أستاذ، حساب القهوة والشاي وغيرها.

- لا أظن أنه يوجد غيرها يا عمى مسعود إلا في خيالك!

عندئذ خبط القهوجي على ركبتيه وقال غاضبا!

- بـل يوجـد يـا عمـر، فلا بد من إضافة حساب النزول والصعود مرتين وأحيانا ثلاث مرات في اليوم.

هزّ عمر عبد الحميد رأسه وقال!

- فعلا يا عم مسعود فكل شيء بثمنه في هذا الزمن العجيب.

لقد ذكرته قصاصة الورق بحساب الزمن الضائع، فقد انقضى الشهر الثاني منذ التحاقه بوظيفته الوهمية التي ليس لها من وجود إلا

في سجلات الحضور والانصراف، ففي ما عدا توقيعه المقدس يوميا فليس هناك ما يشغل به نفسه سوى احتساء القهوة ومطاردة الفئران.

- تفضل يا مسعود.

مد مسعود النقاز يده بلهفة، وبعد أن تسلم مبلغ الثلاثة دينارات المسجلة على القصاصة دسها في جيبه بحرص، ثم نهض واقفا ومشى في اتجاه الباب، وعند العتبة التفت إلى عمر عبد الحميد وسأله فيما إذا كان في حاجة إلى أي شيء يوصيه به، ولكنه قبل أن يسمع الإجابة أبلغه بتغيب أحلام عن الشركة في هذا اليوم وكأنه يود أن يقول له بأنه لا معني لوجوده هو الآخر، أغمه الخبر وفكر أن الحياة لا يمكن أن تسير كالساعة بالرغم من كل ما بذلته البشرية من جهود على مدي التاريخ الإنساني للتحكم في حركتها وضبط إيقاعاتها وتهذيب مزاجها والحد من مفاجآتها الصاعقة، وبرغم كل ذلك الركام من القوانين والقواعد الأخلاقية الصارمة والتقاليد والأعراف الاجتماعية للسيطرة عليها، فكل ذلك يمكن أن يؤول إلى حطام وغبار في غمضة عين، فهو لن يرى أحلام ولن يرى وردة الشمس تنفتح عند إطار الباب، ولكن من المؤكد أنها سوف تهل عليه صباح الغد بابتسامتها المشرقة التي تهز بلادة مشاعره، ولكي يهرب من دوامة الخواء التي تتسع من حوله عمد إلى أوراق عبد الدائم فأخرجها من الدرج وشرع في فك طلاسم الفصل الثاني، أمسك بالقلم في يده وبدأ من السطر الأول في رحلة التيه، إلا أن مسعود النقاز لم يتأخر عنه طويلا وكأنه أشفق عليه من أن يضيع ست ساعات من عمره في غزل الأوهام فجاءه مهللا وبيده ملف غلافه أزرق، لوح به عاليا وهو يطل من باب الحجرة، ثم صاح:

- تفضل يا أستاذ عمر.

تقدم إلى الداخل ووضع الملف على سطح المكتب بحرص غريب:

- ما هذا يا مسعود؟

- أجابه القهوجي وهو مندهش للسؤال:

- ومـــاذا يمكن أن يكون غير ما قدر الله، منذ يومين فقط كان رحمه الله يحدثني عن خطبة ابنته التي فتح الله عليها بعريس وهي في الأربعين من عمرها، ولكن قلبه الضعيف لم يحتمل هذه المفاجأة السارة.

- صعقه الفرح؟!!

قال عمر عبد الحميد ذلك مشدوها، أما القهوجي فقد استطرد في حديثه لمزيد من التفاصيل.

- لـــو كنـــت مكانه لمت أنا أيضا دون أن يسمي على أحد، لعلمـــك يـــا أستاذ العبد لله أب لخمسة بنات أصغرهن في العشرين وكلهن مازلن في انتظار النصيب، أحيانا أفكر بأنني حتى لو قررت التصدق بهن فلن أجد من يقبل مني هذه الصدقات.

- ليس إلى هذا الحد يا عم مسعود، أنت تبالغ.

- بـــل وأكـــثر يا أستاذ، الحياة أصبحت صعبة ومريرة والله العظـــيم حـــتى إذا قبل أحدهم بواحدة من بناتي على أنها هدية مني فســـوف يرجونـــي أن أحـــتفظ بهـــا في بيتي لأنه ليس لديه سكن، أو لأنه لا يستطيع الإنفاق عليها.

أصـــغي عمر عبد الحميد بشرود إلى خطبة القهوجي ورثائه لبناته الخمسة، ثم قال مشفقاً على الرجل من حمله الثقيل.

- ولكن بناتك موظفات على حد علمي.؟!

فرد مسعود النقاز.

- ليس كلهن، أما إذا كنت تعني المرتب الشهري فهو لا يكفي ثمن حذاء وفستان.

عند انصراف القهوجي المهموم بمصير بناته العانسات سحب الملف الأزرق في اتجاهه وشرع في تصفح أوراقه التي لا تقل كما قدرها عن مائة ورقة أو أكثر، بعضها مطبوع بخط دقيق على الآلة الكاتبة ومختوم بختم الشركة العربية العامة لخدمات البيئة ومكافحة التلوث وبعضها الآخر محرر بخط اليد، هذه الأوراق هي خلاصة حياة وعمر ذلك الرجل وتاريخه السري وكأن لاشيء يأتي من خارجه، كان من المتوقع إحالته على التقاعد بعد أشهر قليلة كما تشير إلى ذلك شهادة ميلاده، ولكن الرجل الحكيم قرر فيما يبدو الترجل عن كرسيه بإرادته من دون انتظار لما يأتي به الغيب في مركبته الخفية مفضلا الانسحاب ليس من الشركة فحسب وإنما من مسرح الحياة برغم اتساعه، ربما لإدراكه بأن دوره الذي ظل يمثله على خشبته لسنوات طويلة قد انتهي، وبذلك تحرر من كل متاعبه وأزماته المادية والروحية التي تقصم الظهر، هناك رسائل ترقياته، الصعود البطيء من درجة إلى أخرى في السلم الوظيفي وتعثره في أكثر من درجة طوال سنوات خدمته في الدولة وهو يجر متعرقا ولاهثا عربة خذلانه، هذا بالإضافة إلى عدد لا بأس به من الشهادات المرضية ورسائل خصم من المرتب وثمة تهديد بوقف ترقيته إلى الدرجة العاشرة دون

ذكــر الأســباب الموجبة لهذه العقوبة، عبر عمر عبد الحميد بكل هذه الأوراق التي لا قيمة لها فلم يتوقف إلا عند مذكرة من أربع صفحات تفــيد بإحالة الرجل إلى مجلس تأديبي، وكما جاء في ديباجتها بالنص "مــن أنه بالنظر إلى تحرشه بأحدي الموظفات وهي في عمر أصغر بناته وإساءة أدبه معها بحركات وإيماءات خادشة للحياء، لا تسيء إلى الأخــلاق الحميدة وسمعة الفتاة فحسب، وإنما تسيء أيضا إلى شرف الوظــيفة، فالتلوث الأخلاقي حتى إذا كان مضمراً وغير ظاهر للعيان أحــيانا وشخصي إلى حد ما فإنه مع ذلك لا يقل خطورة عن التلوث البيئي، ولذا فإنه بناء على توصية المجلس التأديبي فقد تقرر اتخاذ ما يلــزم من إجراءات رادعة بشأن المذكور أعلاه، وفي مقدمتها توجيه إنــذار إلــيه بأنــه في حالة تكراره لمثل هذه التصرفات غير اللائقة فســوف يكــون مصيره الفصل من الخدمة الوظيفية وحرمانه من كل حقوقه بما في ذلك حقوقه الضمانية".

أغلق الملف وأخذ يتأهب للانصراف عندما فاجأه صوت عبد الدائم من حيث لا يدري:

- مهــزلة يا أستاذ والله مهزلة، لابد أن الشخص الذي حرر هــذه المذكرة الطويلة العريضة على جهل بألف باء القانون، لأنه لا يجــوز فــي كل الأحوال وكيفما كانت الأسباب حرمان موظف من حقوقه الضمانية.

- 8 -

كـــان ينـــتظرها بـــنفاد صبر على الضفة الأخرى لأحلامه، وبالـــتحديد علـــى أعــتاب قلبه مخذولا ومشتتاً وكأنه يئس تماما من مجيــئها، وأن مرورها به لا يزيد عن نسمة صيف تهب حين يتنهد البحر ملوحا بأشرعته الشفافة في الهواء، تذهب ولا تعود ثم لا يبقي منها أي أثر، حتى القهوجي لم يغب عنه ما آل إليه موظف القبو من قــنوط وتعاســة يراها مطبوعة على وجهه بخطوط دقيقة، فيبدو في خمــوده وكأنه فقد حسه بالحياة من حوله، يطل عليه من إطار الباب بصـــينية القهوة فيراه متحجرًا في كرسيه، منحنيًا تحت ثقل الصمت الحديدي الذي يطبق على القبو طوال الوقت، فهو بالكاد يجيب على تحيــته بصــوت غــير مسموع ثم ينكب واجما على فنجان القهوة ويختفي فيه، أحس بالشفقة عليه وتمني في قرارة نفسه لو أنه يستطيع أن يمد لــه يد المساعدة، أو أن يواسيه على الأقل، ولكنه لا يعرف كــيف يواسيه ولا على ماذا، فإذا كان الأمر يتعلق بغياب أحلام عن الشركة فإنه في هذه الحالة أحري به أن يواسي نفسه.

مضـــت أربعة أيام على غيابها الذي لا يعرف أحد أسبابه بما في ذلك مسعود النقاز، وفي اليوم الرابع استغرقه التنقيب في أوراق عــبد الدائم كحل عملي وحيد للتحرر من أفكاره القلقة وتشاؤمه، فلم يعــثر علـــى شـــيء ذي قيمة في الفصل الثالث، هناك حديث غير متناســق عــن التخاذل والجبن وضعف الإنسان في مواجهة الأقوى الذي قد يتجسد في مخلوق بشري محكوم بهوس السلطة دائخاً وتائهًا

في ملكوتها الفسيح، يدوس على كل شيء يصادفه في طريقه فيما هو يمشي مهرولا باتجاه كرسي الحكم وفي يقينه أنه موعود به من يوم أن أنجبـــته أمـــه، بل إنها لم تنجبه إلا من أجله، وأحيانا يتجسد في امـــرأة حقودة ومتسلطة، أوفي الطبيعة حين يفلت زمامها فتنقلب إلى وحش أسطوري يفتح شدقيه لافتراس البشر والحجارة.

كانـــت مشكلة عبد الدائم كما تبدو من خلال أوراقه المتراكمة هـــي فـــي أنـــه لا يكاد يستقر على موضوع بعينه فبعد هذه المقدمة بلغـــتها المهلهلـــة انعطف في اتجاه ممر حياته الشخصية مسهباً في الثرثرة عن وضعه العائلي وأسرته المكونة من أربعة أبناء بالإضافة إلـــى زوجته المنحوسة على حد قوله، وكما جاء في هذا الفصل فقد تـــربّى أبناؤه في زمن آخر، زمن الذهب الأسود بفاكهته المعطوبة، زمـــن العبـــث واللاجدوي والبحث عن معبود آخر غير الله، نشأوا مدلليـــن، وما أن خرجوا من البيضة كالصيصان التي بلا ريش حتى تعلمـــوا فـــن إصدار الأوامر بدلا من تلقيها، رافضين مبدأ الاحترام والطاعـــة لولي الأمر، بل ورافضين حتى لمنظومة الأعراف والقيم والأخلاقـــية السائدة، فهي في منظورهم أصبحت بالية ومتخلفة عن روح العصـــر، ولكـــن كل ذلك كما ورد في المخطوط ليس معضلة بـــإزاء نزق زوجته الغريبة الأطوار وحماقاتها التي لا تطاق، بدأبها علـــى تقطير الثوم في عينيه حالما يفتحهما على ضوء الفجر، حتى قـــبل أن يســـتحم أو يشرب قهوة الصباح، تشرع لسانها الشائك فلا تطويه إلا في آخر الليل حين يغلبها النعاس فتنام في المكان الذي هي فـــيه منبطحة على بطنها فيما يتصاعد تنفسها تدريجيا إلى أن يتحول

إلـــى مـــا يشبه خوار بقرة مريضة، تقرعه بلا هوادة لأنه لا يبالي بشـــؤون ركـــاب سفينته المنزلية ولا بتربية الأولاد الذين شبوا عن الطوق، وتعيره لأنه ما زال يراوح مكانه منذ عرفته بكل ميراثه من الكسل وعدم الاكتراث، يدرج بساقيه الهزيلتين في آخر الشهر باتجاه خزيـــنة الشركة العربية العامة لخدمات البيئة ومكافحة التلوث ليستلم معاشـــه الـــذي لا يـــزيد عن حفنة من الدينارات المدعوكة والمبللة بالعـــرق، تطير كما لو أنها مسحورة في الأسبوع الأول من الشهر، ولـــولا حكمتها وتدبيرها كما تصرخ دائما في وجهه لاضطروا إلى تسول وجبة غدائهم من الجيران أو من إحدى الجمعيات الخيرية، هذا فـــيما الآخرون من نبلاء ثروة النفط وإقطاعييه إضافة إلى الموظفين الكـــبار والـــتجار والسماسرة والمهربين وحتى تجار المخدرات فهم جمـــيعا ينعمون في قصورهم الفخمة بالأجبان الفاخرة المجلوبة من الشـــرق والغـــرب والدجاج المحمر والكافيار وعسل النحل وشراب جوز الهند والأرز الأمريكي، يهدهدهم أثناء القيلولة تغريد العصافير المجلوبـــة مـــن جزر الكناري، حتى أحلامهم فهي من طراز أحلام الأمـــراء والملـــوك، وأما سياراتهم فهي من نوع الشبح التي تبرق بـــألوان الطـــيف، وفـــي الصـــيف مع هبوب الرياح الحارة العابرة للصحراء يسافرون إلى بلاد الشمال للاستجمام والتبضع والاستمتاع بجوها المعتدل، أما هو كما قالت لـــه مرارا فانه يستحق عن جدارة وسام القناعة الزائفة التي يتظاهر بها أمام الناس متباهيا لتبرير خمود همته وعجزه عن اقتناص نصيبه من الثروة التي هي في متناول يده، بـــل إنه لا يحرك ساكنا للاستفادة من امتيازات وظيفته كنائب للمدير

العـــام مرشح لاحتلال مكتبه الفخم وامتيازاته الخيالية في حالة انتقال هذا الأخير إلى موقع آخر أو إلى الدار الآخرة، وإذا كان هذا الوسام لـــم يوجد بعد فانه يتوجب إصداره من أجله، احتفاء به وتكريما لـــه لأنه ينفق وقته في اجترار الأقوال الخائبة عن العدالة ونقاء الضمير والشـــفافية ونظافـــة الـــيد والأمانة والنزاهة، وما إلى ذلك من هذه الترهات التي لا جدوى منها، فهي مجرد هراء عفي عليه الزمن، أما هو فما زال يتحصن بها وكأنها تعاويذ مقدسة.

ومـــع كل ما كانت تثيره في طريقه من زوابع ومنغصات فقد دأب على مهادنتها منذ أيام الزواج الأولي عندما كانا شابين ولديهما أحـــلام وردية، إلى أن اكتشف بعد فوات الأوان أنه ما كان يجب أن يتســـاهل مـــع حـــية رقطاء كبلته بعدد من الأطفال سيئ التربية، ثم امتطته كالدابة، كان يحني رأسه بإزاء عواصفها المغبرة ليمضي في طـــريقه وهـــي تدمـــدم من وراء ظهره، فكان أن فقد دفة القيادة في منزله وكأنه لا وجود له، فصارت هي صاحبة الأمر والنهي في بيت المجانيـــن الذي هي ربته الوحيدة، وهو الآن يعترف أن أم أطفاله قد تمكنت من هزيمته في حرب الأعصاب والتفاهات.

كـــان هـــو المرشح الوحيد لمنصب المدير العام بحكم موقعه وأقدميته وخبراته الإدارية، لا تفصله عنه سوى خطوة واحدة قطعها فـــي الحلـــم عـــدة مرات، فكان من الطبيعي أن يهيئ نفسه لاحتلال الكرســـي الـــذي يلـــيق به في المكتب الفسيح عندما فوجئ ذات يوم بـــانقلاب حظـــه وتحطمه على إيقاع خطوات رجل متوسط الطول، شعره مصفوف بعناية وله شاربان صغيران، ظهر بدون مقدمات في

رواق الطـــابق الخـــامس يحيط به عدد من الموظفين وهم يتمسحون بأطـــراف سترته مثيرين من حوله جلبة احتفالية غامضة، يومئذ ظل مســمراً فـــي مكانـــه عند باب مكتبه محدقا ببلاهة في ذلك المشهد المســرحي العجيـــب، وكمـــا كتب في أوراقه الملطخة بقطرات من العرق فان ذلك المنظر أثار حيرته ودهشته وكأنه يتفرج على موكب زفاف تجرى مراسمه في ضوء الشمس، متسائلا عن هوية العروس دون أن يخطر بباله حينها أنها الشركة العربية العامة لخدمات البيئة ومكافحة التلوث، كان يمكن أن يظل على عماه إلى النهاية، ولكنه لم ينـــتظر طويـــلا حيـــن عـــادت أمينة سر مكتبه عقب تفرق جموع الموظفيـــن وانطفاء الضجة لتبلغه أن ذلك المخلوق الأنيق والمزهو بنفسه قد قعد بأبهة على كرسي المدير العام .

كـــان يهم بالانتقال إلى فصل آخر من فصول نكبة عبد الدائم عـــندما رفع رأسه فرأي أحلامًا أخرى مستندة إلى إطار الباب غير تلـــك التي عرفها على مدي الأيام، منذ قابلها لأول مرة لدي التحاقه بالشـــركة وعزلـــته الإجـــبارية في القبو، أحلام بدرجة مدهشة من البهرجة والإثارة، متألقة في فستان جديد بلون زهرة القرنفل، يتطاير مـــن حواشيه شرر جمالها المهيج للدم في شرايين أي مخلوق آدمي حتى إذا كان معجونا من الطين، كانت متزينة ومشعة بشبابها الغض وتوردهـــا كما لم تكن من قبل، تطرف بعينيها المكحولتين، فيما هي ليســت بحاجـــة إلـــى هـــذا القـــناع من الألوان الحمراء والصفراء والبنفسجية لكي تعلن عن أنوثتها المطبوعة بسحرها الأخاذ على هذا النحو الصارخ، فلديها من الألوان الطبيعية ما يكفي لأسر كل القلوب التي تمر بها وإخضاعها لسلطة جسدها الطاغية.

لكنه لم يعرف فيما هي تطالعه بابتسامتها الشمسية كيف يعبر لها عن رأيه هذا دون أن يخدش كبرياءها الذي هو في رهافة زهور الظـــل، وقد تسئ فهمه فيقع في هاوية يحفرها بلسانه، لم يفكر وهو يدرك بأنه ليس من حقه أن يفكر بأن كل هذه البهرجة من أجله وأن ســـهامها الخفـــية موجهة إليه، إنها بتبرجها الفاضح هذا إنما تغامر بســـمعتها الناصـــعة كالبلور في أوساط موظفي الشركة، وهي التي عرفـــت علـــى الـــدوام بمظهـــرها المحتشـــم وتحفظها في سلوكها وتعاملاتهـــا مـــع الآخرين حتى لا تفتح على نفسها أبواب الأقاويل وسوء الظن، فكما يشهد على ذلك كل العاملين في الشركة فقد ظلت علـــى الدوام بمنأى عن شوكة وسكين المدير العام الذي كما يبدو لم يســـتطع حـــتى الآن جرها إلى شباكه المرصعة بالياقوت والزمرد بالرغم من أنه لا مفر من أن يلعق شفتيه بلسانه متحسرا كلما دخلت عليه في مكتبه، فلا يمكن بأي حال لجرذ مذهب مثله مهووس بلحوم النساء أن يغمض عينيه عن هذه الحواء الأكثر تشويقا برغم مظهرها المـــتحفظ، وإذا كـــان لا يـــزال يمثل عليها دور الشيطان النائم فان زلـــزالها الأنـــثوي سوف يوقظه ذات يوم من سباته بشهية مفتوحة لالتهام هذه التفاحة الناضجة بقشورها وبذورها.

كانوا مشفقين من أن تنطبق عليها مصيدة ذلك الرجل الجهنمي فـــي أي يـــوم بعـــد أن يكـــون قد أعدها بإحكام في انتظار الفرصة المواتية لاستدراجها إليها، ولكن أحداً منهم لم يفكر ولا خطر بباله أن هذه الحمامة الوديعة يمكن أن تتسلل على رؤوس أصابعها من وراء ظهر سجانها الأنيق لتهبط الدرج إلى قبو الفئران دون علمه، ولمهمة

محددة وهي استعراضٍ كنوزها الخيالية في حضرة ذلك الشبح القابع تحـــت الأرض ضائعاً في غبار الملفات الصفراء، وهو الذي آل إلى نذير شؤم دون أن يدري، فكلما التقي به أحدهم في أحد الممرات أو عند باب دورة المياه أو في أي مكان آخر فان هذا الموظف المرتعب مـــن رؤيته إما أن يسبقه أو يتأخر عنه حتى لا تقع عيناه على وجه حاجب الموتى كما أصبح يعرف في الشركة بمعطفه الأسود وشحوبه وخطواته التائهة التي بلا صوت، كان الجميع يتجنبونه وكأنه مجذوم فـــيما عـــدا مسعود النقاز، ولذا فلم يصدق أحد منهم لأول وهلة تلك الإشاعة المسمومة التي سربها إليهم القهوجي من تحت صينية القهوة التي يحملها على كفه، فقد ضحكوا منه مندهشين لبلاهته وخفة عقله وتعجلـــه في كل شيء، فهم يعلمون بالتجربة أن مسعود النقاز يتمتع بخـــيال طفـــل، كمـــا أنه يجيد صياغة ورواية القصص والحكايات الخرافية، ولديه خبرة لا بأس في علم النميمة، كما يروق لــــه دائما أن يصنع من الحبة قبة، فربما نزلت أحلام مرة أو مرتين إلى القبو على الأكثر لكي تبلغ ذلك الموظف المستجد تعليمات وأوامر المدير العام، وقد تكون حملت لــــه رسالة مكتوبة بالخصوص، فهي ليست أميـــنة ســـره فحسب، بل هي بالإضافة إلى ذلك تنوب عنه في حالة تغيـــبه عـــن الشـــركة، وهي الوحيدة التي يثق بها، وقد أوصي كل مرؤوسيه بأن يثقوا بها هم أيضا ويطيعوا أوامرها من خلال منشور رســـمي موقـــع ومخـــتوم بختمه عمم على جميع الإدارات والأقسام المختصـــة، فهـــي تتحدث بصوته، وتصر أحيانا على أن تنقل إليهم ملاحظاته وتعليماته وأوامره كما صاغها في ذهنه، بلا طعم أحيانا،

سيئة المذاق في أحيان أخرى وغير واقعية في الغالب، ومع ذلك فلا مـــناص من العمل بها وأخذها على علاتها، فما يقوله المدير العام لا يجـــوز الــتهاون فـــيه أو إغفاله وعدم تناوله بما يستحقه من الجدية والاحترام، ومن ثم وضعه موضع التطبيق العملي حتى إذا كان من أثـــر كـــابوس جـــثم على صدره في آخر الليل بفعل الكحول الذي يـــتجرعه فـــي ســـهراته كالحصان، لا أحد يجرؤ على الهمس في حضـــورها إلا إذا بـــادرت هـــي بملاطفة أحدهم عندئذ يمطر لسانه بالثـــناء عليها وإطرائها بكل ما تجيش به نفسه من عواطف مكبوتة تجاههـــا، ثـــم مـــا يلبث أن يجر وراءه بقية زملائه الموظفين الذي يجـــدون فـــي ابتســـامتها الرقـــيقة ما يشجعهم على التغزل بجمالها وتســـريحة شعرها ولون فستانها وحتى صندلها وكأنه أعجوبة، كلما عـــبرت بـــأحد الأبـــواب أو الممرات أنصتوا بانتباه إلى دقات كعب حذائهـــا على البلاط على أنه جرس إنذار، فقد يلحق بها المدير العام في أية لحظة، ولكنه لا يظهر أبدا، فلا يري أحدا من موظفي الشركة ولا أحد يراه منهم فيما عدا ربات المتعة من زائراته المتبرجات على الدوام، وزواره وشركائه في صفقاته التجارية المريبة.

كـــانوا يدركـــون أن أحلام برغم جمالها الباهر ونفوذها لدي المديـــر العام ما هي إلا أنثي مثل كل النساء لها شطحاتها ونصيبها مـــن الدروشة والمزاج المتقلب والأهواء الطائشة والتصرفات غير الحكـــيمة، إلا أن كـــل ذلك من الأشياء التي يمكن فهمها وتقبلها كما هـــي، ولكن أن تقيم علاقة غرامية مع ذلك المخلوق البائس بمظهر المتشرد الذي هو عليه متدثرا بمعطفه الأسود وكآبته فهذا ما لا يمكن

أن يتسامحوا فيه أو يتجاوزا عنه، بما فيهم المدير العام الذي لو علم أن حوريته التي هي أثمن من كل تحفة النادرة التي يزين بها مكتبه قد انحرفت عن مسارها ولو بنصف خطوة أو بالتفاته في هذا الاتجاه أو ذاك فسوف يقيم الدنيا ولا يقعدها أبدا، وأما حاجب الموتى فسوف يزلزل الأرض من تحت قدميه، هذا إذا لم يرفسه في ظهره ثم يأمر بإلقائه في الشارع الذي جاء منه، ولهذا فقد تضامنوا في السخرية من القهوجـي متهميـن إياه بالتخريف والحماقة بتعمده الإساءة وتشويه سـمعة فتاة مهذبة ورقيقة كالهواء إلى حد أنهم يعتبرونها مثلا أعلي لبقـية الموظفـات، ولـذا فلم يكلف أحد نفسه عناء التحقق من هذا التحول المفاجئ الذي طرأ على أميرة الشركة في الفترة لأخيرة، فلو أنهـم رفعوا الغشاوة عن عيونهم لرأوا أحلاما أخرى غيرها بالأمس مبـتهجة بشمس الحب التي أشرقت عليها من مخزن ملفات الموتى، قلقـه قليلا وهي تفكر بالطرف الثاني، ذلك المخلوق المتوحد فيما إذا كان قد تنبه إلى إشاراتها الخفية، وفيما إذا كان قد فطن إلى الرسالة المطـبوعة في عينيها بقلم الكحل، لقد يئست منهم جميعا بما في ذلك المديـر العام الذي يعاملها بتحفظ كما لو أنها أخته في الرضاعة، قد يكـون مسـعود النقاز هو الوحيد الذي يكن لها مودة خالصة، يضع قـدح الشاي على حافة مكتبها مع شرائح من الأخبار الطازجة التي تـتجمع في حوزته أثناء طوافه بأرجاء الشركة، أو هذه التي يجلبها من الشارع ملطخة بالوحل، ثم لا ينسي وهو يستدير باتجاه الباب أن يدعـو لهـا مـن أعماق روحه بأن يرزقها الله بعريس على مقاسها وبقدر طيبتها وجمالها، هي أحلام وقد أطلت عليه من الضفة الأخرى

لأوهامـــه، وبالـــتحديد من عتبة زنزانته الانفرادية لتضيئها بأنوارها الســـاطعة كمـــا القمـــر في ليالي الربيع، هي أحلام كما في اختلاط الحقـــيقة بالخيال والبحر بالرمل واختلاطه هو بحقائق الحياة اليومية التي تشبه السكاكين، كما لو أنه ينهض من نومه فيري نجمة الصباح تطـــل علـــيه مـــن زاوية حجرته، قام واقفاً وفرد ذراعه لمصافحتها بشـــوق عارم، فاجأها بحركة يده هذه التي امتدت في اتجاهها وهي التـــي كانـــت تشـــفق عليه متعجبة من جموده وأسلوبه المتكلف في التعامل مع النساء بكل ما يشوبه من حذر وريبة، لكنه في هذا اليوم لـــم يستطع فيما يبدو أن يخبئ عواطفه المتأججة تحت جفنيه ولا في عقـــدة لسانه، لقد خرج في هذه المرة منتصبا على قدميه من شرنقته الصلدة، بدورها بسطت كفها والتقطت يده المعلقة في الهواء.

- صباح الخير، كيف حالك يا أستاذ عمر؟

- أنا بخير الحمد لله.

أجابهـــا باقتضـــاب وهو يضغط على يدها بأصابعه كالغريق الـــذي ظل يكافح الأمواج الصاخبة بعناء فيما هي تسحبه إلى القاع متشـــبثًا بهـــا على أنها يد القدر التي قادته إلى مخزن ملفات الموتى لكـــي يلتقي بها تحت سقفه. كان يشكو من العبث ومن لعنة البطالة وإخفاقاته المتوالية وهو لا يدري أن كل ذلك كان الخميرة التي لا بد مـــنها لإنضاج الظروف المواتية التي تسمح بتقدمه على مهل صوب الباب الذي يفضي إلى عالم هذه المرأة التي هي أمنية قبل أي شيء آخر، إنها المرة الأولي التي يخفق فيها قلبه لمخلوقة من جنس حواء لمجرد أن يتذكرها حتى وهو نائم، امرأة متفردة لابد أن يحسده عليها

ليس موظفي الشركة فحسب، بل وحتى نبلاء النفط وهم يطفون على حافـــة بركـــته السوداء، وكل همهم جمع أكبر قدر ممكن من الثروة والنســـاء المحـــنطات، أمـــا تجاربه العاطفية في الجامعة مع فتياتها المغـــردات بما فيهم فرح، فما كان ليعول عليها لأنها كانت تدور في فلـــك الوقت الضائع والعبث، كان يود أن يبلغها رسالته الروحية من دون كلام حتى لا يفسد قدسيتها، فيدعوها لمشاركته في تحويل القبو إلـــى جنة صغيرة مفروشة بالورود، سقفها مطرز بألوان قوس قزح وفـــي دروبها التي تؤدي إلى أفراح القلب تزدهر المواعيد المرصعة بحبات المطر، ولكنه فكر أن يؤجل الحديث عن مشروعه هذا إلى أن يتأكد أن أميرته هذه تبادله نبض مشاعره التي تجمعت في كفه.

لـــم تســـحب يدهـــا من يده إلى أن أفلتها هو، ثم دعاها إلى الجلوس مرحبا بها كما يليق بربة الأحلام الجميلة، لكنها ظلت واقفة حيث هي، وقالت كما لتمتحنه:

ـ أخاف أن أتأخر، أنت تعرف أن المدير العام يعتمد على في كل شيء حتى في .....

لم يدعها إلى أن تتم كلامها، فقد لوح بيده مقاطعا إياها بغضب مكتوم.

ـ دعينا منه يا أحلام فالأرواح بيد الله وليست بيده.

ثـــم علـــق عينيه بصدرها الخافق حيث يتدلى قلب من الذهب وقال متسائلا:

- بالمناسبة، لقد لاحظت أن موظفي الشركة يرهبون المدير العام وكأنه سجان متحجر القلب من القرون الوسطي.

عندما دعاها إلى الجلوس للمرة الثانية خطت نحو الكرسي الذي بلا مسند ثم حطت عليه.

- لا تنس أنه ولي نعمتهم، ثم هو لا يعرف الرحمة وفصل موظف أو طرده من الشركة أهون عليه من طرد ذبابة تحط على أرنبة أنفه.

- ولكن الشركة ليست ملكه يا أحلام.

- هذا صحيح، ومع ذلك فهو يتصرف فيها كما لو أنه ورثها عن أبيه أو أحد أجداده.!

قالت ذلك وهي مدركة أن كل المدراء العامين هم من نفس الفصيلة بجبروتهم وصلاحياتهم الفضفاضة التي يتدثرون بها من تحت قمصانهم الحريرية، وكان هو أيضا يدرك واقع الحال، موقنا في قرارة نفسه أن هذا الحديث ليس له من جدوى، وأنه من ناحية أخرى يصب في سياق البلبلة والضجة التي يثيرها أصحاب المناصب الكبيرة من حولهم متلذذين بها مع أنها مزيفة، فما دام المدير العام هو سيد الموقف فلن يجرؤ أحد على رفع رأسه في حضرته، أما هو فسوف يرفعه عند اللزوم حتى إذا اقتضي الأمر التضحية بوظيفته الاسمية والعودة إلى الرصيف، ومرة أخرى قال:

- دعينا منه يا أحلام أرجوك.

لكـــم يـــود في هذه اللحظة بالذات أن يفرد أشرعته البيضاء المـــبللة بـــرذاذ عواطفه المكبوتة ويبحر في أمواجها العالية التي في مـــثل نعومة الحرير، بالرغم من أنه حتى الآن لا يعرف عنها شيئا فيما عدا اسمها الأول من دون لقب، إضافة إلى ما تضخه من شذي يتنفسه في الهواء في محاولة صارمة لأن يثابر على هدوئه فلا يقدم على عمل طائش تكون عاقبته الطرد من الفردوس، دعا الله في سره أن يلهمـــه الصبر حتى لا يموت من الكمد، ولكنه بالرغم من كل ما بذلـــه مـــن جهد خارق للسيطرة على نفسه فقد انهارت دفاعاته فجأة عـــندما رفـــع عينيه فرآها قريبة منه متفتحة ودافئة، كان يود الفرار ولكنه لا يعرف إلى أين بينما هي تحاصره بغنجها الرقيق حائرة في أمرها هي الأخرى.

كـــان مستعدا للقسم في حينه بكل المقدسات من أن يده لم تكن هـــي يـــده التي رفعها في اتجاه أحلام الجالسة على كرسي بلا مسند، وبحركة غير واعية مسح بإصبعه على وردة شفتيها التي بلون الكرز، ثـــم داعب وجهها بحنان بلمسات خفيفة متفقدا خريطة جمالها بأصابعه التائهة، ولكن ما أدهشه هو أن رد فعلها على تصرفه تجاهها وقد ظنه تهـــورا مـــن جانبه لم يزد على أن أخذت يده وأطبقت عليها في كفيها برقة كما لو أنها تمسك بعصفور تخاف عليه من الاختناق.

لا يـــدري مـــا الـــذي يمكن أن يحدث بعد ذلك فيما لو تأخر القهوجي عدة دقائق أخرى، لكنه جاء مهرولا من دون صينية القهوة علـــى غـــير عادتـــه، كان واضحا أنه فوجئ إلى حد الصدمة بذلك المشـــهد العجيـــب، عمر وأحلام وهما في حالة انسجام وتفاهم، فتح

عينيه وأغمضهما على احتفالية الحب التي برغم براءتها فقد فسرها لنفسه على أنها كارثة أخلاقية، توقف عند العتبة مشدوها، ثم ما لبث أن التقط أنفاسه واستردّ صوابه، وعندما وجد صوته قال:

- أنت هنا يا أحلام، المدير العام ..

لــم تنتظر إلى أن يتم جملته المتقطعة، فقد نهضت واقفة على الفــور، وبعــد أن ســوت أطراف فستانها التقطت حقيبتها من فوق المكتب وسبقته مسرعة إلى الدرج الذي يفضي إلى الطابق الأول.

- 9 -

بالـــرغم مـــن أنه تناسى كل ماله صلة بمشاريعه الفاشلة في الإعلان عن نفسه واحتلال موقعه الذي يليق به في مقدمة الصفوف أو في قلبها متأبطا طموحاته العريضة وهو يمشي في الزحام مفعما بالحـــيوية ونابضا بالأمل فإنه لا يدري كيف أنها نهضت من سباتها مجـــدداً كمـــا من أثر حرارة القلب، لقد أصبح يحسد نفسه على هذه الهبة من السعادة التي غمرته من رأسه إلى قدميه في أسابيع معدودة وظلـــت تنهمر في طريقه بلا توقف في صدى خطوات أحلام وهي تهـــبط الـــدرج، في ظل ابتساماتها الرقيقة التي تنير طريقه كضوء الشفق، في شذى أنفاسها الذي يتسرب إلى ما تحت جلده، وكذلك في كلماتهـــا القلـــيلة التي يظل يقلبها في ذهنه لدي انصرافها كقطرات العســـل التـــي كـــان يجب أن يلعقها بلسانه بدلا من أن ينصت إليها كالأبله، في الزمن الذي أصبح في خفة الهواء حتى أنه ما عاد يدرك أيـــن هـــو، يمشى كالنائم متعثرا في ظله وأفكاره، تائها عن كل ما حولـــه، فيما بات موظفو الشركة يشفقون على هذا المخلوق الشارد اللب بعد أن أصيب بشيء من اللطف كما قال أحدهم، فلم يعد مجرد شـــبح موســـوم بالشـــؤم وإنما درويش في حفلة زار صامتة، يمشي وحيدا، ولكنه مع ذلك فهو يهز رأسه أو يلوح بيده، ويبدو على الدوام وكأنـــه يتحدث إلى كائنات خفية، لكن مسعود النقاز لم يكن يشاركهم

هـــذا الرأي، فكان يرد على هذه الأقوال معللا هذا التبدل الذي طرأ على سلوك موظف القبو في الآونة الأخيرة وحالته المرضية بالقول:

– لقد أنعم الله عليه بأحلام فكيف لا يجن أو يخرج من ثيابه؟!

كـــان فـــيما مضي يجوب الشوارع المغبرة والموحلة برأس مدخـــن فـــلا يجد ما يقطع به الوقت الذي يثقل على صدره كالرمل ســـوي بتصفح الجرائد بدءًا بالافتتاحية التي تصيبه بالغثيان لنبرتها الخطابـــية وأســـاليبها المـــنافقة الموجهـــة إلـــى هذا الحاكم العربي أو ذاك على أنه الرجل الموعود بأمجاد طارق بن زياد فاتح الأندلس مـــتعرقا بعصارة عظمة هذه الأمة على مدي تاريخها الطويل، فيظل يقرأ إلى أن يطبق عينيه على صفحة القلوب المعذبة، ينقب حتى عن أخـــبار الجـــرائم والأوبـــئة، مرورًا بصفحة التعازي والوفيات، ثم دعـــوات الـــزفاف وتهاني الأعراس والمواليد الجدد فلا يطويها إلا عـــندما يـــتذكر واجباته المنزلية فينهض بهمة ليكوم ملابسه القليلة، وبعـــد أن يغسلها يقوم بنشرها على حبل الغسيل لتجف، وبيد نشطة ينظف حجرته ويرتبها، وبرغم انشغاله بشؤون حياته اليومية الرتيبة فإن الزمن يظل كالجبة الفضفاضة التي يتوجب عليه أن يرتديها من فـــوق ثـــيابه وهو يغادر المنزل إلى مقهاه المفضل في باب البحر، هناك حيث يقبع على كرسي منفرد فيما تسرح عيناه باتساع الشاطئ الممتد بحذاء الميناء البحري الذي يشبه حدوة حصان تتلاطم أمواجه كالبساط تفرده وتطويه يد خفية، يأسره منظر البحر الذي كان يرسمه فـــي كراسة الرسم المدرسية دون أن يراه، يرقص قلبه مع مراكب

الصـــيادين المـــتأرجحة على صفحة المياه التي يعكرها وقود السفن والزيوت السوداء، مع غروب الشمس يهبط الظلام كستارة قاتمة من غــبار الفحم، وما تلبث أضواء المصابيح أن تخترقه فيما يشبه العقد الطويـــل الذي تشع حباته بلون فضي، وهناك المنارة التي تبدو من بعيد كالعين السحرية تبرق بلون أحمر في عرض البحر، ينصت إلى هدير الأمواج ويتنشق رائحة الأعشاب البحرية في نسائم رقيقة تهب علـــى وجهه مع أنفاس البحر، وما كان ليعنيه أبداً أن يسهم بنصيبه مـــن الـــثرثرة حـــول الأوضـــاع العربـــية الراهنة وآفاتها وعقدها المستحكمة والمراحل التي مرت بها، من التفكك إلى الانهيار، ومن المهادنـــة إلى الانحناء في انتظار مرور العاصفة، ومن الغيبوبة إلى يقظة السكارى، فكان عادة ما يكتفي بالإنصات وهو يتأمل البحر من شرفة الليل إلى أن يتشبع جسده بالرطوبة، إذ ذاك ينهض ليعود إلى المنزل بخطى متعبة.

لقـــد قرر إعادة النظر في كل تفاصيل حياته عقب انفكاكه من أســـر الـــبطالة واعـــتماده عضوا عاملا في خدمات البيئة ومكافحة التلوث فلا يجد ما يكافحه سوي الضجر، ومع ذلك فقد ظل يعاني من الفراغ وبقائه وحيدا في مكتبه بلا عمل عندما اكتشف وهو في النفس الأخير لعبة مسلية ما كان ليلعبها لو أنه لم يفقد توازنه الروحي، فقد أطـــل ذات صباح من باب مكتبه على مجموعة من الفئران الرمادية مســـتغرقة في الصفير وهي تتراقص عند زاوية القبو، فوقف يتأملها وهو الذي ما كان يعرف من قبل أن للفئران هواية أخري غير قضم الأبواب وقرض ملفات الموتى وحشو فراش عبد الدائم أو أي شيء

آخـــر يمكن أكله، ثم الهروب في لمح البصر إذا ما بوغتت برائحة غريـــبة لظنها بأنها رائحة قطة تتربص بها لاقتناصها، أدهشه منظر الفئران وهي ترقص مرحة قافزة في الهواء إلى أعلي ما يمكن، فجأة قرر أن يجرب حظه في الرقص ما دام لم يحرز أي قدر من النجاح في أيما شيء منذ انفصاله عن مقاعد الدراسة، أنصت بانتباه وعندما تـــأكد مـــن عـــدم وجود أي صدى لأقدام قادمة في اتجاه القبو فرد ذراعـــيه وقفـــز عالـــيا، ومـــع أن الفئران الصغيرة هربت مذعورة لإحساسها بالخطر الداهم فقد تواصل مع طقوس الرقص حتى الدقيقة الأخـــيرة من الدوام الرسمي، لا يدرى كيف أنه يومها أحس براحة غريبة وبموجة من التفاؤل تجتاحه كما لو أنه تخلص من كل همومه دفعة واحدة، فما كان الرقص كما فكر به سوي العلاج السري الذي يحـــتاجه لكـــي يتصالح مع نفسه أولا، ثم مع الدنيا ثانيا، أمتعه هذا الاكتشـــاف، ولذا فإنه في صباح اليوم التالي شرع في لعبته المسلية فور انتهائه من شرب الجرعة الأخيرة في فنجان القهوة وفي نيته أن يستمر في الرقص إلى أن يسقط على ركبتيه من الإعياء، ولكنه سقط بيـــن ذراعي ربة الجمال في الشركة العامة لخدمات البيئة ومكافحة الـــتلوث، وهـــي التي تلقفته من العدم لكي تعيده إلى وعيه، فلم يعد هناك من مجال لأفكاره وتحركاته وأحلامه إلا في جنانها الذي يتذوق فـــيها كل النعم التي خلقها الله وكرسها لسعادة الإنسان في الأرض، فما أن شرعت في عزف موسيقاها على أوتار حب خجول ومتحفظ حـــتى اســـترد ثقته بنفسه كمخلوق بشرى يجب أن يتمتع بكل حقوقه الإنسانية فلا يبقي مكبلا إلى الأبد بقيود النوم والتفاهة، وهكذا التفت

لنفسه في ضوء جديد بدءا بإقامة علاقة وطيدة مع مرآة الحمام، ليس فقــط في حدود حلاقة ذقنه وتمشيط شعره بضربات سريعة كما كان دأبــة مــن قبل وإنما بمزيد من التأمل في هيئته إجمالا، وكما ينبغي لشخصه المتواضع وقد انتقته أحلام من بين مجموع موظفي الشركة بمــا في ذلك المدير العام، ثم أقبلت على حجرته في القبو لكي تبعث الحــياة فــي أوصالها، وبذلك فقد أصبح لزاما عليه أن يتعهد نفسه بالعناية والصقل، فيتخلص على الأقل من مظهر الشحاذ الذي لم يرق حتى لكنزة، فقد قالت لــه لدي انصرافه في نور الفجر مراوحة بين الجد والهزل.

ـ معطفك هذا يا العمر يغم النفس.

ثــم مستدركة وهي تفتح حقيبة يدها وتسحب منها رزمة من النقود الورقية:

ـ خذ ما يكفيك إلى أن يفرجها الله عليك، قول إن شاء الله.

ـ إن شاء الله يا كنزة .

يومــئذ شــكر لتلك المرأة العطوف لرقة مشاعرها ومبادرتها الإنسانية ولكنه لم يلمس درهمًا واحدًا من أموالها التي تكسبها بعرق فخديها، ومع أنه تفهم ملاحظتها مقتنعًا بها في قرارة نفسه إلا أنه لم يــتخل عن معطفه الأسود برغم قدمه وتهدل أطرافه، ليس فقط لأنه يحــتاجه فــي فصل الأمطار لتدفئة وحماية عظامه النحيلة من لفح الــبرد، وإنما أيضا لأنه يصد عنه الصدمات العصبية التي يتعرض لها أثناء تجواله في شوارع المدينة القديمة، فكان أول شيء يتخلص

مــنه فــي خطة تحسين هيئته مستبدلا إياه بسترة رمادية ابتاعها من شــارع الرشــيد، كمــا اشــتري حذاء جديدا وقميصًا وزوجين من الجــوارب، لــم يغب هذا التغير الشكلي الذي طرأ عليه عن عيني مســعود النقاز حالما رآه يقف بباب المقهى، لا حظ أنه استرد هويته الإنســانية فــيما لــم يكــن من قبل يزيد عن ظل أو شبح لا صدى لخطواتــه، وليس لحضوره أي أثر إلا في ردود الفعل الساخرة التي تهــب علــيه من وراء ظهره لدي رؤيته في هذا الممر أو ذاك من ممــرات الشــركة، فقد قال عنه مدير القسم المالي بأنه الرجل الذي يلــيق فعــلا بوظيفة حاجب الموتى، مشيداً في نفس الوقت بحصافة المديــر العام الذي عينه في هذا الموقع، فهو يبدو على الدوام وكأنه يمشي في موكب جنائزي.

لم يملك القهوجي إلا أن يعبر عن إعجابه بمظهره الجديد قائلا:

- مبروك عليك يا أستاذ عمر.

فوجئ بالتهنئة فرد متسائلا بدهشة:

- ولكن على ماذا يا عمّ مسعود؟

لم يعرف القهوجي كيف يجيبه أول الأمر، ولكنه هز رأسه وقال:

- تريد الحق والا ابن عمه يا أستاذ عمر؟

- الحق طبعا.

عندئذ أنزل مسعود النقاز ركوة القهوة التي كادت تفيض على الموقد، ثم تمتم قائلا:

ـ لا أخفـــي عليك يا أستاذ، كل الموظفين في الشركة يقولون ماذا به كأنه ليس من أهل الدنيا، وقد سمعت بأذني إحدى الموظفات تـتحدث عــنك بالسوء، لا تؤاخذني فقد قالت أن عمر هذا يذكرني بــأهوال يــوم القيامة، ثم ضحكت وأضافت بأنها لم تعد تترك باب مكتبها مفتوحا حتى لا تراك فيزيد ذلك من غمها وسوء حظها، وهي لعلمك عانس في الخمسين من عمرها.

ـ والآن يا عم مسعود؟

تســاءل عمــر عــبد الحميد وهو يسوى ياقة سترته: فأجاب القهوجي:

ـ ما شاء الله عليك، أنت موظف محترم والدنيا بالوجوه كما يقول المثل .

مــن خــلال عينـــي مسعود النقاز اللتين لا تغفلان عن شيء كمرآة للأشياء بكل خفاياها وتفاصيلها وكما هي في الواقع، أيقن بأن جهــوده وما قام به من تحسينات أولية على مظهره لم تذهب هباء، كمـــا أنـــه لأول مرة يشعر لدي تحرره من معطفه الأسود بأنه إنما تحــرر في نفس الوقت من أفكاره الساذجة وأوهامه ومن طين قريته وتعــاويذ أمه بما يكفي للوقوف على قدميه، فلم يعد يفكر بأية أمجاد كيميائية، وما عليه من الآن فصاعدا إلا أن يمضي في الاتجاه الذي تشير إليه أحلام بيدها الرحيمة، لقد أمحي زمنه القديم برمته ولم يعد هناك ما يدعوه إلى تفقد أطلاله.

سـدد ما ترتب عليه من ديون القهوة وأرغفة الخبز لمسعود النقاز قبل موعدها الذي يحين في آخر الشهر، ثم طلب منه أن يوافيه بفنجان القهوة في مكتبه على ألا يتأخر عنه لأنه كما قال لـه يعاني مـن صـداع نصفي يشق رأسه كالمنشار، ثم غادر المقهى بخطى بطيئة وما كاد يستقر على كرسيه حتى لحق به القهوجي مسرعا ليس بفـنجان القهوة وحسب وإنما بما هو أهم في رأيه، حبة دواء مسكنة وكأس من الماء، وضع حبة الدواء في كفه ونصحه بابتلاعها دونما تأخير داعيا لـه بالشفاء، لم يسأله عمر عبد الحميد من أين جاء بها، فقد رأي بأم عينه كيف أن مسعود النقاز قد حول حجرة المقهى إلى مـتجر يكـتظ بمـا يخطـر وما لا يخطر على البال من البضائع المتنوعة، من علب التبغ المحلي والمستورد، إلى الولاعات والمناديل الورقية والعصائر والمغلفات وزجاجات العطر التي في حجم إصبع رضـيع، إضـافة إلى الأقلام والكراسات، وكذلك البطاقات البريدية التي تروج في الأعياد الدينية والوطنية، يتزاحم عليها الموظفون في هـذه المناسبات لكي يراكموها على مكتب أحلام التي تقوم بعرضها علـى المديـر العام مكللة بتهانيهم الحارة الموجهة إلى ولي نعمتهم مرفقة بما تيسر من التمنيات القلبية لـه بدوام الصحة والسعادة.

- قال القهوجي وهو يقدم لـه كوب الماء:

- بالشفاء إن شاء الله يا أستاذ.

كان متعجلا على غير عادته، فقد حمل صينية القهوة على كفه واسـتدار نحـو الباب، ولكن عمر عبدالحميد استوقفه قبل أن يضع قدمه على العتبة.

- دقيقة من فضلك يا مسعود.

- دقيقة لا أكثر.

قال ذلك وهو يتراجع خطوة أخرى إلى الوراء.

- المدير العام لا أدري ماذا أصابه في هذه الأيام، يأتي إلى الشركة في غير مواعيده العادية وفي أي وقت يحيط به الدجاج الأسود من كل جانب.

لم يغب عن عمر عبد الحميد ما عرف به مسعود النقاز في الشركة ولدي موظفيها من شغف بتضخيم الأشياء والوقائع فقال:

- لا تنس يا مسعود أن مشاغله كثيرة، فهو المسئول الأول في الشركة ومن واجبه أن يدير أمورها بحكمة وحزم.

ولكن القهوجي لوح بيده معترضا:

- بالعكس يا أستاذ، البركة في أحلام، تراها تجري طوال الوقت على قدم واحدة، مسكينه كان الله في عونها، أما حضرته ؟!

بدا مترددا وحائرا في ما يريد قوله، فلم يتم جملته التي لاكها على لسانه مرتين ثم توقف عندها واكتفى بهز رأسه بحركة غامضة.

- ولكن ما هي المشكلة يا مسعود؟

وضع القهوجي إصبعه على شفتيه بالعرض، ثم أجاب بصوت أقرب إلى الهمس.

- السكوت أفضل يا أستاذ.

بدا أن هناك الكثير مما يود البوح به وقد غامت عيناه بسحبه الداكنة، خاصة وأن عمر عبد الحميد بأسئلته العفوية قد فتح الطريق أمامه لكي يثرثر بأسرار وفضائح المدير العام حتى صباح الغد، ومع ذلك فلم يزد على أن قال:

- أنا ليس بيني وبينه شيء إلا صباح الخير، ولكنه تغير بين يوم وليلة، الله وحده يعلم لماذا، كلما رآني صاح في وجهي أين كنت يا مسعود؟، لماذا تأخرت يا مسعود؟، لم يبق إلا أن أترك عملي في المقهى وأقف ببابه كالديدبان.

كـــان مـــن الواضح أن القهوجي يعاني من عدم اليقين ومن البلبلة والقلق للتغير الفجائي الذي طرأ على سلوك المدير العام تجاهه وسوء معاملته، وتجهم وجهه وعبوسه كلما رآه كأنه يتهمه بشيء ما، من دون أن يجد ما يدعوه في حينه إلى التفكير بأنه هو الذي تسبب دون أن يـــدري في هذا الانقلاب الذي جاءت نتائجه وبالاً عليه، فلم يعد الرجل يبتسم لـــه أو يطرى قهوته وهو يرتشفها بصوت مسموع مســـتمتعا بهـــا كمـــا كان دأبه من قبل، كان يرحب به بحفاوة، وقد يمضي إلى ما هو أبعد من ذلك فيمازحه أحيانا حتى إذا كان لا يسمح لـــــه بتخطـــي تلك المسافة التي تفصل بين صينية القهوة وكرسي الإدارة، ومـــا هو أسوأ من ذلك أن هذا الإنسان الذي جاء ذات يوم إلى الشركة محمولا على ظهر امرأة حتى إذا لم تظهر في الصورة أمســـك يـــده عنه، فلم يعد يمدها لـــه من فوق المكتب مغمضة على ديـــنار أو ديناريـــن كلما دخل عليه بفنجان القهوة الذي يرفقه عادة بكـــأس من عصير الفاكهة وتحية الصباح وبعض الأخبار المنتقاة التي

يلتقطها بدأب ويرى أنها تليق بالمدير العام وحده، إضافة إلى ذلك فما كـان يـبخل علـيه بشيء يطلبه منه متنازلا حتى عن كلمات الشكر والامتنان التي ينهال بها على رأسه، فكان يوقفه بإشارة من يده مؤكدا لـه بأنه لا يتصدق عليه بشيء، فالخير كثير، وكما قال لـه ذات يوم حرفـياً: " أنا لا أدفع من جيبي يا مسعود، وإنما من نعم الله التي أنعم بها على هذه البلاد المباركة بلا حساب، وكما تعرف فهي لا تعد".

ثم استدار بكرسيه وفتح الخزانة الحديدية لكي يريه نعم الله التي لا تعـد، يومئذ تسمر القهوجي في مكانه ممسكا بأنفاسه وهو يطرف بعينـيه وفمه مفتوح ببلاهة، حملق ذاهلا في تلك الرزم الضخمة من الأوراق المالـية المرصـوفة فوق بعضها البعض كقراطيس الحلوى، لا يدري لماذا أحس عندئذ بمغص يعتصره في أمعائه بلا رحمة.

كان لابد من وضع نهاية لمناحة مسعود النقاز هذه فقال وهو يطرق بأصابعه على سطح المكتب.

ـ قد تكون لديه أسبابه الخاصة، وعلي أية حال فليس هذا هو موضوعنا، أنا في حقيقة الأمر أود معرفة رأيك يا مسعود في أحلام مـن كـل النواحـي. فأنت على حد علمي أكثر معرفة بها من أي مخلوق آخر في الشركة.

ما كان القهوجي ليتوقع سماع مثل هذا السؤال قط، لأن شابة مـثل أحلام ليست بحسب رأيه في حاجة إلى شهادة أحد من موظفي الشـركة، فهـي كالوردة اليانعة التي لا يمكن لأحد أن يجد فيها ما يعيـبها، ومـع ذلك فقد دفع بطاقيته بلونها الباهت إلى مؤخرة رأسه

وحكّ جلدته برؤوس أصابعه، ثم أعاد وضع الطاقية كما كانت مائلة علـــى جبيـــنه حتى تكاد تغطي حاجبيه الخفيفين، فليس هناك ما هو أحـــب إلـــى نفســـه، ومـــا يطربه أكثر من الخوض في سير الناس وأســـرارهم بالطول والعرض، فيشرع لسانه كالسيف، وبشيء من روح المحارب الذي يتأهب للقتال في معركة حاسمة مصرا على أن يـــرفع راية النصر عاليا ما أن يتبدد غبارها، فلا يتردد في أن يوجه ضـــرباته في كل اتجاه معددا مساوئ الآخرين وعيوبهم الكثيرة، ثم يصـــفها فـــي ذاكرته أول بأول حتى لا يضيع الوقت في انتظار أن يســـمع غـــناء الركوة الموضوعة على النار، لقد منحه موظف القبو الفرصـــة لأن يشحذ لسانه كما يجب، ولكنه تنبه في نفس الوقت إلى أن هـــذا الســـؤال الغريب ليس لوجه الله، كما أنه مؤشر على تطور مريـــب فـــي علاقة مستوطن القبو الموسوم بالشؤم. بأميرة الشركة مـــتجاوزه بمـــراحل ما رآه ذات يوم وهي تمسك بيده فيما كان هو مقرفصـــا في مواجهتها كالجرو، كان يود في قرارة نفسه أن يكون مخطـــئا فـــي ظنونه هذه، أما أحلام فهي كما يقول دائما في منزلة إحدى بناته لا يجد ما يدينها به، ولذا فقد دمدم بعد برهة من الصمت.

- أحلام يا أستاذ بركة من الله.

ثم أضاف بشرود:

- هذه البنت ليس فيها ما يشينها، ولكن المشكلة في المدير العام.

دائمًا نفس المأزق وكأن ذلك الرجل هو محور الكون، وبرغم اســـتيائه من الخوض مجددًا في بركته الآنسة فقد جهد في المحافظة على هدوئه، أما القهوجي فقد تابع قائلا:

ـ لـــو تسمع رأيي يا أستاذ فأنا أنصحك بالابتعاد عنها، تأكد من أن هذا أفضل لك ولها في كل الأحوال.

ـ ولكن لماذا يا مسعود؟

أســـرع القهوجـــي بالإجابـــة كما لو أنه كان ينتظر مثل هذا السؤال منذ وقت طويل وقد أعد الرد مسبقاً.

ـ المديـــر العام لا يعرف الرحمة، أحلام هذه ليست سكريتيرته فحسب، وإنما هو يعدها من ضمن ممتلكاته الشخصية، يخاف عليها من الهواء الطائر، ومستعد لقطع يد أي إنسان يلمسها حتى بطرف إصبعه، وكل موظفي الشركة يعرفون ذلك ويعملون لأحلام ألف حساب.

كان من الواضح أن لديه المزيد مما يود البوح به بشأن طبيعة وتفاصيل العلاقة التي توصل أحلام بالمدير العام، ما هو معلن منها ومـــا هو خفي لا يعلمه أحد فيما عداه، ولكنه بدلا من ذلك خطا نحو الباب بصينية القهوة المرفوعة على كفه دون أن يضيف كلمة واحدة إلـــى ما قاله، كان يود أن يستعلمه حول أشياء كثيرة قبل أن يخطو خطوته الحاسمة في تجاه المرأة التي قطع نصف الطريق إلى مدينتها المســـحورة، وحتى إذا كانت هذه المعلومات غير ذات جدوى وقد لا تفـــيده فـــي شـــيء إلا أنها سوف تكون في كل الأحوال كشعاع من الضـــوء الـــذي يهديه إلى الاتجاه الصحيح، كما أنه لا يستطيع كبح فضـــوله وتوقـــه إلى معرفة كل شيء عن هذه الوردة التي مازالت بالنسبة إليه كالمادة الخام، فبدا حينها كالبستاني الذي عثر على زهرة غريبة متفتحة في حقله، لا يكفي أن يستمتع برائحتها الجميلة، وإنما

هو يود أن يعرف من أي فصيلة هي وكيف أينعت في أرضه، ولذا فقـد راح يتفحصها باهتمام من جذورها وحتى أوراقها وهو يفركها بين أصابعه، أنه لا يقل عن ذلك البستاني جنوحا وشغفاً لمعرفة كل خصائص زهرته التي من دم وأعصاب.

عـند انصراف مسعود النقاز لم يجد ما يدفع به الملل والرتابة عن نفسه سوي بالعودة إلى تصفح أوراق عبد الدائم، ولكنه ما أن قلب الورقـة الأولـي فـي الفصل الرابع حتى توقف مبهوتا، كان الفصل بعـنوان مثـير وهو: "أحلام على الأرض" بدأه عبد الدائم هذه المرة بمقدمـة منمقة عن وضع المرأة في هذا العصر الذي يجب أن يسمى فـي رأيـه بعصـر النساء، فالمرأة هي مظلته الكبيرة وقلب حركته ومصـدر السعادة والشقاء الذي يفيض على ضفافه، وهي مرآته التي يمكـن رؤيـة ورصد تموجاته في زجاجها المصقول، بل هي مفتاحه السـري، ولكـن من المؤسف أن زوجته التي نكب بها وهو في أوج حيويـته وشـبابه لا تنتمي إلى هذا الجنس الذي يوصف باللطيف أو الناعم إلا بالشكل فقط، فكل بضاعتها وجه مجعد وحماقات، أما أحلام فهي شيء آخر، لا يمكن للمرء أن يمر بجنانها دون أن يصاب بدوار القلـب، وهو لا يبالغ عندما يقول أنها هي واسمها يرسمان علامة لا تمحى على سعادة الإنسان في الأرض، وهي خلاصتها أيضا.

بـدأ المـرحوم عـبد الدائم من خلال حديثه الذي خطه على الـورق بيد مرتعشة كما لو أنه كان على صلة وثيقة بهذه الفتاة حتى قـبل أن تولد، أو أنه هو الذي تلقفها بين يديه الحانيتين لدي نزولها إلـى الدنـيا، مدققـا في كل مراحل حياتها حين تقرر ذات يوم عند

بلوغهـا العـام السادس من عمرها إرسالها إلى المدرسة الابتدائية بـرفقة عـدد مـن البنات اللاتي يقاربنها في العمر، كانت أجملهن وأرقهـن، أو أنها لابد أن تكون كذلك قياسيا لما أصبحت عليه فيما بعـد، كانـت تزين جديلتي شعرها بشريطين أبيضين، تمشى مرحة مؤرجحـة حقيبتها الجلدية في يدها غير عابئة بالغزال المطرز على ظهـرها بخـيوط فضية وهو يهم بالهروب، ومن الغريب أن أحلام كـبرت بسرعة دون أن تمر بمنحنى المراهقة ولا بجسر التنهدات، وكـل ما هنالك أن قاربها الذي صنعته من ورق كراسة قديمة غرق مبللا بالماء عند تعويمه في بركة مطر ليلي، ثم لم تصنع غيره إلى أن بلغـت سـن الرشـد وهو عام تخرجها من معهد إداري لإعداد أميـنات السر اللاتي أصبحن في هذا العصر كزهور الزينة والتحف الـنادرة والعلـب الخشبية المغطاة بالصدف، لاغني عنها في سياق الوجاهـة والأبهـة التي يحرص عليها مفوضو الشركات والمدراء العامين وما أكثرهم في هذا الزمن.

لقـد كـان بدرجة فائقة من حسن الحظ كما ذكر في أوراقه بتسـلمه لطلـبها للتوظيف في الشركة العربية العامة لخدمات البيئة ومكافحـة الـتلوث آملة إلحاقها بالعمل في أقرب وقت، وبأكثر مما يتمـناه لدي استقباله إياها في ردهة مكتبه بوصفه نائب المدير العام قبل مثولها أمام لجنة الفحص لإجراء المقابلة الشخصية، أطلت عليه في غمامة من شذى الياسمين وقد أذهلته برقتها وجمالها إلى حد أنه دعا الله في سره أن يكون رحيما به فلا يعرضه لهوى خريفي مثير للسـخرية والشفقة، لم يطرح عليها أي سؤال فقد كانت هي السؤال

والإجابـــة معا، مكتفيا بالإصغاء إلى صوتها الهامس بانسيابه العذب ونبراته الحالمة التي ترسبت في أذنيه فظل يصغي إلى ترجع صداها في مخزن ملفات الموتى إلى أن فقد حسه بالواقع.

لقد حدثته بكل شيء كما لو أنها جاءت للاستجواب أمام محقق يجيد فن الإنصات، توقفت لعدة دقائق في ظل أمها التي تبدو وكما لو أنهـــا امرأة مجبولة من عجينة الدقيق، مشفقة عليها لما كانت تعانيه من عجز وقلة حيلة لأنها لم تفلح بالرغم من كل جهودها في إنجاب طفـــل ذكـــر حتى إذا كان في حجم باذنجانة وله أرجل فأر على حد تعبـــيرها، وذلك بالرغم من إلحاح أبيها الذي رحل قبل الأوان وهو يحلم بمولود من جنس الرجال يحمل اسمه ويحافظ عليه من الاندثار، ولكـــن هذا الطفل لأمر ما يأبي المجيء، لقد أنجبت أمها أربعة بنات هـــي أصغرهن، ولذا فقد ظلت الخصومة مستعرة بين الطرفين، إلى أن مـــات الرجل الذي لم يغفر لامرأته تهاونها في إنجاز هذه المهمة الجلـــيلة في نظره، مات من الكمد والغيظ، كانت أمها آنئذ حاملا في شهرها السادس. وبعد وفاة سجانها وضعت مولودها المعجزة، ولكنه لم يعش إلا لعدة أسابيع.

وهكـــذا أفرغـــت بيـــن يديه حمولتها من الذكريات الحزينة والفضـــائل التـــي لـــم تعـــد ملائمـــة لروح العصر، فلم توفر حتى خصـــوماتها وعراكها الطفولي مع أخواتها، ما كانت لتنقصها الجرأة على البوح وهي تطرف بعينيها كقطة متوحشة، كانت مزيجا غريبا من الأنوثة الصاعقة وبراءة المشاعر بما يجعلها على الدوام محتفظة بزمـــن الطفولـــة الـــذي يحن إليه كثير من الناس كلما ابتعدوا عنه

مهروليـــن وملطخين بالأوحال والشرور فيحاولون استعادته من بين فكـــي الدوامة التي تجرفهم في طريقها كالحصى، لذا فقد قرر وهو يغمــض عينيه على صورتها، وهو يرقص على قدم واحدة متعرقا بوهج الأنوثة الذي يلفحه في عظامه إلحاقها بمكتبه، وقد وعدها بذلك ممـــا أسعدها، ولكن المدير العام الذي يتصرف وكأن العالم خلق من أجلـــه وقـــد بات من حقه أن ينتقي أجمل ما فيه رأي أنه جدير بهذه الـــتحفة الآدمـــية أكـــثر من أي إنسان آخر، فوضع يده عليها عقب إجرائها للمقابلة الشخصية.

- 10 -

هي الأخرى لا تدرى كيف طاوعتها نفسها على الاستجابة ثم الاستسلام كما لو أنها مخدرة أو منومة لمداعبات ذلك المخلوق البائس الذي يقف على رأس تل من ملفات الموتى وكأنه يهم بالإعلان بصوت زاعق كنعيق الغربان صائحا ومنذرا بفناء الدنيا واقتراب يوم الحساب، لقد وقعت في شباكه متعثرة فيها كما لو أنه ساحر في أسمال، فكان الوحيد الذي جرؤ على ما لم يجرؤ عليه أحد من موظفي الشركة الذين لا يعرف أحد عددهم سوى مسعود النقاز، وما لم يجرؤ على اقترافه حتى المدير العام برغم فضائحه وتفقهه في الغزل ونصب مصائد الحنين.

وكما لو أنه يمسك بحبل سرى مشدود إلى عواطفها، ما أن يسحبه في اتجاهه من تحت الأرض حتى تنقاد إليه بلا مقاومة، لقد سمحت له في زيارتها الأخيرة إلى مكتبه بقبلة طائرة كان لها وقع الزلزال في جسدها، والغريب في الأمر أنها مازالت تتلذذ بطعمها الذي له مذاق السكر فلم يفارقها بعد، وقع هذا الانقلاب العاطفي والأخلاقي لأول مرة في حياتها دون وعي منها، وفي زمن قصير يمكنها أن تعد شطحاته على رؤوس أصابعها، خائفة ومرتعبة من عواقبه التي لن تكون في صالحها في كل الأحوال، ولذا فإن ما يهم الآن هو عدم التمادي في طيشها، ولكنها فكرت بالمقابل عند عودتها

إلـــى مكتـــبها مصعوقة ومضرجة بخجلها أن هذا الحدث الطارئ قد يكـــون هو التعويض الذي تبحث عنه في فوضى سنوات العمر التي تتبدد في السراب، وأول هدية حسب للرجل الذي هو آخر من تقرر الــتوقف عـــند بابـــه لو أنها أحكمت عقلها وعينيها وهي تستعرض موظفـــي الشـــركة واحداً واحداً، ليس لهيئته الرثة وتواضع وظيفته فقـــط، وإنمـــا لحســـابات أخـــرى أبعـــد من ذلك، لا يمكن إغفالها أو الاســـتهانة بها في حالة ما إذا قدر لهذه العلاقة غير المتكافئة أن تـــنمو وتتطور حتى تخومها الاجتماعية التقليدية عندما يحين الوقت فـــيدعوها موظف القبو إلى مقاسمته خبزه وفراشه تحت سقف واحد وبعقد شرعي مذيل بعدة توقيعات وأختام، ولكن قلبها كان لـــه رأي مخـــتلف، بـــدا مـــن الجموح والشوق ونفاد الصبر بحيث لم تستطع معارضـــته أو تهدئته، وهي لا تفهم كيف أنه من دون استشارتها قد تعلـــق بذلـــك الكائن المهزول مذ أطل كالفأر من وراء إطار الباب متدثرا بمعطفه الأسود وخجله الفطري كيما تمهد لـــه الطريق لمقابلة المديـــر العـــام، بـــل وكيف هجست بقدرهما المشترك حتى قبل أن تتعرف عليه وجها لوجه وكأنها تسابقه، فتدخلت بحسن نية لقبوله في الشـــركة وهـــو ما لم تفعله مع أي شخص آخر فيما هي تستقبل في مكتـــبها طلـــبات للـــتوظف بعدد شعر رأسها مبللة بحبر الاستجداء، فاقترحت تعويضه بالمرحوم عبد الدائم، وبعد أن استلم وظيفته أخذت تتحيـــن الفـــرص للهبوط إلى القبو والخروج منه بسلام، محاذرة أن يـــراها أحـــد بمـــا في ذلك مسعود النقاز الذي ترهب أشواك لسانه وتحاول تجنبها بقدر الإمكان.

فـــي البداية لم يكن هناك ما تخافه على نفسها، حتى أنه خيل إلـــيها في وقت من الأوقات أن عمر عبد الحميد وهو يكاد يشبه في جمـــوده الكرســـي الـــذي يجلس عليه لا يراها إلا من خلال صوتها متحسسا نبراته في الهواء، أو من خلال عطرها الذي يستنشقه متلذذا به على أنه من روائح الجنة، لكنه يغمض عينيه عن أشيائها الأخرى فلا يكاد يشعر بها، ولكنه ما أن غامر لا تدري كيف بتلمس خريطة وجههـــا بأصابعه حتى اكتشفت ذاهلة أنها تهفو إليه ليس فقط بخفق روحهـــا، وإنما بكل عصب في جسدها، وآخر ما كان ليخطر ببالها حيـــن رأتـــه في يوم آخر ينهض واقفا بحركة بطيئة لكنها مشحونة بتصميم أخرق، قام بنصف دورة إلى أن توقف قبالتها كالأبله، ومن دون أن ينـــبس بكلمـــة واحدة وضع يده تحت ذقنها، ثم انحني عليها بهـــدوء كمـــا لو أنه تدرب على ممارسة هذه الطقوس الغرامية في أحلامه لزمن طويل وعلي مهل، مسح على وجنتيها بكفه وطبع قبلة علـــى جبيـــنها كما لو أنه أمها، ولكنه ما لبث أن أردفها بقبلة أخرى على عنقها العاجي أحست بها على الفور تسري كالنار في شرايينها كما لو أنه دمغها بسيخ حنينه، ثم تواصل مع طقوسه البطيئة هذه إلى أن أخذهـــا بيـــن ذراعيه حارة وهشة، وعندما هم بأن يطير بها في الفضـــاء كمـــا توهمت في حينه تنبهت إلى ما يجرى فشرعت على الفـــور في الدفاع عن نفسها بخربشات قطة كسولة مما ضاعف من هيجانه، ومع هذا فقد خاضت معركتها ببسالة برغم أنها بالكاد تمكنت من النجاة بجلدها مصممة على عدم العودة إلى القبو مرة أخري مهما كلـــف الأمـــر، حتى لا تنجر إلى الهاوية التي تقف على حافتها في

انـــتظار هــزة خفيفة لكي تسقط فيها، وبذلك فقد قبعت في مكتبها لا تغـــادره إلى أي مكان إلى حد أن القهوجي الذي كان يحصي عليها أنفاسها خيل إذ ذاك أن هذه المغامرة الطائشة والمحفوفة بالمخاطر قد انتهت بسلام، الأمر الذي شجعه على التقدم بطلب الإجازة الذي كان يؤجلـــه من يوم لآخر مرجئا مشروعه بترميم منزله تحسبا لأمطار وعواصـــف الشتاء الذي بات على الأبواب، فما كان باستطاعته أن يذهـــب بعيدا دون أن يشهد خاتمة هذه اللعبة المثيرة كيف تكون، أو إلى أين يمكن أن تصل، لقد أصبح شبه متأكد من أن اعتصام أحلام بحجرة مكتبها ساهمة وكئيبة مؤشر على أن علاقتها بموظف القبو قد آلت إلى قطيعة نهائية، لقد لزمت كرسيها الدوار فلا تكاد تنهض من فوقـــه إلا لمهمـــة عاجلة لا تتجاوز محيط الطابق الخامس، ومع أن أســـرار وخلفـــيات تلك القطيعة المفاجئة ظلت خافية عليه فقد تنهد بارتياح وهو يضع طلب الإجازة تحت عيني المدير العام الذي أشر عليه بالموافقة، ثم قال مبتسما وهو يوقع الطلب:

ـ سوف أشتاق إلى قهوتك التي تطيل العمر يا مسعود.

فـــرد القهوجي: ـ البركة في أحلام يا أستاذ، فهي تجيد إعداد القهوة والشاي ربما أفضل منى، كما أنها تجيد أشياء أخري كثيرة.

مـــا كانـــت لتفكر بأن صبرها سوف ينفد وأن إراداتها سوف تتصـــدع بهـــذه الســـرعة فـــيما هي تقاوم بعناء وتجلد صوت قلبها ونـــداءات خفية أخري لا تعرف مصدرها بالتحديد، أصبحت تضيق بنفسها متململة في كرسيها وهي تفكر متوهمة أن أي شخص قد يمر

صدفة بحذاء باب مكتبها الموارب لا بد أن يسمع بوضوح رعود تلك الضــجة المحــتدمة فــي عــروقها، كانت ممتنة لصمودها مع عدم تورطها في مذبحة الجسد الذي هو كل رأس مالها في الدنيا، إلا أنها فــي اليوم السادس وقد وافق ذلك بداية أسبوع جديد، وكان أول يوم في إجازة القهوجي الذي لا تفهم كيف أنها تحس على الدوام بأنفاسه تلهب ظهرها كالسياط كلما توجهت إلى القبو أو هي خارجة منه، لقد أدركها الحنين إلى ذلك المخلوق المحكوم بالعزلة في منفى الصمت، لا بد أنه ينتظرها على أحر من الجمر في هيئتة الجديدة التي راقت لهــا بعد أن نزع عنه معطفه الأسود الذي يجلب الشؤم، المؤسف أنه حرم حتى من فنجان القهوة في غياب مسعود النقاز، كانت هذه هي حجــتها الوحيدة التي تذرعت بها وهي تنتصب واقفة، ودون أي أثر للــتردد أو البلــبلة غادرت حجرة مكتبها مندفعة في الممر الطويل مخــبطة على بلاطه بضربات عصبية، كانت تمشي بخطى متعجلة وقلقــة لا تخطــئها العين فيما هي تحمل عرشها من الأنوثة بجلال وحــرص، عندما وصلت إلى المقهى فتحته بالمفتاح الذي سلمه لها مســعود الــنقاز بناء على أوامر المدير العام، ثم أشعلت فرن الغاز وأعــدت فنجانين من القهوة لم تنس أن تضع فيهما عدة قطرات من مــاء الزهــر، وبصينية القهوة محمولة على كفها نزلت الدرج إلى القــبو، وكمــا توقعت فقد وجدت عمر عبد الحميد مازال حيا يتنفس علــى حافــة الصمت لأنه لا يملك غير ذلك، كان يراوح بين اليأس والــرجاء متعلقا بأمل في رقة خيط من الدخان وقد ظن لأول وهلة بأنــه يحلم حالما طرق أذنيه إيقاع حذائها الذي لا يخفي عنه يتراجع

صـــداه في القبو، كان يفكر بما يشبه اليقين بأنها قد تكون محته من حـــياتها إلى الأبد، فلم تغب عنه دموع الاحتجاج الصامت التي بللت وجههـــا يوم أن ضمها إلى صدره بعنف وكاد أن يحطم عظامها في فوضى غرائزه التي توقدت كالنار في نشارة الخشب، ثم وهي تغادر مكتـــبة هاربة من دون أن تجففها، لا شك في أنه تمادى في حماقاته وتهوره فأغضبها وأثار استيائها وربما حقدها عليه، وهو الذي باغتها فلم تعرف كيف تدافع عن نفسها مبتعدة عنه إلى أن التصقت بالجدار، كـــان مـــن الواضح أنها لم تحتمل خشونته وهي أرق من أن تواجه عواصفه المخبأة تحت ثيابه.

لقـــد قـــرر أن يـــبقى في هذه المرة هادئا كالطفل في حضرة معلمـــه الحـــازم، لكـــي يبرهـــن لها على ندمه وأسفه، كما أنه من الضروري أن يخط لها رسالة اعتذار بدون كلمات يعلقها تحت جفنيه لكـــي تـــراها بوضـــوح، ولكن أفكاره هذه المدهونة بالندم والمغلفة بمشـــاعر الإحســـاس بالذنب لم تلبث أن اصطدمت بابتسامة صافية ومشرقة رآها مرتسمة على وجه أحلام وهي تبادره بتحية الصباح، وهـــذا ما بدد كل هواجسه وتوقعاته المريبة، وزيادة على ذلك هناك صـــينية القهـــوة التي تؤكد على تسامحها تجاهه، بل هي من ناحية أخرى تعبر بسلوكها هذا على أنها جاءته بنفس صافية كما هو طبعها دائمـــا، كانت بدون أصباغ، ولكنها أجمل من أي وقت مضى، هكذا رآهـــا، وهكـــذا سوف يظل يذكرها ما عاش، برغم من أنه لم يتغير فـــيها شـــيء عدا موقع فراشتها الذهبية، فهي الآن تحط على نهدها الأيســـر فـــي وضع لابد أنها استغرقت وقتا طويلا في تثبيتها بحيث

يبدو رأس الفراشة كالسهم الذي يشير إلى نهر من الحليب تجمد عند فتحة الصدر.

قالت لـــه بصوت مرح:

- كـــيف حالك يا عمر؟ وأضافت مقلدة صوت مسعود النقاز وحركاته المسرحية:

- تفضل القهوة بالصحة عليك.

ثـــم انحنـــت لتضع صينية القهوة على حافة المنضدة بحذر، وبعدمـــا رفعت فنجانها بأصابعها تراجعت إلى الوراء وحطت على الكرســـي الـــذي بـــلا مسند دون أن تأبه بكلمات الشكر والثناء التي طوقهـــا بها عمر عبد الحميد ضاحكة في سرها من مجاملاته الزائدة عـــن الحاجـــة، الحجـــرة كما هي دائما غارقة في الرطوبة ورائحة الزمـــن المتجمد، أدارت عينيها متفحصة السقف المغطي بشبكة من العنكبوت، وحومت مرفرفة في اتجاه الأرفف والزوايا إلى أن توقفت مذهولـــة عـــند فـــراش المرحوم عبد الدائم الذي مازال في موضعه الملاصـــق لإطـــار الباب كما طوته ذات يوم بيديها بعد رحيله عن الدنـــيا وألقـــت به هناك ملفوفًا في الشراشف الملطخة بالمرق وبقع الدواء، لقد ذكرها الفراش لا تدري كيف بالرجال الذين تحلم بهم من لـــيلة إلـــى أخري يحاولون الصعود إلى سريرها لكنها تصدهم بلا هـــوادة وهـــي تصرخ بلا صوت، رجال كثيرون تمكن بعضهم من اختراق دفاعاتها الحصينة، وعندها تصحو من نومها خجلة من نفسها ومرتعـــبة مـــن أنها تنزلق في ممارسات مخلة بعذريتها، فلا تجد ما

تـــتعزي بـــه عن أحلامها الفاضحة إلا في أنها خارجة عن إرادتها، ولكن الغريب في الأمر أن عمر عبد الحميد لم يكن واحدًا من هؤلاء مع أنها تفكر به طوال الوقت، فحتى المدير العام لم يعد ينافسه على موقعـــه في قلبها، كانت مستغرقة في مراجعة تواريخها السرية فلم تنتـــبه إلى يد موظف القبو وهي تحط كالفراشة على ظهر يدها، ثم وهـــو يطـــرق عليه بأصابعه هائما في هذه اللعبة إلى حد أنه نسي فنجان القهوة فلم يحتس منه سوي جرعة واحدة، لم تسحب يدها ولم تـــتحرك، وعندما أفاقت من شرودها على ضجة صفير الفئران في القبو لم تزد على أن قالت له: "اشرب القهوة قبل أن تبرد" فأخذ منها جرعة أخرى فيما تسارعت طرقاته على ظهر يدها، ومع أن جسدها الـــنائم منذ قرون انتفض متشنجًا أكثر من مرة إلا أنها ظلت تتظاهر بـــالهدوء واللامبالاة مبتسمة لنفسها في مرايا خيالها إلى أن تخدرت بتـــيار مـــن الـــدفء اللذيذ تسرب إلى أعضائها بما في ذلك عضو الشرف، عندئذ نهضت واقفة كمن ينهض في نومه ويمشي على غير هدى ودون وعي بأنها إنما تخطو خطواتها الأولي في اتجاه الهاوية بمقدار رفة جناح عصفور يطير في العاصفة، وهي التي كانت تظنها بحكـــم تربيـــتها الصـــارمة ومناعة التقاليد التي نشأت عليها باتساع الكـــون، وأبعـــد من المسافة التي تفصل بين الشمس والبحر، وهي المســـافة ذاتها التي ما كان عمر عبد الحميد يفكر بأنه يمكنه قطعها بعينيه الذاهلتين، ولا حتى بعين خياله فيما لو أطلق لـــه العنان.

لـــم يغـــادر عمر عبد الحميد كرسيه، ومع ذلك فقد رأي فيما يـــرى الـــنائم زهـــرة ظل تتفتح في عروة سترته، ورأي عدة نجوم

ترصــــع سقف الحجرة في وضح النهار، ثم أحس بالأرض من تحت قدميه ناعمة كالمخمل، وتذكر وداعه الصامت لزميلاته المغردات في كلـــية العلوم، كن أشبه بساحرات صغيرات في أقمطة من الجينز، لم توفق ولا واحدة منهن في تقييده إلى عجلتها حتى ولا فرح، وما كان ليخطر بباله إذا ذاك إلى أن ثمة ساحرة تدعي أحلام تنتظره في قبو شاحب الضوء تحت الأرض.

حــدّق فــيها منــبهرًا كما لو أنه يراها لأول مرة جالسة على كرســـي بـــلا مسند في هيئة ملكة تائهة عن عرشها، رآها من وراء ضـــباب روحه وهي تمسك بذؤابة ضفيرتها الناعمة كما لتفك عقدتها، تأمل أصابعها التي من فضة وأنفها المنحوت ببراعة، ثم حوم مرتعشا بـــالحمى فـــي اســـتدارة عنقها المصبوب في قالب من الشمع، وسرح مطولا ساهما في انتصاب نهديها، وعندما حطت عينياه على فراشتها الذهبية النائمة على صدرها انكفأ على نفسه في هذيان صامت كما لو أنـــه أصـــيب بضـــربة شمس، وعلي إثر ذلك تصاعدت من لا مكان موسيقي صاخبة، عندئذ نهض واقفا ليرقص على إيقاعاتها الفرعونية، سوف يبدأ رحلته الشاقة على الأقدام ملاحقا طيفها أينما كان، حتى إذا كـــان يتوجـــب عليه أن يقطع الصحراء مكافحا الرمال والعطش وهو يقتفي أثرها مسترشدا بأنفاسها التي لها رائحة حقل من الزهور، ولكنه لا يدري كيف أنها جنبته كل هذه المعاناة عندما التقت به في منتصف الطريق وهو يخبط في التيه، فقد كانت هي الأخرى خارجة من عتمة زمـــنها المفقـــود، كان يظن لأول وهلة بأنها سوف تتملص منه هاربة للـــنجاة بنفسها حالما تفيق من غيبوبتها على الحريق الذي يوشك على

الـــتهام أطـــراف فستانها، وقد يلتهم كل شيء في طريقه بما في ذلك فراشتها الذهبية، همس في أذنها بصوت مبحوح مطمئنا إياها ومؤكدا لها بأنه ليس هناك ما يدعو إلى الخوف أو الريبة، قال ما قاله وهو لا يعلم أنها ترددت طويلا قبل أن تخطو في اتجاه قفصه الحجري، كانت مشفقة على نفسها من مغامرة غير مأمونة العواقب، ولكن ما هو أسوأ مـــن ذلك أن عمر عبد الحميد لم يتح لها الفرصة لاتخاذ القرار الذي يقودها في الاتجاه المعاكس حين أخذها بين ذراعيه لدي اصطدامها به وهي في النفس الأخير، فكان أن خبأت وجهها في صدره لكي لا تري أبعـــد مـــن موقع قدميها، ثم تعلقت بكتفيه خائرة القوي، فقد أحست أن ســـاقيها لم تعودا قادرتين على حملها وأنها سوف تنهار في أية لحظة، كانـــت تهذي وقد اختلط هذيانها بدمدمة موظف القبو، ثم بصوت عبد الدائم الذي لم يحسب أحد حسابه وهو ينهض من نومه الأبدي مروعًا على إثر نزاع الغرائز الذي نشب في حجرة مكتبه، لم ينتبه لـــه عمر عبدالحميد عندما تقدم منه بعينين منطفئتين ووجه من التراب وقال له:

ـ أرجوك يا عبد الدائم.

ـ إنك تجني على فتاة بريئة، وهذا لا يجوز في كل الأعراف والشرائع الإنسانية، اتقِ الله ودعها تعود إلى مكتبها بسلام.

قـــال ذلك ودفعه غاضبًا بمرفقه وكأنه يريد إبعاده عن طريقه ناســـيا بأنه لا وجود لـــه إلا في مرآته المغبشة، التفت حوله فلم يرَ أي أثر للشبح الذي يبدو أنه رجع إلى ملفه مسرعًا لأنه لا يحتمل أن يكـــون شاهدا على مذبحة العفة وليس في إمكانه منعها، أما هو فقد

تواصـــل مع طقوس الحب الجسدي بخبرته التي اكتسبها في فراش كنزة، وقد علمته من فنونه في ليلة واحدة ما يكفي ويزيد عن حاجته، كـــان يـــود تهدئــتها فيما هو لا يجد من يهدئه، ومع ذلك فقد راح يهدهدهـــا بـــدأب ومثابرة، وقد أفلح في أن يكنس بهمة عالية ونفس بطيء ما علق بروحها من مخاوف ووساوس وما أحاط بجسدها على مر القرون من مركبات النقص واللعنات من دون أن يدرك في حينها أنه هو نفسه جزء لا يتجزأ من معادلة الخداع هذه، بعد أن أزاح كل ذلـــك الركام جانبا، أخذ يداعبها بنفس الأسلوب الذي تجرأ عليه وهو في ضيافة بائعة الهوى المحترفة ملتصقاً بها أكثر فأكثر إلى أن ذابت مخاوفها الجليدية فتوقفت عن الارتجاف وتمددت مسترخية في فراش عـــبد الدائم، حل الصمت، وحتى عبد الدائم كتم أنفاسه ومات للمرة الثانية مطعونا بسكين خليفته على عرش الموتى.

- 11 -

لا أحد يعرف بدقة متى ولا كيف تسرب خبر العلاقة المريبة الناشـــئة بين أحلام وموظف القبو إلى مكتب المدير العام متسربلاً بالشـــك والحـــيرة، ولا كـــيف تلقفه هدا الأخير من وراء منضدة الاجـــتماعات، وهل اكتوى بجمرته المتوقدة وهو يمسك بها في يده والـــى أي أحـــد، ومـــع إن الخبر ظل حتى اللحظة الأخيرة مجرد إشـــاعة طائرة في الهواء وأقاويل غائمة وغير مؤكدة، تحوم فوق الـــرؤوس مخـــتلطة بـــرائحة القهوة والشاي ولحم التونة والنعناع وأساطير مكافحة التلوث البيئي، متخبطة في الزوايا والممرات، إلا إنهـــا تجسدت في النهاية بكل غبارها في الظل الأسود للشبح القابع في مخزن ملفات الموتى.

لقـــد دأب مسعود النقاز على توزيع هذه الإشاعة على مراحل وببخل شديد وفي جرعات صغيرة كما لو أنه يحرص على أن يطيل في عمرها إلى ما لا نهاية، يزنها بميزان الذهب ويغلفها بورق لماع بحيث تثير الشهية للمزيد من فناجين القهوة بالسكر وبلا سكر وأقداح الشـــاي وأرغفـــة الخبز الطازج فيما هو يذرع الممرات والردهات ويطوف بالمكاتب جيئة وذهابا طوال ساعات الدوام الرسمي، يتوقف هـــنا وهناك لتقديم الإيضاحات اللازمة والتطورات اللاحقة وآخر ما استجد من وقائع وأسرار في قصة الحب التي تشابكت خيوطها الدبقة

فـــي القبو وبحضور موتى الشركة الموقرين وعلى مشهد منهم، فقد تركـــز كـــل نشاط القهوجي وتحركاته في الآونة الاخيرة على هذا الخـــبر المشوق وتداعياته، يحمله على طرف لسانه أينما دهب. فيما يلتف حوله الموظفون باطراد الأسئلة والدهشة وسوء الظن والسخط وكأن مصير كوكب الأرض وثباته في مداره يتوقف على صحة هده الواقعـــة ونتائجها المحتملة، خاصة فيما يتعلق بمغزى السؤال الذي وجهـــه عمـــر عبد الحميد موظف القبو إلى القهوجي حول رأيه في أحلام، فإذا كان مسعود النقاز يقول الصدق ويتحراه في هده المسألة بالـــتحديد فـــإن معنى ذلك أن حاجب الموتى يعد العدة ويتهيأ بالفعل للانقضاض من وراء ظهورهم على أحلامهم كالتفاحة التي نضجت فـــي يـــده، فلم يبق إلا أن يشرع سكينة لتقطيعها والتهامها بقضمات صغيرة وعلى مهل، ومن المحتمل أن يتناولها في لقمة واحدة.

لقـــد أجمعوا وهم ينصتون مشدوهين إلى ثرثرة القهوجي أن ذلك المتشرد الذي يجلب الشؤم لا يستحق ظفرها أو حتى شعرة من رأســـها، فكيف يأخذها كلها على بعضها من دون استشارة أحد، مع إن كـــل واحـــد مـــنهم يعتبر نفسه وليًا لأمرها وأولهم المدير العام بالطـــبع، ولـــذا فقد بات من الضروري إبلاغه بما يجري من وراء ظهـــره وفـــي غفلة منه عله يلحق بحمامته الوديعة قبل أن تقع في الشـــباك الـــذي يبدو أن شبح القبو قد شرع في نسج خيوطه حولها بأحكام، وهو الذي لا يجد ما يشغل به نفسه طوال اليوم سوى احتساء القهـــوة السوداء والتأمل في عالم الموتى ومراقبة مناورات العناكب الصـــغيرة لاقتناص ذبابة هائمة في فضاء الحجرة، أو مطاردة فأر

جـــائع يطل برأسه عند عتبة المكتب بأمل الحصول على وجبته من أوراق الملفـــات الصفراء المتراكمة على أرفف النسيان، فما أن يراه بجلـــده الـــرمادي محدقـــا بعينيه الصغيرتين حتى ينهض باندفاعات حازمـــة لتعقـــب ذالـــك المخلـــوق الضئيل لاهثا وراءه بطول القبو وعرضـــه إلى أن يتمكن من حصاره في زاوية ضيقة، عندئذ يوجه إليه ضربة عنيفة بمقدمة حذائه فيهشم رأسه في انتظار مسعود النقاز الذي يمسك به من ذيله ليلقى به في عربة القمامة.

لقد عمي ذلك الكائن الرث عن وضعه، الوظيفي وبؤسه وظن أن نجاحـــه ومهارته في حصار الفئران وقتلها يمكن أن ينطبق على أحلام بكل تفاصيله، ومع ذلك فلم يجرؤ أحد منهم على إبلاغ المدير العام بالخطر المحدق بأحلامه، وهو الأمر الذي لا يمكن تجاوزه أو التساهل فيه بعد أن تأكد لديهم أن هذه الواقعة لم تعد موضع شك أو تكهـــنات، بـــل ويمكـــن إثباتها بأدلة دامغة كما في عمليات التهريب والســـطو، أما القهوجي الذي اختاروه لآداء هده المهمة العاجلة فقد دمدم قائلا:

ـ أنـــا لا، سوف يقول المدير العام إن مسعود النقاز جنّ في آخـــر عمره، وقد يطردني إلى الشارع. ثم أضاف وهو يضع صينية القهوة على كفه

ـ أنني متأكد من أنه لن يصدقني.

في دوامة هده البلبلة التي أشاعها القهوجي في أرجاء الشركة أخـــد المدير العام بعد أن التقط طرف الخيط الذي أوصلته به إحدى

الموظفـــات في محاولة مكشوفة للتقرب منه في تقصي الحقيقة التي أرقـــته مـــن دون أن يغـــادر حجرة الإدارة، كما أنه لم يكلف أحدا بمراقبة أمينة سره في الخفاء لأن ذلك يتناقض مع ثقته بها، لقد تنبه مـــتأخرا إلى أن هذه المخلوقة الرقيقة التي تشيع الفرح في قلبه كلما دلفـــت إلـــى حجرة الإدارة أو عند مروره بها جالسة في مكتبها ما عادت تكترث به على الإطلاق، وأغرب من ذلك ما لاحظه من أنها لم تعد تلجأ إلى المناورة لإطالة مكوثها في حجرة الإدارة بهذه الحجة أو تلك، كما لم يفته ملاحظة التغيرات التي طرأت عليها منذ التحاق المدعـــو عمـــر عبد الحميد بالشركة، وبالتحديد ساعة إن تقدمت إليه بطلـــب سلفة على حساب مرتبه، يومها كذبت عليه لأول مرة وهي تحاصـــره فـــي دائرة عطرها المنوم وشذى أنفاسها، ثم انحنت عليه لكي يوقع على الطلب.

كـــان الخط خطها الذي لا يمكن أن يخفى بحروفه المكسورة وتعـــرجاته، ومع ذلك فقد ادعت أن كاتبه هو موظف القبو المستجد، يومـــئذ لـــم يشـــأ أن يجادل في هذه المسألة العابرة لعدم رضاه عن تصرفاتها من الأساس، إضافة إلى ذلك فقد تولت هي بنفسها صرف المبلغ المالي من خزينة الشركة وتسليمه إياه يدا بيد لدى نزولها إلى القبو للمرة الثالثة منذ رحيل عبد الدائم إلى الدار الآخرة وكنس آثاره كما أمر هو بذلك، ولكن ما أثار غيضه حتى الجنون فهو أن منافسة في أحلامه جاء من العدم، ثم خرج عليه من تحت الأرض في هيئة شـــحاذ وقـــد شمر عن ذراعيه لمصارعته مع أنهما في نحافة أرجل كرســـي وكأنـــه لا يدري من هو، ذلك الشبح لا يحتاج إلا إلى نفخة

واحــدة لكـــي يختفي من الدنيا أو يطير في الهواء كالريشة، سوف يطــير، ســوف يطير، قال متمتما بعد أن استدعي أحلام إلى مكتبه وأمــرها باستدعاء مسعود النقار في اليوم التالي لعودته إلى الشركة مع انتهاء إجازته.

كان القهوجي ينصت بشرود إلى صوت غليان الماء في إبريق الشـــاي وهو يسبح بحمد الله من دون مسبحة حين خطت أحلام إلى حجرة المقهى بوجهها المتورد لإبلاغه بضرورة حضوره إلى مكتب المديــر العـــام دون إبطاء، قال لها: حاضر، وقد شحب وجهه من الخـــوف، متخيلا حجم المصيبة التي من المحتمل أن تقع على رأسه بعـــد قليل؛ ذلك إن المد ير العام كما عرفة وخبره منذ تنصيبه على رأس الشركة لا يستدعى أحدا إلى مكتبة بصورة ملحة ومستعجلة إلا إذا كـــان قـــد أعد لــــه وليمة من الشتائم والتقريع تليق. بمقامه؛ وقد يقذفـــه برسالة موقعة ومختومة بإنهاء خدماته في الشركة دون إبداء الأســـباب الموجـــبة لمـــثل هـــذا الإجراء الذي لا يقبل المراجعة أو الاحتجاج، يرعد في وجهه ويظل يرعد إلى أن يتلاشى ذلك الموظف المسكين في ثيابه فلا ينبس بكلمة، وحتى إذا أراد فهو لا يجد صوته، وعـــندما يخـــرج من عنده يبدو كالشمعة المحترقة ؛ ومع أن أحلام أوصته بعدم التأخير فقد تمهل مصرًا على عدم المثول بين يدي ولي نعمـــته بدون فنجان القهوة الثاني بالرغم من أن موعده لم يحن بعد، وهكـــذا شرع في إعداده بنسب دقيقة من البن والسكر، بالإضافة إلى قطـــرات معدودة من ماء الزهر، وضع الركوة على النار وجهد في تخميـــن نوع المشكلة التي حتمت استدعاؤه لمقابلة المدير العام على

وجـــه السرعة، فحاول أن يسترجع في ذهنه وبترتيب زمني الوقائع والأحـــداث التـــي شهدتها الشركة في الأسابيع الأخيرة فوجد أن كل الأشـــياء مازالـــت كما هي تدور في عجلتها اليومية دون أن يطرأ علـــيها أي خلل أو انحراف عن سياقها المعتاد، الموظفون يثرثرون بكـــل ما يعن ببالهم والحياة تمضي والشركة تعمها الرتابة في إطار مســـارها التقلـــيدي الذي لا يتغير، فلا جديد إلا في جنوح أحلام في اتجاه القبو وعلاقتها بساكنه، وهي العلاقة المريبة التي تثير هواجسه وظـــنونه غـــير البريئة، ومع مرور الوقت فقد استحوذت على كل اهـــتماماته وفضـــوله فوّجه إليها حواسه الخمس في محاولة دؤوبة لرصد مناوراتها لدي توجهها إلى حجرة ملفات الموتى جيئة وذهابا متخفـــية حتى لا تثير ريبة أحد، لم يغفل عنها لحظة واحدة، لكنة لم يلاحـــظ لأول وهلة ما يدعو إلى الشك وسوء الظن في سلوكها، هذا إلـــى أن رآها ذات صباح متزينة على غير العادة كما لو إنها كانت تحـــتل موقع الصدارة في عرس من أعراس الصيف، مرتدية أجمل ثـــيابها وقد تلطخ وجهها بالأصباغ من كل الألوان، كان الحذاء في قدميها بلون فستانها السماوي وكذلك حقيبة يدها، أما تسريحة شعرها فهـــي شـــيء آخر، ومع أنه لا يفهم إلا القليل في مثل هذه المظاهر النسائية فهو لم يدرك إطلاقا الحكمة ولا الهدف من تلك القبة السوداء التي كانت تحملها على رأسها، وبهذه القبة الغريبة من الشعر الأسود وبذيل عطرها الذي يتماوج من وراء ظهرها عابقا في الجو برائحة الياســـمين هبطت إلى القبو متسللة على رؤوس أصابعها كما لو أنها تمشـــي على البيض، إذ ذاك لم يعد يشك بأن أحلام قد انتقت موظف

القــبو مفضلة إياه على جميع موظفي الشركة العامة لخدمات البيئة ومكافحــة الــتلوث، لــم يبرح مكانه إلى أن رآها تخرج من تحت الأرض بعــد نصف ساعة ولكن في هيئة أخرى، كانت تمشي شبه دائخــة وفي عينيها بزغ قمر صغير بضوء ساطع، رآها تتوقف في انــتظار المصعد منشغلة بتسوية قبة شعرها بلمسات خفيفة، لقد ندم يومهــا وأنــب نفسه بلا رحمة لأنه لم يهبط الدرج وراءها، وبذلك ضــيع فرصة رؤية ذلك القط الهزيل وهو يشحذ مخالبه للانقضاض علــى هذه العصفورة بريشها الناعم وبراءتها، ومع أنه سيء الظن بجنس حواء عموما إلا أنه لم يستطع التكهن بما حدث في ذلك اللقاء السري، كان يجب أن يتريث قليلا قبل أن يلحق بها في مكتبها وكأنه شــاهد زور، كان في نيته تعزيتها، ولكنه ما لبث أن توقف متسائلا فــي حيرة: ولكن على ماذا؟ وجدها جالسة على كرسيها الدوار وفي يدهــا مــرآتها الصــغيرة مرفوعة في مواجهة ضوء النافذة متأملة وجهها بعناية كما لتتفحص كل ما انطبع عليه من آثار مغامرتها في القــبو لكي تمحوها، بقي للحظات منتصبا بصمت في مواجهتها، ثم قال بلهجة عمد إلى أن تكون أبوية.

- هل أحضر لك الشاي؟

- ولأول مــرة علــى مــا يذكر منذ التحاقها بالشركة تجيبه بخشونة:

- لا يا عم مسعود شكرا.

- الشكر لله يا ابنتي.

أجابهـــا وهـــو يـــتراجع بصينية القهوة في اتجاه الباب، لعلها أحست بطريقة ما أنه يراقبها ويرصد تحركاتها من مكان إلى آخر، ولكنه يرى أن تصرفه هذا جزء من واجبه واستجابة لما تمليه عليه مشـــاعر الأبوة تجاهها، إنه يخاف عليها من أنياب الذئب الذي يدثر بجلده موظفو الشركة من تحت ثيابهم وأولهم المدير العام، أما عمر عـــبد الحميد فهو لا يعده من هؤلاء بهزاله وطبعه المتحفظ وأخلاقه الحمـــيدة، وفـــوق ذلـــك اتزانه في سلوكه، على الأقل فإن ذلك هو انطباعه الأول عنه مذ رآه لأول مره تائهًا في ممر الطابق الأرضي فأخذ بيده إلى أن أجلسه على عرش الموتى، ولم يجد حينها ما يدعوه إلى التفكير بأنه ثعبان يختبئ في معطف أسود.

عـــندما فاجأه فوران الماء في الركوة النحاسية فكر بما يشبه اليقين أن استدعاؤه إلى حجرة الإدارة على عجل يرتبط في الأساس بهذه القضية التي تعني المدير العام وتثير اهتمامه أكثر من أي شيء آخر في الدنيا، ولذا فقد هدأ قليلا وتنهد بارتياح، ذلك أن مسألة كهذه لا يمكن أن تظل خافية عنه إلى الأبد، فلا بد أن أحدهم قد سرب إليه الخـــبر لأمر ما، حمل صينية القهوة على كفه ومضى مخبطاً بحذائه البالـــي علـــى بلاط الممر في اتجاه مكتب المدير العام، وقد قرر أن يطلعـــه علـــى الحقيقية كما هي بكل زخارفها وألوانها الفاقعة، كانت أحـــلام جالسة إلى مكتبها مستندة إلى الوراء وفي يدها مجموعة من الأوراق مـــنهمكة في تصفحها، ابتسمت في وجهه لدى دخوله عليها بصينية القهوة .

- تفضل يا عمّ مسعود.

قالت ذلك بصوت مرح مرحبة به بمودة، ثم قامت من كرسيها وفتحـت لــه باب حجرة الإدارة ليدلف إلى فضائها الفسيح دون أن يخطـر ببالها آنئذ أن هذا القهوجي الثرثار جاء ليقرر مصيرها إلى الأبـد فـي اتجـاه منعطف آخر، إذ ليس في ذهنها سوي عمر عبد الحمـيد لتفكر به، غارقة في أفراح جسدها الذي أزهر بين ذراعيه، هناك حيث يقبع في منفي الصمت ذلك الرجل المتوحد الذي هجست بقدرهما المشترك منذ رأته يلج مكتبها لأول مرة بينما كانت تنصت حالمـة لوقـع حبات المطر على زجاج النافذة، أحبته كما هو، ويوم أمـس خاطبت المدير العام بشأنه راجية إياه لكي يخرجه من القبو، فهـو كمـا قالت لــه يستحق وظيفة أفضل، ولكن الرجل حدق فيها بريبة وقال لها بحزم:

- كل شيء بأوانه يا أحلام.

خطـا مسعود النقاز في اتجاه الباب العريض وقد استبدت به مخاوفـه إلى حد أنه تعرق بها وهو يدلف إلى حجرة الإدارة، ومع ذلـك فلم تغب عن حواسه رائحة الياسمين التي تعطر الجو كمؤشر على أن أحلام قد مرت من هنا منذ قليل، رفع المدير العام رأسه عن بريده الصباحي، وبعد أن فر الورقة الأخيرة ووقعها بقلم أسود لــه غطـاء مذهـب فرد ذراعه وأشار للقهوجي بأن يضع صينية القهوة علـى المنضدة الخشبية التي تتوسط كراسي الصالون المغلفة بقماش ناعم يبدو في ضوء الشمس مغمورًا بظلال أشجار النخيل المرسومة على حوافه، ثم ما لبث أن لحق به قائلاً بلهجة احتفالية:

ـ والله لا أدري ماذا أفعل من غيرك يا مسعود.

ودمـــدم داعــيا إيـــاه بإشارة أخرى إلى الجلوس على الكنبة العريضة، فيما أخذ هو مكانه في الواجهة على كرسي منفرد، ولكن القهوجـــي لـــم يســتطع تقــبل دعوة المدير العام لـــه بالجلوس في حضـــرته وأخذها على محمل الجد، لأن ذلك لم يحدث من قبل على الإطـــلاق، فظـــل واقفا لا يدري ماذا يفعل إلى أن أمره المدير العام بالجلوس بشيء من الحدة.

ـ قلت اجلس يا مسعود، أم أنك لا تسمع.؟!

عندئذ وبإزاء خشونة الصوت ونبراته الصارمة قعد القهوجي بــبطء علـــى حافة الكنبة منحنيا إلى الأمام وهو يفرك يديه إحداهما بالأخرى، مد المدير العام يده وتناول فنجان القهوة الذي يتصاعد منه الـــبخار ورفعـــه ممسكا به من أذنه، كانت عيناه تحومان من حول مسعود النقاز متأملا هيئته عند ما احتسي جرعة واحدة من القهوة ثم أعاد الفنجان إلى الصينية.

ـ كيف حالك يا مسعود؟

ـ أنا بخير يا أستاذ.

بهذا أجابه القهوجي، ثم بسط كفيه وأضاف:

ـ الحمد لله على كل حال.

ـ وبناتك الخمسة، قلت أن عددهن خمسة أم أنني مخطيء؟

- هن بخير أيضا.

وما لبث أن تنهد قاطعا صمته بصوت متهدج.

- إحداهن وهي الصغرى تخرجت هذا العام من معهد المعلمات، ولو أنني قلق من أجلهن جميعا، لا أدري ما الذي يجري في هذه الدنيا؟!

ابتسم المدير العام وقال يسأله:

- وما الذي يجري في الدنيا يا مسعود؟

- ما يجري يا أستاذ هو أنه لا أحد يطرق الباب ويطلب يد واحدة منهن لأفرح بها كأن البلاد خلت من الرجال.

فكر المدير العام في محنة القهوجي ومعاناته من عقدة بناته العازبات، وقال مواسيا ومطمئنا إياه.

- لكل فول كيال يا رجل كما يقول المثل، ثم من يدري فقد يرزقك الله بخمسة كيالين في يوم واحد، قول إن شاء الله يا مسعود.

- إن شاء الله يا أستاذ. فهذا كل ما أتمناه.

بدا المدير العام وهو يحدّق في وجه مستخدمه الكهل بشيء من التركيز كما لو أنه يود دراسة ملامحه جيدا قبل أن يستجوبه، أو أنه يود أن يتعرف عليه مجددا في ضوء آخر، هذا الرجل الخدوم الذي عاصر مديرين كثيرين تعاقبوا على كرسي الإدارة الواحد في إثر الآخر، البعض نقلوا إلى مواقع وظيفية أخرى وثلاثة انتقلوا إلى

رحمـــة الله، أما هو فإنه يبدو في كل حالاته في هيئة من يمشي فوق حـــبال الزمن بحذر شديد لكي يحافظ على توازنه فلا يسقط مرتطما بالأرض، أو أنه يراوغه بفكه العريض وطاقيته التي تغطي جمجمته الحلــيقة وعينيه الصغيرتين القلقتين كعيني الثعلب، لم يغب عنه منذ الأســابيع الأولـــي لتســلمه منصب المدير العام في الشركة غرابة أطواره وشطحاته وغرامه بالتنقيب في أسرار الآخرين كيفما كانت وكأنهـــا قابلـــة للاســتثمار، لذا فقد قرر أن يكون هو مرجعه الأول لمعـــرفة كل ما يجري في الشركة من وراء ظهره. فما كان ليخذله أبدا، نظر في ساعة يده الذهبية، ثم قال منطلقا من نقطة محددة.

- اسمع يا مسعود، أود أن تقول لي الحقيقة كما هي بلا زوائد ولا تخيلات هل فهمت؟

هـــزّ مسعود النقاز رأسه بالإيجاب، مع أنه لم يفهم شيئا بعد، وكل ما هنالك أنه وضع يديه على ركبتيه في انتظار ما سيأتي، أما المدير العام فقد تابع كلامه قائلا:

- أعنـــي أحـــلام وما يتناقله الموظفون عن علاقتها المريبة بموظـــف القبو، هل صحيح ما يقال أم لا؟ قل كل ما تعرفه عن هذا الموضوع يا مسعود وسوف أكافئك بأكثر مما تتوقع.

بدا القهوجي برغم إغراء المكافأة المنتظرة حائرا ومرتبكا لا يـــدري من أين يبدأ إجابته على هذا السؤال الشائك إلا بأن يعود إلى الـــوراء ليذرع الطريق من أوله جيئة وذهابا، لقد اعتزم منذ البداية علـــى البوح بكل شيء ودونما مواربة، بالتحديد مارآه بأم عينه، مع

أنه لم ير إلا القليل مما يعد من الأمور والأشياء العادية التي تقع كل يـــوم وفـــي أي شركة عامة أو خاصة في سياق علاقات الموظفين ببعضهم ببعض والزيارات المتبادلة فيما بينهم في كل الأوقات بدون ترتيـــبات مســـبقة لإنجاز بعض الأعمال التي لها علاقة بسير العمل اليومـــي، أو لدى انعقاد اجتماعات النميمة التي تثير اهتمامه وشهيته للـــثرثرة فـــيحرص على حضورها والمشاركة في دوامتها بنصيب الأسد، كان المدير العام في الغالب هو العجل السمين الذي يفضلونه فـــي مـــثل هـــذه الاجـــتماعات اليومية لما تتضح به شخصيته من مغامـــرات عاطفـــية وفضائح أخلاقية واختلاسات وممارسات مريبة يعجزون برغم تفانيهم في رصدها عن معرفة خفاياها بدقة، وآخرها مـــا أشـــيع من أن زوجته الثانية طردته كالكلب من قصرها الضخم المطل على شاطئ البحر، متهمة إياه بالجحود والخيانة الزوجية وهو الـــذي لـــم يكـــن حجمه يزيد عن حجم صرصار عندما التقطته من المصـــرف فـــي قبضة يدها الرطبة، وقد منحته ما يكفي من المال والسطوة لكي يرفع رأسه بثقة أمام الناس ولكي يكون لائقا بها كزوج مطـــيع ومخلص، وما كانت تدري بأنه سوف يعلن العصيان ويتنكر لـــنعمها بمجـــرد أن يشـــب عـــن الطوق، كانا أشبه بعدوين لدودين مجبريـــن على التعايش والنوم في سرير واحد إلى أن خمشت وجهه ذات يـــوم بأظافرها الطويلة على إثر مشادة عنيفة نشبت بينهما في إطار خصوماتها اليومية التي لا تنقطع، كان في نيتها أن تفقأ عينيه، ولكنه تمكن من الفرار مذعورا وسترته في يده.

لـــم يكـــن هذا الرجل ليكترث كما يبدو في الظاهر بما يتناقله

الموظفــون عن انحرافاته وفضائحه وأسرار حياته الزوجية ونزواته ليقيــنه كمــا قــال ذات يــوم لأحلام بأن مستخدمي الشركة سوف يخــتلقونها إذا لم توجد بحكم أن ذلك هو متنفسهم الوحيد لما يكنونه لـــه من حقد وحسد، فلو كان في إمكانهم أن يسقونه السم الزعاف لمــا تأخروا عن ذلك لدقيقة واحدة، إذ إن أحلام هي كل ما يهمه في خضم هذه الفوضى والبلبلة، جوهرته النادرة التي يحرص عليها أكثر مــن نفســه، عندما رأى مسعود النقاز يهرول بلسانه في كل اتجاه اعترض طريقه قائلا بنفاد صبر:

- كــل هــذا أعرفه يا مسعود، ولكن لا يغيب عنك أن أحلام تــتردد علــى القبو يوميا، هذا ما علمته متأخرا، وأنا لا أدري مدى صحة ذلك ولا ما يجرى بينها وبين ذلك الشيطان في الخفاء.

هــزّ القهوجي رأسه بشرود في هذه المرة، ثم انطلق من فوره لاقــتفاء أثــر أحــلام وهــي تهبط درجات القبو تكاد تطير من فرط الســعادة، تمشي في البداية بخطي هادئة ومتزنة وبضربات محسومة على بلاط الممر، غير أنها ما أن تضع قدمها على أول درجة في سلم القــبو حــتى تــتحرر من مخاوفها وحذرها دفعة واحدة فتنزل الدرج بقفــزات مــرحة. ثــم تهرول مندفعة في اتجاه مخزن ملفات الموتى كــالطفل الذي يغمره الفرح والبهجة وفي يقينه أنه تمكن من خداع أمه والتملص من رقابتها الصارمة، تهدج صوته وهو يجرى بأنفاس لاهثة ملاحقــا إياها لكي يمسك بها من طرف ثوبها كما في الأحلام، مشفقا في قرار نفسه على هذه المخلوقة الجميلة والناعمة التي لا يمكن لأحد أن يســيء الظن بها، أو يفكر أن قدمها يمكن أن تزل إلا إذا انحرفت

الشـــمس عن مسارها أو غربت في غير موعدها. لكنه وبرغم ذلك لا يمكـــنه البـــت برأي قاطع فيما إذا كانت قد فقدت توازنها وهي تنحني علــــى بركة من العسل فسقطت فيها، وقد تكون تذوقت طعمه بطرف إصبعها، وإذا كانت وهي تجري في العاصفة قد فرطت في عفتها وهو أمـــر بعيد الاحتمال ولا يمكن تخيله، فإنه في كل الأحوال لا يستطيع تأكيد هذه المسألة لأنه يرهب الكذب على الله.

انـــتظره المديـــر العام بصبر الحجر صامتا إلى أن فرغ من خطبته المضطربة، ثم أمسك به من يده وأعاده إلى الوراء قائلا:

ـ ولكن ما الذي رأيته بالضبط يا مسعود؟ .

- 12 -

بالـــرغم مـــن أنها كانت تحوم من حوله كالفراشة وهي تهز جناحيها المزركشين في ضوء الشمس، مرفرفة من حوله وهائمة في فضائه طوال الوقت بابتسامتها الرقيقة التي تجيد رسمها على وجهها باتقـــان ما يرفع من درجة حرارته إلى حد لا يطاق، فإنه بالإضافة إلـــى ذلك يحن دائما إلى قهوتها اللذيذة التي تعدها لــه بيدها النشطة في غياب مسعود النقاز، وأحيانا تصر على ذلك في حضوره أيضا، تأتـــيه بها في مكتبه وهي تود في قرارة نفسها لو أنه يقبل بأن تسقيه إياهـــا فتجنـــبه بذلـــك عـــناء ارتشافها، كما لا يغيب عنه مناوراتها المكشـــوفة للـــتقرب منه والاحتكاك به وملامسته بذراعها أو بشذى أنفاســـها التي تغمره بها منتهزة فرصة انشغاله وانهماكه في تصفح وتوقـــيع بريده الصباحي، ومع ذلك فهو لم يفكر أبدا في إدراجها أو تصـــنيفها ضـــمن قائمة نسائه المتأهبات على الدوام في انتظار أول إشارة من يده لارتكاب أجمل خطيئة عرفتها البشرية منذ بدء الخليقة، وذلك بعكس ما يقوله موظفو الشركة من أنه لن يصبر عليها طويلا وأن المسألة هي في آخر المطاف مسألة ترتيبات وترقب، فإذا حانت الظروف الملائمة فإنه في هذه الحالة لن يتأخر عن جرها من جديلة شعرها السميكة إلى زاوية آمنة في مكتبه، أو في أي مكان آخر، ثم يلـــتهمها على مهل بنفس طقوس الحنين المزيفة التي يتقنها ببراعة، وكما يليق بهذه الأميرة الفاتنة.

لقـــد وضــــع يده المراوغة عليها منذ أول يوم رآها فيه مقبلة علــيه بهالة شعرها الغجري وقوامها الرشيق وطبعها المرح، إضافة إلـــى أنوثتها العارمة التي تدير الرأس، فلا يملك المرء في حضرتها إلا أن يمـــثل دور الدرويـــش الذي تستبد به غرائزه الجامحة وتهزه كالقارب في عرض البحر فيرقص على إيقاعها متمايلا إلى أن يسقط ميـــتا من الإعياء، هي التي جاءت من الغيب لكي تنضم إلى قطيعه المتنافـــي مـــن الموظفات الزائدات عن الحاجة اللاتي يتم اختيارهن وفقا لمقاييس ومواصفات دقيقة، بمنأي عن المؤهل الدراسي والخبرة الإداريـــة، فـــالمهم هو ما تتمتع كل واحدة على حدة من خصائص جمالية، بدءًا برسم قسمات الوجه إلى أصابع اليدين والأسنان وانتهاء برمانتي الصدر ومدي انتصابها، فالأنوثة وطابعها المتوهج هما أول شرط للقبول، أما الباقي فيهمل كورقة يانصيب غير رابحة.

ولكي لا يكون هناك خلط أو سوء فهم في هذه المسألة الحيوية فقد شكّلت لجنة للفحص برئاسة عبد الدائم، وعندما اتخذ قرار تنحيته تمهيدا لإيداعه في مخزن ملفات الموتى تولي المدير العام بنفسه هذه المهمة الشاقة والمثيرة بقدر ما تنتعش الحواس الخمس وتوقظ القلب، مـــن ســـباته، مع ما يتخللها من أمنيات ومواعيد مؤجلة، فيجلس في حجرة مكتبه لاستعراض موكب المتسابقات بنظرة ساهمة، يزن كل واحـــدة تمـــر مـــن أمامه بميزان ذوقه وخبراته المتراكمة في عالم النســـاء، فـــي انتظار أن يوفق إلى وجبة شهية من هذه النعم الإلهية التـــي يحـــرص دائمـــا على أن تكون صحية وسريعة الهضم، كان يطـــرب لهذه المخلوقات الهشة وكأنه ما وجد على ظهر الأرض إلا

لكي يدفع أكبر عدد منها بضربة من لسانه المندى بالنبيذ منصتاً إلى شقشقة العصافير التي تحط على أغصان قلبه، وتلك التراتيل الحزينة عــن أشواق وعشاق عبروا في ظل الفسق ملوحين براياتهم الحمراء المبللة بالدموع، أولئك الرجال الذي عاشوا في زمن غابر يمرون به فــي صفوف طويلة وهم يرددون أنا شيد الغزل لنساء أشبه بالزهور البرية التي تنمو في وهج الصحراء، فلا تتفتح إلا عند بزوغ الفجر.

وهكــذا فكلمــا خطــر بباله تجديد طاقم الشركة من الجنس اللطــيف وبعث الحيوية في مفاصلها بدماء جديدة أمر بنشر إعلان فــي الصــحف عــن حاجة الشركة الماسة إلى عدد من الموظفات بشروط كذا أو كذا. على ألا يزيد عمر المتقدمة عن خمسة وعشرين عامــا، فما أن تمر عدة أيام على ظهور الإعلان في الجرائد اليومية حتى تتراكم الطلبات المكتوبة بخط أنيق والمضمخة بروائح عطرية على مكتب الموظف المختص بفرزها وتصنيفها، وبعد انتهاء الفترة المحددة لقبول الطلبات يعلن عن موعد المقابلة الشخصية مع الشكر للجمــيع، وبذلك تبدأ الاستعدادات والترتيبات اللازمة لاستقبال أفواج الفتــيات اللاتــي فــي عمر الزهور، إضافة إلى أخريات لا يبالين بشروط العمر، مادمن قادرات على العمل والإنتاج في محاولة جريئة للقفز فوقها، معولات على بصيص من الأمل يتمسكن به إلى النهاية، وبهذا فغالبا ما يختلط زبد البحر بقبضات من القش والرمل في هيئة عــدد من النسوة المترهلات، فيما لا تتورع هذه أو تلك على التقدم بشــهادة ميلاد مزورة، يظهرن في ممر الطابق الخامس بمسوحهن المحتشمة، متشحات بمناديل الحجاب المزخرفة وهن يطرفن بعيونهن

متعجبات وحاقدات على البنات الصغيرات من جيل الخلاعة اللاتي لا يراعين الله ولا التقاليد في شيء، وكيفما كان الأمر فهن جميعا ينتظمن في صف طويل يمتد بطول الممر وحتى المنعطف الذي يفضي إلى حجرة الإدارة، وفي أقل مما هو متوقع تسري في هذه السلسلة البشرية الجامدة أنفاس الحياة ويتصاعد الهمس الذي يسمع بوضوح عند صدور الإشارة بدخولهن الواحدة بعد الأخرى للمثول بهدوء ونظام بين يدي لجنة الفحص التي يتصدرها المدير العام.

ما إن يتم التلويح بتلك الإشارة التي لا ترى حتى يبدأ على الفور العرض الاحتفالي للمشاهد الجمالية المتمثلة في هذا الحشد من النساء اللاتي لا يفكرن بشيء فيما عدا الفوز بكرسي مريح في الشركة العربية العامة لخدمات البيئة ومكافحة التلوث، تتخلله ضحكات خافتة وضربات قلقة على البلاط بكعوب الأحذية وهمس ودعاء صامت بأن ينتهي هذا الاستعراض بسلام، أما موظفو الشركة فلا يفوتهم أن يطلوا برؤوسهم من وراء أبواب مكاتبهم متلصصين وهم يمسحون على شفاههم بألسنة من ورق، فهناك على امتداد الممر تتماوج ألوان الفساتين والتنانير والسراويل الملتصقة باللحم في دفق من الأنوثة الغضة التي ترفع من درجة حرارة الجو فيما يعبق الهواء بروائح الفل والياسمين والمسك والزعتر وروائح أخرى مجهولة، إنهم يغبطون المدير العام على هذه النعم التي هم أولى بها، متفهمين مع ذلك حرصه على إقامة هذه الاحتفالية المدهشة في مكتبه وفي حضوره وهو يجلس على الكنبة بأبهة في بدلته ذات المنشأ الإيطالي وحذائه الملمع ووجهه الحليق بنعومة وغليونه الذي يدخنه من باب

الوجاهة، بينما يقبع عضوا اللجنة قبالته في كرسيين منفصلين وهما في حالة تأهب كما لحمايته من هجوم مدبر لاغتصابه من بنات حواء هؤلاء وقد شهرن نهودهن لإرهابه.

ومــا يلبــث العد التنازلي أن يبدأ مع إطلالة أول المتقدمات للفحــص متهــيأة للإجابة على أسئلة وهمية تفرزها بنفسها من واقع حــياتها وظــروفها الاجتماعية وطموحها إلى الالتحاق بهذه الشركة المحصــنة جــيدا ضد العبث والفساد بحكم طبيعة مهامها في خدمة البيــئة ومكافحة التلوث، مؤكدة لأعضاء اللجنة من أنها سوف تكون حريصــة على مواعيد العمل بقدر حرصها على تنظيف أسنانها قبل الــنوم والتفاني فيه إلى أقصي حد، لأنه لا شيء في الدنيا أسوأ من آفــة البطالة التي تصيب المرء بالصدأ في جسده ومشاعره، وبشكل أكثر قسوة وتعاسة عندما يكون الإنسان امرأة تجد نفسها مرغمة على إهدار أجمل سنوات عمرها في أعمال الكنس وغسل الصحون ورفو الثياب، فلا يخطر ببالها وهي تسوق نفسها للجنة الفحص بحسن نية أن امتحان القبول لا علاقة لــه بهذا المنحي، فالمهم هو مدي تناسقها العضــوي ونقــش وجههــا وعبير أنوثتها ودرجة براعتها في جعل الحجــر يتــنهد حالما تخبط عليه بكعب صندلها، فلا مناص من أن يتنهد الحجر ويسقط المطر حتى في غير موسمه.

يســتغرق المدير العام في تأملاته الصامتة وهو يرنو بعينيه الخبيرتيــن إلــى إوزه تنفض ريشها الناعم وهي خارجة من الماء، وأخري تمطّ عنقها الأبيض الطويل وهي تنقر الهواء معجبة بنفسها، أمــا هذه الحمامة بريشها الملون فهي لا تروق لــه لأنها ناحله أكثر

مــن الـــلازم، وتلك يغطي ظهرها وشاح من الشعر الحريري ولها مشيه غزالة، كان يمكن قبولها لو لم يكن أنفها في حجم حبة من البلح الذي ينضج في آخر الصيف، فلا مجال للتساهل مع أية واحدة، مدققا فـــي التفاصـــيل حتى إذا وجد نفسه فجاه متأرجحا في شماعة نهدين معربديـــن، فيما تجره واحدة أخرى في اتجاهها معلقا بأشعة جسدها التـــي تلـــتمع مـــن تحت ثيابها، يحرك جفنيه بكسل في مواجهة فتاة مـــراهقة وهـــي تبتسم لــــه مباهية بجمالها كما لو أن العالم خلق من أجلهـــا وقـــد جاءت لتهديه إياه على طبق من الفضة، ولكن الوضع بالنسبة لعضوي اللجنة فهو يتناقض من كل النواحي مع مزاج المدير العـــام المختفـــي بنفسه في خضم هذا الاستعراض النسائي، مزهواً بأناقـــته وســـلطة منصـــبه، فهما يتفرسان في كل مخلوقة على حدة صـــعودا وهـــبوطا بنظرات لزجة، غارقين في هذا الصمت المدوي لقذائـــف فســـفورية غـــير مرئية تهز الأرض من تحتهما كالزلزال، يكافحـــان مجهديـــن الغرق في بحيرة من العرق، وبالكاد يستطيعان التـــنفس متشـــبعين بـــرائحة الـــزهور البرية وخلاصة رحيقها التي يستنشـــقانها بنهم مكبوت، ، إلى أن يشفق عليهما المدير العام فيأمر بإيقـــاف الاســـتعراض النسائي دقائق معدودة للراحة وتناول القهوة والعصائر الباردة، فيما ينصرف هو إلى تدوين ملاحظاته في كشف الأسماء ومراجعة الدرجات المرصودة إما بالزيادة أو الخفض تمهيداً لإعلان النتائج في المحصلة النهائية.

وبالرغم من أنه يعاني من آفة النسيان فإنه لا يمكن أن ينسى أبـــدا مفاجـــأة المسابقة الأولى التي أجريت عقب توليه لمنصبه على

رأس الشـــركة، فقــد كانت أحلام إحدى المتقدمات في الدورة الثانية التي أشرف عليها بنفسه، فما أن حان دورها للمثول بين يدي اللجنة حـــتى أطلـــت من باب المكتب متهادية في فستان بلون الشفق عندئذ رأهـــا وتـــرحم علـــى نفســـه، لقد هزت للوهلة الأولي كل القواعد والمواصـــفات التـــي تعتمدها اللجنة بشروطها ومقاييسها التي تعول عليها في اختيار الأفضل، بل ويمكن القول أن هذه الفتاة المتفردة في كـــل شيء قد داست مع أول خطوة على معايير القبول محطمة إياها مـــن جذورهـــا، كـــان فيها شيء لله كما قال لعضوي اللجنة عقب انصرافها، يومئذ لم يستطع التخلص من الشعور بالرهبة الذي داهمه فـــي حضورها الصاعق، فقد تعرق من تحت ثيابه وهو يتسلق على مهل وتدرج قامتها الممشوقة حتى تخوم صدرها الناهد، ثم وهو يدير عينيه من حولها بنظرة مغبشة، رمقها بجوع الذئب الذي يود لو أنه لـــم يكن كذلك بإزاء فريسة مغرية من المحتمل أن يغصّ بها، وفكّر من زاوية أخرى بأنه لا يجب أن يستعجل هذه الوليمة الفاخرة برغم تعطشـــه لهـــا، ولعـــل هذا ما يفسر حرصه وصبره عليها كل هذه الســـنوات فيما هو يضيق بصبره ويلعنه في سره، كانت الوحيدة من بيـــن المتقدمات التي سمح لها بالجلوس في حضرته متجاوزا حدود الجسد إلى الثرثرة معها بحميمية وطلاقة عن كل ماله علاقة بأشيائها الشخصية وطموحاتها وهمومها وحياتها الأسرية التي سبقه إليها عبد الدائـــم، كانـــت تجيب على أسئلته بعفوية وبابتسامة بريئة حتى إذا فاجأهـــا بسؤال لـــه رأس مسمار مدبب أو شوكة، مندهشة وحائرة لرؤية الدموع في عيني الرجل الأنيق، كانت تود في قرارة نفسها لو

تبكـــي معه، إلا أن المدير العام ما لبث أن جفف عينيه بمنديل أبيض سحبه من جيب سترته، ثم قال لها مبتسما:

ـ لا تنزعجي، هذه الدموع هي بتأثير العطور المغشوشة.

لقـــد ســـحرته وخلبت لبه وهيمنت على حواسه وأحلامه، فظل يتخـــبط في كيفية التعامل معها وما هو خطأ وصواب في موقفه منها، كـــان مشفقا عليها من مخالبه الطويلة والمدربة يوم أن داهمه شيطانه الـــنائم وقد هبّ من غفوته مرتعشًا في الأسبوع الأول أو الثاني لتسلم أحـــلام لمهامهـــا الوظيفية ملحقة بمكتبه، فقد أحس به يقفز من وراء الســـتائر، ثم يشير بيده الآثمة في اتجاه الباب المغلق وهو يرتل اسمها بصـــوت بـــبغاء: " أحلام، أحلام " كما ليذكره بها على أنها غزالة في متـــناول أســـنانه، يومها اندفع كالمجنون من فوق كرسيه وشرع في مطـــاردة شيطانه إلى أن رآه يختفي مسرعا تحت طاولة الاجتماعات، فلم يجد أبدًا من أن ينحني صارخا في وجهه بأنه في هذه المرة تجاوز حدوده، مهددا إياه بمقاطعته وعدم التعاون معه في كل الظروف إذا ما ظل يوسوس لـــه بأفكاره الشريرة هذه، ثم حذره بحزم:

ـ إلا أحلام يا أستاذي العزيز.

لقـــد قـــرّر أن يوفرها للزمن الصعب وكعلاج يحتاجه للتغلب على أمراض التخمة، بما يشبه الدواء الذي يقتنيه مريض الوسوسة، ثـــم يضـــعه على الرف إلى أن يحين الوقت الضروري لاستعماله، وبالتحديد عند ظهور مؤشرات على إصابته بمرض عضوي لا يقبل الشك أو التأويل، ولذا فقد أرجأ خطوته الحاسمة تجاهها وظل يرجئها

يوما بعد يوم إلى أن اكتشف مذعورًا تلك الجرثومة التي قلما تصيب رجــلاً فــي مثل وضعه، فلم يعرف في البداية كيف وفي أية خانة يصـــنفها، ولا إذا ما كان هناك من إمكانية لاقتلاعها من صدره، لقد أدرك مــتأخرا أن مشـــاعره التي يكنها لأمينة سره تتخطي ضفاف الشهوة وشررها الذي يلفحه تحت جلده، فقد تسللت في غفلة منه إلى شعاب قلبه فأصبح كالطفل الذي يضحك لأول مرة مندهشاً ومغتبطاً لأنـــه يسمع صوت ضحكاته، كان يسرح على هواه متنقلاً من زهرة إلـــى أخـــرى فـــي حقله الشاسع فلا يمكث هناك إلا بقدر ما يمتص رحيقها، ثم يغادرها وهو في قمة غروره وسعادته، كان يحلّق عاليًا عـــندما أصابه سهم طائش من عيني أحلام فهوي من سمائه الفسيحة بجناحيـــن مكسورين، وبرغم ذلك فقد أخفى عواطفه المتأججة حتى عـــن نفسه كأنه يخجل منها محتميا بنسائه الرخيصات اللاتي من كل لـــون وجـــنس، وظـــل يصم. أذنيه عن الإصغاء إلى تلك الموسيقى الحالمـــة التي تعزفها ربة الحب والجمال مجهدا في طمسها، إلى أن أيقظته من سباته تلك المفاجأة الرهيبة التي لم يحسب لها أي حساب، حالما طعنته في ظهره تلك الإشاعة المسمومة التي كان القهوجي هو أول من نشرها في الشركة بحسن نية كما قال لدى استجوابه، فوضع أحـــلام وعمـــر فـــي طبق واحد، ثم حمله في يده مع صينية القهوة وعرضه مباهيا به على جميع الموظفين فيما عداه،

يومئذ قال لـــه بغضب مكتوم وهو يود لو يقطع رأسه:

- كان يجب أن تطلعني على هذه المصيبة في حينها قبل أي شخص آخر، إلا إذا كان هناك مدير آخر غيري.

فــرد مســعود النقاز ببراءة دفاعا عن سلوكه وتبريرا للخطأ الذي لا يعتبره كذلك:

ـ لم أكن أود أن أشغلك بهذه الترهات يا أستاذ.

ـ علــيك اللعنه يا مسعود، إذا كنت تعتبر أحلام من الترهات فما هي القضايا الجادة في هذا العالم ؟!

لقــد أدرك بعــد انصراف مسعود النقاز من المكتب أنه تناوم أكــثر مما يجب في حسم أمره، ولكن الوقت لم يفت بعد، فما تزال هناك فرصة مغلفة بشيء من الأمل للحاق بها، حتى إذا اضطر إلى لملمــة أعضــائها المبعــثرة في القبو، أو أن يمسك بأطراف ثوبها الممــزق ليرفوه بيديه، حتى إذا أمرته بالزحف على بطنه من تحت قدمــي ذلك الشبح القابع كاليتيم في مخزن ملفات الموتى وهو يناجي طــيفها فلن يتردد في ذلك، كان أول ما فكر فيه لدى خروج مسعود النقاز هو أن يستدعيها إلى مكتبه، وعندما رآها تطل عليه من الباب الذي فتحته بهدوء قام واقفا من فوره وبحركة مسرحية مدّ لها يده من فــوق المكتــب وأخذ يدها في كفه، أما هي فقد فوجئت مندهشة بهذا التصرف الغريب، ثم تذكرت الدموع التي رأتها تبلل عينيه منذ عدة ســنوات تعاوده مرة أخرى لدى اقترابها منه كما لو أنه يهم بالبكاء ولكــنه يخجــل من بكائه، من دون أن يفلت يدها قادها إلى الأريكة العريضة وهي مستسلمة لـــه بعفوية إلى أن أجلسها عليها برفق، ثم قعــد قبالــتها مطرقًا برأسه إلى الأرض، وقد بقى على هذا الوضع للحظات ساهما، وعندما رفع إليها عينيه غمرها بنظرة صوفي يحدق مترقبًا إلى باب الجنة وهو يفتح أمامه على مصراعيه.

التقط يدها مرة أخري واحتضنها في كفه، ثم قال!

- أحلام.

- نعم يا أستاذ.

لكـــنه لاذ بالصمت وكأنه فقد صوته، وقد خيل إليها إذ ذاك أنه لـــن يــنطق بشـــيء لا اليوم ولا في أي يوم آخر، كان يفكر في هذه اللحظـــة بـــالذات وهـــو مكبل بقيودها السحرية أن يفك قيوده ويحرر إرادتـــه لـــيعود المدير العام فحسب، وتعود هي إلى موقعها الوظيفي أميـــنة لأسراره لا أكثر، ولكن لا أمل، هذا ما لا يمكنه أن يجادل فيه، لا أمل، وهذه هي فرصته الأخيرة التي لن تتكرر فإذا تحايل عليها أو أغفلها كما كان دأبه على مدي أربع سنوات فلن ينفعه الندم فيما بعد.

- أود أن تسامحيني يا أحلام فهذا كل ما أرجوه.

ابتسمت وردت متسائلة بمزيد من الدهشة:

- ولكن على ماذا يا أستاذ مادمت لم تسىء إليَّ أبدا.

- بل أسأت يا أحلام، ولكن ما أتمناه منك الآن هو أن تسامحيني.

كـــان يجـــب أن يخاطبها بهذه اللغة التي هي خليط من نياته الحسنة وندمه وتباكيه، وهو لم يخطئ في رجائه هذا، ولو أنه تجاهله أو تـــرفع عـــنه لما كان هناك من إمكانية لرأب الصدع في علاقتها العاطفـــية به ولظلت حاقدة عليه إلى الأبد، لقد تولت هي عند مجيئها إلـــى الشـــركة. والتحاقها بمكتبه ترتيب مواعيده الغرامية مع نسائه المتهـــتكات وكلما اقتربت واحدة منهن من باب مكتبها فإنها لا تنسى

أن تضع سكيناً في حقيبة يدها لتطعنها به بلا رحمة، لقد ذبحت مئات المرات على يد نساء عديدات فيماهن يخطرن باتجاه حجرة الإدارة، أما نزيف كبريائها فلم يتوقف إلا مع أول خطوة قادتها إلى القبو.

ـ إنني أدعوك إلى أن تقاسميني حياتي، وأعدك منذ الآن بأنه لن تكون هناك امرأة غيرك.

قال ذلك وهو مازال يمسك بيدها، لم تتفاجأ بالرغم من أن دعوته هذه جاءت متأخرة وفي غير أوانها، كان يتوقع أن تطلب مهله للتفكير، أو أن تجيب بالرفض وهو احتمال قائم، لكنها وبعكس توقعاته المتشائمة فقـد واجهته بابتسامة كئيبة مستعرضة في ذهنها كل مراحل وتقلبات. علاقـتها الطائشة بموظف القبو التي انتهت بنومها معه في فراش عبد الدائم، لم تعرف كيف تبرر لنفسها فعلتها المميتة إلا في أنها لجأت إلى عمر عبد الحميد هاربة من الضباب الأصفر ومن تعاليم الكبت وقد أفلح هـو في انتزاعها كالإبر من جسدها، وهي غير نادمة في كل الأحوال على مغامرتها الجسدية هذه بكل مكاسبها وخسائرها،

ـ قالت بصوت لا يكاد يسمع:

ـ ولكـن يا أستاذ هناك أشياء مهمة يجب أن تعرفها أولا، أنا لم أعد ....

كـان يمكن أن تقولها بلا مواربة لو أنه لم يسارع بوضع يده على شفتيها.

ـ الذنـب ذنبـي يا أحلام، وإذا كان ذلك قد وقع فعلاً فأنا لن أحاسبك عليه، تأكدي من ذلك يا أحلام.

- 13 -

حـــدّق بتركيز وبشيء من الدهشة والبلاهة في حروف اسمه المكـــتوب بخـــط أســـود على ظهر المغلف الصغير الذي سلمه إياه مســـعود الـــنقاز يدًا بيد كما أوصاه بذلك المدير العام، حثّه القهوجي علــى أن يشرب قهوته أولا عندما رآه يحاول فتح المغلف بإصبعه، وبعد أن حطّ متنهدًا ومتعبًا على حافة الكرسي الذي بلا مسند تحسس ركبتيه ونبّه عمر عبد الحميد مجددًا لكي يتناول القهوة قبل أن تبرد.

ولأن مسعود النقاز قد تعوّد منذ يفاعته على التعامل مع الدنيا وحملها في يده على أنها كذبة كبيرة أو خرافة مشوقة يروْى أحداثها ووقائعهـــا التافهه والجادة من الزاوية التي تروقه، فقد خيل إليه وهو يعبـــث بأزرار سترته النحاسية أن بداخل المغلف بشارة ترقية تزيد من دراهم صاحبها التي يتقاضاها في آخر الشهر من خزينة الشركة، وقـــد يكـــون في باطنه رحمة تفضّل بها المدير العام على واحد من مستخدميه البائسين فقرر سحبه على عجل من تحت الأرض حيث لا يوجد شيء سوى الرطوبة وضجة صفير الفئران إلى ضوء الشمس، بمـــنحه وظيفة تليق به فيما وراء ملفات الموتى وأشباحهم التي تغمر القبو، وبذلك فإنه يستحق التهنئة على ضربة الحظ هذه، فلا يجب أن يبخل بها عليه مادامت لا تكلفه قرشًا واحدًا، وبذلك فقد تجعد وجهه بابتسامة عريضة ودمدم قائلا:

- مبروك عليك يا أستاذ عمر، والله أنت تستحق كل الخير.

كان يجب على القهوجي أن يعزيه وهو الأصح، بهذا فكرّ عمر عبد الحميد متسائلا في قرارة نفسه عن الفرق بين حصوله على ترقية أو عــلاوة أو جــره إلـــى هــوة سحيقة كما نصت على ذلك الرسالة الإداريـــة الموقعـــة من طاووس الشركة العربية العامة لخدمات البيئة ومكافحـــة الـــتلوث، وهذا الذي عود نفسه وكان يجب أن يعودها منذ الـــبداية علـــى ضرورة العيش والتكيف مع عالم الحماقات والنزوات والأهـــواء المتقلبة والنزعات الشريرة وكل الآفات والأوبئة الأخلاقية والاجتماعـــية، التـــي يتعـــثر بها متراكمة في كل مكان لزجة ومائعة كـــروث الـــبقر، لقـــد غـــدا ميراث الانحطاط هذا جزءًا لا يتجزأ من الأعـــراف والتقالـــيد الحديثة التي ينساق إليها الناس المصابين بعمى الألوان باندفاع هائل وهياج كما في الأساطير لكي يتمسحوا بها وكأنها من المقدسات، كل شيء متوقع ومحتمل. قال مخاطبًا نفسه بلا صوت وهو يمرر عينيه للمرة الثانية على السطور الواردة في الرسالة إلى أن توقف بعدم اكتراث عند توقيع المدير العام وختمه الأسود.

كانت في ظاهرها رسالة شكر على ما قدمه موظف القبو من خدمـــات جلـــيلة وحـــيوية للأموات والأحياء على السواء في نطاق المهمـــة المســـندة إلـــيه ووفائه بالتزاماته تجاهها بروح المسؤولية والأمانـــة، وهذا ليس بالغريب عليه بحكم تخصصه وتفوقه في علم الكيمـــياء الحـــيوية، إضافة إلى ما بذله من جهود للنهوض بخدمات البيـــئة ومكافحـــة الـــتلوث منذ اليوم الأول لانضمامه إلى صفوفها العاملـــة، ولكن بالنظر إلى الظروف الطارئة التي جدت مؤخرًا على

الوضـــع الاقتصادي للشركة مما يستدعي ويحتم تقليص العمالة في إطار المصلحة العامة، وبذلك فقد تقرر إنها خدماته.

هـــذا اليوم ليس بالتأكيد آخر يوم في عمره، وليس ثمة علامة علـــى أن موعـــد يوم القيامة قد أزف، فسوف تستمر الحياة حتى إذا كانت مغمورة بالفوضى والعبث، وسوف تتفتح الزهور في موعدها وتشـــرق الشـــمس كما هي في خيال الأطفال بقلب أبيض وقبعة من الفضـــة المجلوة ،وإذا كان القهوجي بصفاء مشاعره وسذاجته، ظن بأن الرسالة هي في صالحه فبادره بالتهنئة فإنه في هذه الحالة يجب أن يبادله نياته الحسنة تجاهه.

طوي الرسالة في كفه وقال:

- الله يبارك فيك يا عم مسعود.

ولكن القهوجي قال متسائلا بفضوله التقليدي:

- ترقـــية أم علاوة، أما إذا كان نقلك إلى وظيفة أخري فوق الأرض فهذه رحمة من الله يجب أن تحتفل بها بذبح عجل رضيع.

- عجل رضيع لا يكفي يا مسعود.

وكما يبدو فإن القهوجي لم يسمعه جيدًا، فقال يستوضحه:

- ماذا قلت؟ الله غالب السمع لم يعد على يرام، العمر يا أستاذ.

ولكـــن عمر عبد الحميد لوّح بيده بدون أن يجيبه بشيء، لقد حان الوقت لأن يذهب فيجر ظله الشاحب في الشوارع المغبرة وليس

فـــي جيـــب سترته شيء سوى صورة أحلام التي أهدتها لــــه مذيلة بتوقــيعها بقلم أحمر على أنها كما كتبت على ظهرها بخط دقيق: " ذكـــرى أيـــام لا تنسى " فهذا كل ما تبقي من أحلام وزمنها الجميل، صورة للذكري، أما هو فلا مناص من أن يشرع في البحث عن عمل يعيش منه حتى إذا تورمت مفاصل أصابعه وهو يطرق الأبواب التي قلمـــا تفـــتح لأمثاله من الكائنات الهشة، وفي كل الأحوال فلن ينزعِ جلدهِ ليبيعه ويأكل بثمنه لأنه يدرك أن جلد الإنسان لا يساوى درهماً واحـــدا فـــي هذا العالم الذي يحكمه ويديره المدراء العامون بمزاج متقلـــب وصـــلاحيات فضفاضـــة، دعك يا عمر من المثل القائل أن القـــناعة كنز لا يفنى، فهو يفني كأي شيء آخر في الدنيا، وأنت لم يكـــن لديك أبدا هذه القناعة بالرغم من وظيفة القبو وما تنطوي عليه مـــن عبـــث وبلاهة، فهي لا توجد لدي أي إنسان يعيش على سطح الأرض، أما أولئك الذين يتظاهرون بها وهم يسبحون بحمد الله فلكي يغطوا على عجزهم وخمولهم أو على جريمة اختلاس كبيرة، فهناك علـــى طول الخط مدير عام يجيد كل فنون الغواية والنهب والخداع، يتوارثها أحدهم عن الآخر وكأنها وصية ملزمة، وكما قال عبد الدائم في الفصل الرابع من أوراقه فإن هذه القناعة غير المجدية ما هي إلا هدنة بين معركة وأخرى، بين امرأة تأتي وأخري تغيب في السراب، بيـــن الشـــك واليقين، بين جلد الذات وجلد الآخرين بلا هوادة، بين الوقـــوف علـــى الناصـــية والفرصة الضائعة لاقتحام المجهول، بين الحقيقة والهروب منها، وما أنت سوى الوجه الآخر لسلفك عبد الدائم الـــذي حكـــم بالنفي إلى ظلمة القبو، ومن المحتمل لو امتد بك العمل

الوظيفـــي في هذه الشركة أن تموت وحيدًا في فراشه، ذلك الفراش الـــرث الذي من عجائب القدر وسخريته أن أحلام حولته إلى واحة لأفـــراح القلـــب والجســـد، مستغلة إجازة مسعود النقاز وغيابه عن الشـــركة لكي تهبط إلى القبو في الدقائق الأولي للدوام الرسمي بكل حمولتها من البهجة والحنين، تجئ مع شمس الصباح في هيئة فراشة مزهو بجناحيها الجديدين، وهي المطبوعة على التجديد وعدم تكرار نفســـها، ففي كل يوم تولد من رحم الغيب أحلام مختلفة بلون وطعم غيره بالأمس، لقد أتاح لها المدير العام فرصة سانحة للتأنق والتألق والـــبهرجة والإثارة بهداياه من الثياب النسائية الراقية والمجوهرات، فكـــان علـــى حد قولها يدعوها من يوم لآخر إلى مكتبه لكي تختار وتنتقـــي مـــا يـــروق لهـــا ومـــا يلائم ذوقها من الفساتين والأحذية والجوارب والملابس الداخلية كأنها في سوق للتبضع، وما يزيد عن حاجتها يقوم بتوزيعه على نسائه الماجنات .

وهكـــذا فقد كان يترقب في كل صباح جديد مجيء أحلام في أبهـــي زيـــنة إلـــى أن تطل عليه من نافذة أشواقه المتأججة، امرأة موســـومة بالســـعادة والفرح الإنساني، امرأة للعب والبكاء، لدروس الفـــراش التـــي كدروس في تحضير الأرواح، وقد تعلماها وأتقناها كتلميذيـــن مجدين ومتفانين على يد أستاذ يتسم بالتسامح اسمه الحب، وإن لم يتحدثا عنه أو يذكراه بهذه الصفة إلى يوم أن افترقا من دون أن يودع أحدهما الآخر.

ومـــا كانـــت احتفالية الطيش السرية التي تقام كل صباح في مخـــزن ملفات الموتى لتبدأ إلا مسبوقة بطقوس وجبة الإفطار التي

يتناولانها ليس فقط كزميلين في الشركة العربية العامة لخدمات البيئة ومكافحـــة الــتلوث تعارفًــا وتحابًا من وراء ظهر العالم وفي ساعة رحمة، وقد سبقا عصرها في ترتيبات العلاقة الجسدية دون تطفل من أحـــد، وإنما كزوجين مفترضين استطاعا أن يتدبرا أمرهما من دون شهود ومهر وإجراءات ومصاريف بلا حساب لا يجوز تخطيها في عــرف الناموس الاجتماعي والأخلاقي وإلا تعرضا للفضيحة وربما للســجن أيضا، والحقيقة أنهما وجدا من الوقت ما يفيض عن ألعاب الفــراش وما يكفي لأن يتحدثا متجادلين بقدر من الجدية والتفاهم في مســألة اتحادهمـــا الجسدي الذي تقره الشريعة وتباركه الملائكة في الســماء في ضوء الواقع وإشكاليات المحيط والظروف التي يعيشها كــل واحــد منهما على حدة، فبدأ هو دفاعه المحموم عن أوضاعه مــتعللا بأزمـــة الســكن وارتفاع أثمان العقارات وكأنها تجلب من الخـــارج، مع عجزه عن توفير مأوى لائق بهما من مدخراته القليلة التـــي آلـــت إليه من تركة أبيه، أما في حالة التفكير بالإيجار فإن ما يتقاضاه من دراهم معدودة في آخر الشهر يستلمها من خزينة الشركة فإنهـــا لا تكفـــي كما قال لإيجار كوخ أو زريبة حتى، ومع كل هذه الذرائـــع التي ساقها تباعا كمؤشر على عجزه فقد أبدى استعداده لأن يطيعها في كل ما تأمر به وما تقترحه من حلول مبديا حرصه الذي بلا حدود على التضحية من أجلها حتى بحياته.

أمـــا هـــي فقـــد كانت أكثر جرأة في موقفها إلى حد أنه وهو يصغي ساهما إلى دفاعاتها وتبريراتها لسلوكها المتهور الذي لا تملك إلا أن تطلق عليه هذه الصفة لم يصدق أن أمينة سر المدير العام هي

التي تخاطبه بهذه الجسارة من تحت مظلة شعرها الفاحم، وإنما امرأة أخـــري خبـــيرة بشـــؤون الدنيا وآفاتها المتراكمة، عندما قالت لـــه بصـــوت لـــــه صـــدي جرس من الحجر أنها كانت خائفة إلى حد الرعب من أن تنحدر إلى جحيم العنوسة التي أصبحت من السنوات الأخـــيرة مـــن الأوبئة الفتاكة المستوطنة بين بنات جنسها، وأنها ما عادت تطيق تنشق الهواء الأصفر وكانت تفكر بأنه ليس من الغريب أن تخلـــع ثيابها ذات يوم في مواجهة المرآة فترى جسدها وقد تلطخ بـــبقع الصدأ في مواضع كثيرة، وأسوأ من ذلك أن تدوي في النسيان وبـــؤس الانـــتظار فـــي محطـــة مهجورة لا يمر بها أحد حتى ولو بالمصـــادفة، ولـــذا فقد قررت أن تعيش حياتها بإرادتها المستقلة من دون أية حسابات لأي شيء فيما عدا حسابات قلبها وجسدها الذي هو رأس مالها الوحيد في الدنيا.

- والمستقبل يا أحلام، هذا الوضع الذي نحن فيه لا يمكن في كل الأحوال أن يستمر إلى الأبد.

ولدهشـــة فقـــد أجابـــته بمـــا لم يكن يتوقعه عندما قالت لـــه ضاحكة:

- إذا لـــزم الأمر فليس لدى مانع يا أستاذ عمر في أن نتزوج ونعيش في هذا القبو.

وبذلـــك فقد آل خداع الحب الذي ولد وترعرع في القبو تحت ســـطح الأرض إلى ما يشبه الصفقة التجارية التي يجب أن يتقاسما أرباحها ويستمتعا بمكاسبها حتى آخر لحظة دون تفكير بالخسارة أو

بمـــا سوف يأتي، فكأن الغد ليس لـــه وجود، وأن الزمن ما هو إلا قـــارب يطوفـــان بـــه في عرض البحر متحابين ومشحونين باللهفة والجمـــوح، فيـــنعم كل واحد منهما بما يجنيه من الطرف الآخر وما يمنحه لـــه بسخاء وحميمية، فكانا يشتركان في فرد فراش عبد الدائم وتســـويته، ثم يجلسان عليه متربعين لتناول طعام الإفطار الذي تعده أحلام في المنزل وتحضره معها إلى القبو في كيس البقاله.

لـــم يغـــب مـــنظر أمينة سر المدير العام وهي تدلف من باب الشـــركة مؤرجحة كيس البقاله في يدها عن العين الراصدة للموظفين مـــن الجنسين، فهم لا يغفلون أبدا عن حركاتها وسكناتها ولا حتى عن مظهرها وما يلوح في سماء عينيها من كدر أو غيوم، انطلاقاً من أن ذلـــك قد يكون مؤشرا على الوضع السائد في الشركة وما يشي به من تطورات محتملة، فقد تعودوا الحكم على واقع الحال وتقلباته من لون فستانها فيما إذا كان بلون فاتح أو مشرق يدعو إلى التفاؤل ويجلب لهم الحظ السعيد، أو قاتما بلون الفحم مما يوحى لهم بالتشاؤم، فهيئة أحلام كيفما كانت لا بد أن تكون بشكل أو بآخر انعكاسا لمزاج مدير الشركة ومـــا قد يتخذه من قرارات، فإما أن يأمر بصرف علاواتهم الموقوفة ويفـــرج عـــن ترقياتهم المؤجلة ويلغي الخصم من المرتب والعقوبات الأخـــرى التـــي يجهلونهـــا أو العكـــس، فإذا ظهرت في ممر الطابق الخـــامس بفســـتان أسود أو رمادي وتسريحة شعر تليق بالعجائز فهذا يعنـــي أن ثمة بوادر لهبوب عاصفة قد تقذف بهم جميعا إلى الهاوية، ففـــي ســـياق هـــذه التوقعات المريبة والبلبلة احتل كيس البقاله موقع الصـــدارة فـــي اجتماعات النميمة على الفور، فتداوله الموظفون بكل

مراتـــبهم علـــى أنه من الأسرار المثيرة فلا يجوز إهماله أو التغاضي عنه، ولكن إحدى الموظفات وهي عانس مترهلة انبرت قائلة أن كيس الـــبقالة في يد أحلام لا يحتمل كل هذه التخمينات والضجة، ففي غياب القهوجي مسعود النقاز تولت هي خدمة المدير العام وتلبية احتياجاته، تعـــد لـــه فنجان القهوة بيدها وتحمله إليه لتضعه أمامه على المكتب، وتجلـــب لـــه من السوق كل ما يحتاجه من فطائر وعصائر في إطار واجـــب وكـــرم الضيافة لزواره من الرجال والنساء على السواء، كما تأتـــيه بالصـــحف والمجلات وتشتري التبغ لغليونه إلى غير ذلك من الخدمات السرية والعلنية التي يكلفها بها من يوم لآخر.

لقـــد بدا هذا التفسير لأول وهلة مقنعًا إلى حد ما، إلا أن أحد الموظفيـــن ردّ عليها مؤكدًا أن كيس البقالة سوف يظل سرًا مغلقًا لا علاقـــة لـــــه البـــتة بالمديـــر العام ولا أمل في الكشف عن خفاياه وطلاســـمه إلا عند عودة مسعود النقاز من إجازته، فهو الوحيد الذي لا يخفي عنه شيء مهما حرص الآخرون على كتمانه.

وفـــي انتظار عودة القهوجي إلى عمله في الشركة لم تتوقف أحـــلام عن الظهور كل صباح في الممر المؤدي إلى حجرة الإدارة وهـــي تؤرجـــح كـــيس البقالة في يدها كما يؤرجح الأطفال حقائبهم المدرســـية، تدلـــف من باب الشركة إلى الردهة متباطئة قليلا ريثما تســـحب مفتاح المصعد من حقيبة يدها، وفي أقل من دقيقة تظهر في الطابق الخامس متجهة إلى مكتبها بخطى مرحة، فيما لا يخلو الأمر من تحية صباحية يوجهها إليها أحد الموظفين وهو يعبر الممر فتجيبه بشرود غير عابئة بمن يكون، فتمضى في طريقها وهي تود لو أنها

تذهب رأسًا إلى القبو، ولكن هناك بعض الأعمال التي يتوجب عليها مراجعتها خاصة ما يتعلق بالبريد الصباحي الذي تتصفحه ورقة ورقة وتصنفه بحسب أهمية الموضوع، ثم تجري بعض الاتصالات الهاتفية، ما إن تنتهي منها حتى تلتقط كيس البقاله من فوق المكتب، ثم تهرول مسرعة إلى موعدها الغرامي تحت الأرض.

ما إن تطل برأسها من باب الحجرة وهي تضع قدمها على العتبة حتى تجد عمر عبد الحميد ينتظرها بنفاد صبر على حافة هواجسه التي تتفاقم بمرور الوقت، وفي ظنه أنها لن تأتي في هذا اليوم ولا في أي يوم آخر، وذلك لإدراكه بأن عالم الشركة الذي يشبه عش الدبابير يغبطه على سعادته، وأن الموظفين جميعهم يكيدون له ويتآمرون لتعكير صفو حياته وإفساد أفراحه ونشوته بأحلامه الجميلة وحرمانه منها إذا أمكن، ما أن يسمع صوت ضربات صندلها على درج القبو حتى يصعد الدم إلى رأسه برعشة المفاجأة السارة، ثم ينهض طافيًا فوق دوامة مشاعره الجياشه ليفرد أشرعة الحنين والشوق لهذه الحورية المجبولة من جمر متوقد بنعومة دفئها والتماعات شررها وصوت توهجها، تبدو لأول وهلة شبه خامدة، ولكنها ما أن تحين ساعة الصفر حتى تتحول إلى بركان لا ينطفئ، إلى حدّ أنه هو نفسه فوجئ بازدواجية طباعها، فلم يكن ليخطر بباله أن أحلام هذه التي يرق صوتها إلى حد الهمس وتتورد خداها بلمسة من إصبعه يمكن لهذا الصوت ذاته أن يهز الحجرة بالتنهدات والشهيق فيما هي تتقلب على الضفة الأخرى لفراش المرحوم عبد الدائم.

في يومهما الأخير، وكما لو أنهما حدسا معا وفي وقت واحد بأنه ليس لـــه ما بعده من دون أن يبوح أحدهما للآخر بما يغمره من قلق وهواجس مع قرب عودة مسعود النقاز من إجازته أو بحقيقة ما يفكـــر بـــه فقـــد تهيأ لـــه بكل مخزونهما من طاقة الشباب المتجددة والعواطف الملتهبة والرغبات العارمة إلى حد أن المرحوم عبد الدائم وهـــو ينام منكمشًا على نفسه في ملفه السميك تحت طبقة من الغبار أفـــاق مـــن سباته مرتعبا على صوت طوفان ورعود وفي ظنه أن ســـاعة الحســـاب قـــد حانت، فتح عينيه مذعورًا على ذلك المشهد الفاضـــح الذي لا يمكن لأحد تخيل حدوثه على الإطلاق لا في الدنيا ولا فـــي الآخرة، فما بالك إذا كانت وقائعه غير الأخلاقية والمنافية للآداب العامة تجري في فراشه بدون خجل أو مراعاة لحرمة موتى الشـــركة الذيـــن مـــاتوا بالسكتة القلبية أو الدماغية، والذين أصيبوا بالسكتة الوظيفية كما في حالته هو، بحث عن صوته فلم يجده، كان يـــود أن يصـــرخ بـــأعلى صوته بأن الناس جميعا قد فقدوا رشدهم وآخـــرهم أحـــلام وعمر عبد الحميد، وعندما عجز عن النطق بكى بدموع اليتامى.

لقـــد جـــاءت مبكرة عن موعدها في هذا اليوم، متحررة من الكبـــت وتبكيت الضمير ومن لعنة العلاقة الجسدية المحرمة، وهي التـــي ضـــحت بكنزها من العفة على مذبح الحب أو ما توهمته حبا فالأمر سيان، فقد أصبح كل همها أن تجني ما هو متاح من السعادة والمتع التي تشبه زخات المطر، ما أن انتهيا من تناول طعام الإفطار وحمـــدا الله على نعمته حتى عمدت هي إلى فراش عبد الدائم ففردته

على الأرض وتمددت فوقه في انتظار أن يفك عمر عبد الحميد قيود رجولـــته، كانـــت ســـاعة للعربدة والجنون، لليأس والدموع والفرح المأتمي، لاسترداد جسدها من العدم وإطعامه لشريكها المحموم على دفعات كفتات الخبز، تأخذ وتعطي بنهم متحررة من المسمار الأخير فـــي أصـــفادها الموروثة من زمن غابر، ما نالته في صباحها هذا يفيض إلى حد الشعور بالتخمة مستسلمه لطوفان الحنين وشبه مخدرة فلم تسمع نحيب عبد الدائم، ولم تنهض من الفراش إلا عندما أنذرها قلبها بأن المدير العام ينتظرها لكي توافيه بفنجان القهوة في مكتبه.

ـ لا أحلام بعد اليوم.

قـــال ذلك لنفسه وهو ينهض مندفعًا من فوقه كرسيه الخشبي بكـــل ثقله من المرارة والغيظ، لكنه ما لبث أن توقف ذاهلاً بعد أن قطـــع خطـــوة واحدة باتجاه الباب الذي ينتصب مسعود النقاز بحذاء إطـــاره، طوي الرسالة ثم أعادها إلى الملف ودسها في جيب سترته، كـــان القهوجـــي المشدوه يرصد حركاته المرتبكة حائرا فيما أصابه على إثر إطلاعه على محتوي الورقة الصغيرة وكأنها جمرةٌ حرقته فـــي أصـــابعه، لا شك في أنه حظي ببركات المدير العام الذي أنعم علـــيه لا يدري بماذا، فكان يتوجب عليه أن يشكر الله على نعمته لا أن يـــدوس علـــيها بقدمه، ثم هو لا يفهم سر تخبطه، ومع ذلك فلن يمضـــى وقت طويل حتى يتوصل إلى فك عقده هذه القصاصة، رآه يتفقد حاجياته القليلة الموزعة باتساع الحجرة، رآه يمد يده ويلتقط من فـــوق المكتب عدة مفاتيح مثبتة في قلب من الزجاج، ثم وهو يجمع مجلاتـــه وجـــرائده القديمة التي كان يحضرها معه إلى مكتبه لكي

يتسلى بها بتصفحها حين يتعب من تصفح أوراق عبد الدائم وأوراق الصمت المتراكمة من حوله، ومن التحديق في لا شيء رآه وهو يفتش درج المكتب ثم يسحب منه ساعته المتعطلة التي أهمل إصلاحها لعدم حاجته إليها بإزاء الوقت الضائع الذي ينفقه في الإنصات إلى دقات قلبه أو إلى صفير الفئران.

هذا كل ما هنالك، ألقى نظرة أخيرة على زوايا الحجرة مدققاً فيما حوله ليتأكد من أنه لم يترك وراءه أي أثر يدل على مروره بهذا القبو الرطب الذي قضى فيه ما يقرب من ثمانية أشهر هي خلاصة محنته وسعادته. عندما انتهى من جمع أشيائه لم يبق سوى المغلف الضخم الذي يحتوي على هذيان عبد الدائم ومسيرة احباطاته، مدّ يده والتقطه من فوق المكتب متأبطا إياه تحت ذراعه، وبحمولته هذه من تاريخه العابث وأوهامه التي أمحت غادر مخزن ملفات الموتى إلى غير رجعة، ولكنه قبل أن يرتقي الدرج إلى حيث الشمس المشرقة التفت إلى القهوجي، ثم أخذ يده في كفه وهزها عدة مرات.

- سامحني يا عم مسعود فقد أكون أسأت إليك ولو عن غير قصد.

- الله هو الذي يسامح الجميع يا أستاذ عمر.

قال القهوجي ذلك من دون أن يدرك دوافع هذه البلبلة التي تظهر أثارها واضحة كبقع الجدري على وجه موظف القبو، في انقلاب سحنته وكآبته وارتباكه كما لو أنه جاءه بمصيبة في مغلف من الورق، كان في عينيه أكثر من سؤال احتفظ به لنفسه وهو يجر قدميه في أثر عمر عبد الحميد لدى خروجه من الحجرة، صعد

الـــدرج وراءه إلى الطابق الأرضي، وتبعه بطول الممر حتى الباب الخارجي، عندئذ فحسب أفاق من ذهوله، كيف لم يفهم منذ البداية أن المديـــر العـــام قـــد قرر التخلص إلى الأبد من شبح القبو الذي سطا كـــاللص وفي غفلة منه على أمينة سره، ألم يكن هو أول من حذره من مغبة وعواقب طمعه في هذه الفتاة التي لا يجرؤ أحد من موظفي الشـــركة علـــى لمســـها ولو بطرف إصبعه، ذلك أن ولي نعمتها قد يتســـامح فـــي أي شـــيء إلا في أن يقارعه كائنا من كان في تحفته البشـــرية، فما بالك إذا كان موظف القبو يطمح إلى أخذها كلها على بعضها وابتلاعها في لقمة واحدة.

عـــندما هبط عمر عبد الحميد درج الشركة إلى الشارع لوح لـــه بيده مودعا.

- مع السلامة يا أستاذ عمر.

كـــان الوقت حوالي الساعة الحادية عشرة صباحًا، الزحام على أشـــده وزعيق السيارات المسرعة في دوامة من الغبار يسمع في كل اتجاه، إنه نفس المهرجان اليومي لمدينة دائخة منزوعة الأحشاء، تبدو بعـــض شوارعها العارية حتى من قشرة الأسمنت أشبه بأمعاء الكلاب الميـــتة، المـــارة القلائل وهو واحد منهم لا أحد يعرف وجهته، ولكنه تذكر فجأة موعده المؤجل مع ربة المتع المتجولة المدعوة كنزة، وبذلك عـــرف وجهـــته، سوف يقضي ما تبقي من يومه في النوم مبحرًا في كوابيســـه إلى أن تغمض الشمس عينيها في آخر النهار، فلا يراه أحد وهو يرفع ستارة الظلام ليدق بيد معدنية على باب متاهة أخرى.

روايات أخرى للمؤلف

1- المطر وخيول الطين - ط 1 - 1981 ف.

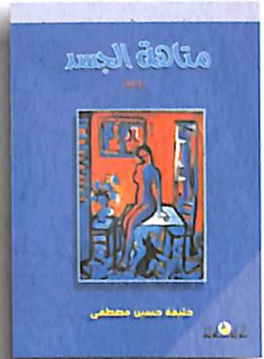
2- عين الشمس ط 1 - 1983 ف.

3- جرح الوردة ط 1 - 1985ف.

4- الجريمة ط 1 - 1993 ف.

5- ليالي نجمة (جزءان) ط 1 - 1999 ف.

6- الأرامل و الولي الأخير ط 1 - 2005 ف.



■ يقدم مجلس الثقافة العام للقارىء الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًّا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام